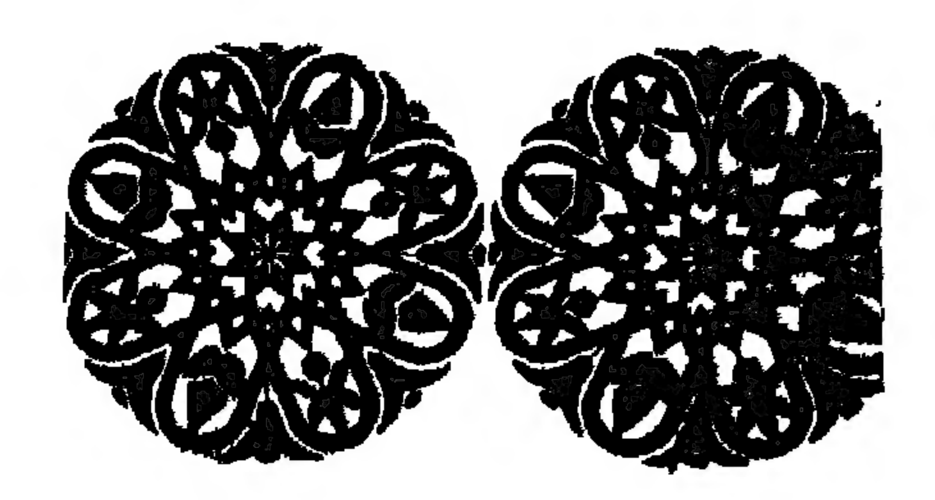
المفيد
في تاريخ المغرب

للسنة الثالثة الثانوية

تأليف

محمد الأمين محمد

محمد علي الرصافي



وفق برنامج وزارة التربية الوطنية المغربيـــة

المفيد
في تاريخ المغرب

للسنة الثالثة

من الطور الثانوي الأول.

تأليف

محمد الأمين محمد

محمد علي الرحماني

نشر

دار الكتاب

الدار البيضاء

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله وشكراً على نعمائه ، والصلاة والسلام على خير أنبيائه .
وبعد : فهذا هو الجزء الثالث من سلسلة «المفيد» الخاص بالقسم الثالث من الطور الاول للتعليم الثانوي بالمدارس المغربية . وهو يسير — كسابقيه الأول والثاني — وفق مقرر وزارة التربية الوطنية ، إلا أننا اضطررنا إلى إضافة زيادة طفيفة ، رأينا من الضروري إثباتها كي تبقى الحلقات التاريخية مترابطة ، لا اختلال بينها . من ذلك اننا زدنا درساً هو الدرس الثالث عشر وعنوانه: الموحدون في المغرب والأندلس وواقعة الأراك ، فالكلام عن الموحدين ، ولو بصورة موجزة — كما فعلنا — إذا لم يضف إلى المقرر ، تبقى هناك حلقة تاريخية مفقودة ، وهوّة زمنية سحيقة تفصل بين عصري المرابطين والمرينيين ، بل انه لن يكون هناك أية أهمية لتاريخ المغرب ، الذي يجمعه هذا الكتاب بين دفتيه باختصار .

كما زدنا عرضاً تاريخياً عن جلالة الحسن الثـاني ، عاهل المغرب المعاصر – أعانه الله – لأنا رأينا ان الإغضاء عن ذلك يعتبر نقصاً في الموضوع ، وبتراً لحركة تاريخية ما زالت في طور الاستكمال .

ولا شك ان القارىء الكريم باطلاعه على هذا الكتاب سيدرك مبلغ الجهد الذي عانيناه في سبيل إخراجه بهذه الصورة ، من الوضوح والبساطة والتثبت من الحقائق التاريخيـة وإعطاء كل ذي حقٍ حقه ، ومع ذلك فإنا لا نزعم بتاتاً أننا بلغنا الكمال في استيفاء هذا الكتاب ، اذ ان تاريخ المغرب : قديمه وحديثه ما يزال في حاجة ماسة الى جهود كبـيرة ، متواصلة ، حتى يزاح الستار عن الغموض الذي يكتنف كثيراً من فتراته الزمنية وحقائقه التاريخية .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الكتاب أُلِّف ليسد فراغاً شاغراً كبيراً، في مرحلة التعليم الثانوي،حيث لا يوجد بين ايدي الطلاب كتاب مدرسي مهم في تاريخهم المقرر ، عدا سلسلة « المفيد » ، التي من بينها هذا الكتاب .

وإنا لنرجو ان يكون عملنا هذا مفيداً لطلابنا الأعزاء،اولاً،وللأساتذة الكرام ثانياً،ولكافة من يشرفنا بالاطلاع عليه ثالثاً ، والله ولي التوفيق .

المؤلفان

برنامج التاريخ الاسلامي المقرر
للسنة الثالثة من الطور الثانوي الأول

●

1) المغرب قبل الفتح الإسلامي — السكان الأصليون — حياتهم .
2) الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون في المغرب .
3) أثر الحضارتين الفينيقية والرومانية في المغرب .
4) الفتح الاسلامي في المغرب — الفاتحون الأولون .
5) فتح الأندلس — المغرب والأندلس في عهد الولاة .
6) الأدارسة : بناء مدينة فاس — جامعة القرويين .
7) قيام الدولة الأموية في الأندلس — عبد الرحمن الداخل .
8) ازدهار الحضارة الاسلامية في الأندلس — عصر الخلافة الأموية، الناصر ، المستنصر .
9) المغرب بين الفاطميين والأمويين — إمارتا مغراوه وبني يفرن .
10) سقوط دولة بني أمية في الأندلس — ملوك الطوائف .
11) المرابطون : يوسف بن تاشفين — بناء مدينة مراكش .
12) المرابطون في الأندلس — واقعة الزلاقة .

13) الحياة الفكرية والفنية في المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين – اتصال الفكر المغربي والفكر الأندلسي .
14) عهد بني مرين – بنو حفص في تونس – وبنو عبد الواد في الجزائر .
15) بنو الأحمر في غرناطة – سقوط مملكتهم ونهاية دولة الإسلام بالأندلس .
16) المغرب في عهد السعديين – واقعة وادي المخازن – المنصور الذهبي .
17) هجوم الاسبانيين والبرتغاليين على شواطىء المغرب – كفاح المغاربة ضد هجماتهم – الوطاسيون .
18) الحياة الثقافية في عهد المرينيين والسعديين .
19) الدولة العلوية – عصر النشوء والاستقرار – المولى رشيد ، والمولى اسماعيل .
20) عصر الازدهار – المولى محمد بن عبدالله وحركته الاصلاحية .
21) المغرب والمطامع الأجنبية – المولى الحسن واعماله الاصلاحية .
22) المغرب والاحتلال الأجنبي – أسبابه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.
23) المقاومة الوطنية للاحتلال – ثورات الريف ، والصحراء ، والأطلس – الحركة الوطنية .
24) عهد الانبعاث والاستقلال – جلالة محمد الخامس .
25) الحياة الفكرية والاجتماعية في عهد العلويين .

تمهيد

بلادنا المغربية *

الموقع والحدود

تقع بلادنا العزيزة في الجزء الشمالي الغربي من قارة إفريقيا ، وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من الشمال الافريقي ، او المغرب العربي الكبير ، وتنحصر بين درجة 15 و 36 عرضاً شمالاً ، وبين درجة صفر و 18 طولاً غرباً. ويحدها من جهة الشمال البحر الابيض المتوسط ، حيث لا تبعد عنها

* اصطلح على تسمية اقطار الشمال الافريقي في عصرنا كما يأتي : تونس وكانت تعرف بالمغرب الادنى ، الجزائر وكانت تعرف بالمغرب الاوسط ، المغرب (بلادنا) وكانت تعرف بالمغرب الأقصى . وما زالت بلادنا المغربية تعرف في الشرق بمراكش ، وهو اسم لا يطلق عندنا الا على مدينة مراكش في الجنوب .

اسبانيا من جهة سبتة أكثر من 13 ميلاً ،ومن الغرب المحيط الاطلسي ، ومن الشرق حدود الجزائـــر الشقيقـــة ، ومن الجنوب مالي والسنغال بادخال الصحراء الكبرى التي ما زال معظمها مغتصباً . وتقـدر مساحتها بنحو مليون ونصف مليون كيلومتر مربع .

وقد تحرر وطننا اليوم من سيطرة الأجنبي ،بفضل جهود ابنائه الأباة ، ملكاً وشعباً ،ولكن ما زالت اجزاء مهمة منه خاضعة للغاصب الاجنبي ، كموريتانيا ووادي الذهب وإفني بالصحراء الكبرى ، وكسبتة ومليلية على البحر الأبيض ، وهي تنتظر دورها في الحرية والانعتاق .

التضاريس والأنهار

تخترق بلادنا سلسلتان جبليتان عظيمتان : سلسلة جبال الريف الشمالية المحاذية لشاطىء البحر الابيض المتوسط ،وسلسلة جبال الأطلس الجنوبية ، التي تتفرع الى ثلاثة أقسام عظمى : الأطلس الصغير ،والأطلس المتوسط ، والأطلس الكبير ،وتعد جبال الأطلس حاجزاً طبيعياً بين الاراضي الخصبة والصحراء ، كما تعتبر جبال الأطلس المتوسط خزاناً عظيماً للمياه ، التي تغذي أشهر الانهار المغربية ، كأم الربيع ، ووادي سبو ،ووادي درعة ، عدا أنهار صغيرة متعددة ، وبحيرات وينابيع لا حصر لها .

وجبالنا شاهقة ، يبلـــغ علو بعضهـــا (4165 متراً) . ولذا فان الثلوج تكسو مناطق منها ، مما يدفع بعشاق الانزلاق على الثلج الى قضاء ايام عدة بين تلك المناظر الثلجية الجميلة ، ذات أشجار الصنوبر الباسقة للتمتع برياضة الانزلاق .

والمغرب واقع في المنطقة المعتدلة الشمالية،ويطل على بحرين عظيمين ، ولذا كانت امطاره غزيرة شتاءً،وحرارته معتدلة صيفاً . وبلادنا هيَ البلد العربي الوحيد الذي يقترب من اوروبا كثيراً ، حيث ان المسافة بين اسبانيا ومغربنا لا تزيد عن 13 ميلاً ، لدرجة اننا نرى ارض اسبانيا بوضوح وربما رأينا بعضاً من سكانها يدرجون على اليابسة اذا كان الجو صحواً .

الثروة النباتية والحيوانية

وبلادنا بلد فلاحي ، لأن معظم اراضيها خصبة صالحة لكثير من انواع النباتات واهم حاصلاتها الزراعية : الحبوب والزياتين والقطن والفواكه والخضر والأزهار ، كما توجد بها الغابات الكثيرة ، والمراعي الطبيعية ، التي تعيش على اعشابها قطعان هائلة من البقر والغنم والمعز والإبل ،والخيول والحمير والبغال،كما تكثر الدواجن المتنوعة وأنواع شتى من حيوان الصيد البري وأسماك البحر والنهر .

الثروة المعدنية

يحتوي باطن الأرض المغربية على ثروة طائلة من المعادن المختلفة ، أهمها : الفوسفاط والفحم الحجري ، والحديد والنفط والنحاس،وتصدر من الفوسفاط والحديد والفحم الحجري كميات عظيمة إلى الخارج . والأمل معقود في ان تتمكن بلادنا في المستقبل من استغلال ثرواتها المعدنية بنفسها ، وذلك بإنشاء المعامل الضخمة اللازمة لصناعة الصلب .

وقد بدأت بوادر ذلك الأمل المنشود تظهر للوجود بالفعل ، حيث شُرع في تأسيس بعض المصانع الكبرى للقيام بتلك المهمة . وهكـــذا ستجمع بلادنا بين أهميتها في الناحية الفلاحية ، وأهميتها في الناحية الصناعية ، وهذه الميزة لا تشاركها فيها كثير من اقطار العالم .

السكان والمدن.

يبلغ تعداد السكان حوالي 13 مليوناً بما في ذلك الأجزاء المغتصبة . وهم يتألفون من : البربر (سكان المغرب الأقـــدمين) ، ومن العرب الطارئين على المغرب ايام الفتح الإسلامي وبعـــده ، ومن الأندلسيين . الذين هاجروا اليه في فترات مختلفة ، خصوصاً بعد إجلاء الإسبان لهم من الأندلس ، ومن اليهود وهم قلّة . وقد دخل بعضهم المغرب قبل الإسلام بأزمنة متقدمة ، كما جاء البعض الآخر من الاندلس فراراً من ظلم الإسبان وتعصبهم الكاثوليكي ضدهم .

وتكثر المدن في المغرب،وأهمها : فاس ذات المجـــد العلمي التليد ، ومراكش عاصمة المرابطين وحاضرة الجنوب حالياً ، ومكناس عاصمة المولى اسماعيل ، والرباط عاصمة المغرب السياسية ، والدار البيضاء عاصمته الاقتصادية ، وتطوان نزل الأندلسيين المهاجرين، وطنجة ملتقى البحرين: الأبيض والمحيط ، وسبتة ومليلية ، وغيرها .. وهاتان الأخيرتان مـــا زالتا تحت النفوذ الإسباني .

المغرب بلد سياحي

وتعتبر بلادنا من اجمل بلدان العالم من حيث المناظر الطبيعية الخلابة،

فجبالها شاهقة تغطي الثلوج مساحات شاسعة منها ، والأنهار والبحيرات والعيون متعددة فيها ، والغابات الكثيفـة والحقول اليانعة ، والحاجيات الضرورية والكمالية متوفرة بها ، ثم الأمن السائد ودماثة أخلاق السكان واكرامهم للضيوف – كل ذلك يجعلنا نستبشر خيراً بمستقبل بلادنا في كافة النواحي ، خصوصاً في الميدان السياحي ، الذي هو مصدر مهم في دعم اقتصادنا الوطني ، بالاضافـة الى المصدرين الفلاحي والمعدني البارزين اليوم أكثر من غيرهما .

الدرس الأول :

المغرب قبل الفتح الاسلامي

●

السكان الأصليون

تدل الآثار على ان المغرب كان مسكوناً منذ اقدم العصور، حتى أنه لا تُعرف بدايتها بالضبط، ولكن تقدر بعدة آلاف من السنين قبل ميلاد المسيح عليه السلام. وتدل الآثار على ان المواطنين الأولين لشمال افريقيا وجنوب اوروبا كانوا من السلالة السوداء، ولكنهم انقرضوا، كما تدل الآثار على ان الصحراء الكبرى كانت اراضي خصبة، كثيرة النبات، وفيرة المياه، لطيفة الهواء. وكانت تسكنها جماعات انسانية كثيرة العدد، غير ان العوامل الطبيعية قَسَتْ عليها، فغيرت من روائها وأبادت نباتاتها وأغاضت مياهها، فهاجر سكانها الى الشمال الافريقي.

وتدل الآثار كذلك على ان طوائف من الجنس السامي الكنعاني قدمت

الى المغرب من الشرق ، منذ الأعصر الغابرة . ويقول العلماء بأن اولئك الكنعانيين هم سكان المغرب الأقدمون . وهكذا تكون الآثار واقوال العلماء قد ايدت ما ذهب اليه ابن خلدون،حيث يقول : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم ، انهم من ولد كنعان » .

ويبدو من اقوال العلماء ان هؤلاء الكنعانيين وفدوا على المغرب في هجرات متعددة ابرزها اثنتان: الاولى حصلت من جنوب جزيرة العرب، والثانية حصلت من فلسطين ونواحيها ، في حوالي سنة 1215 ق . م ، وهذه الاخيرة كانت نتيجة لانتصار بني اسرائيل على اهل فلسطين الأولين أي الكنعانيين فهاجرت طوائف منهم الى المغرب،وذلك في عهد الفينيقيين. وفي هذا الصدد يقول احد المؤرخين : بأن اهل فلسطين* عندما تغلب عليهم بنو اسرائيل هاجرت طوائف منهم الى المغرب عن طريق مصر فليبيا ، كما ان بعضهم الآخر ذهب الى فينيقيا فنقلتهم السفن الفينيقية الى المغرب . ويذكر المؤرخون بأن هؤلاء الكنعانيين كانوا على قدرٍ من الحضارة والمدنية .

ويقول العلماء بأن سكان المغرب الأقدمين وفلسطين وفينيقيا ومصر (والعرب) كلهم كنعانيون . وقد كان لهؤلاء الكنعانيين — وبالأخص الفينيقيين والمصريين — فضل عظيم على الانسانية في الزمن القديم ، لأنهم أسبق الامم الى الحضارة،كما كان الفينيقيون اول من علموا الدنيا الكتابة بالحروف الابجدية .

وتخالف طائفة اخرى من العلماء ما قاله ابن خلدون ومن شايعه من

* اهل فلسطين هؤلاء من اصل كنعاني وكانوا متحضرين ، الى ان هاجمتهم طوائف متهمجة أتت من جزيرة كريت فخربت ديارهم ومحقت حضارتهم .

المؤرخين حول اصل البربر المغاربة حيث تقول : إن اصل البربر من الجنس ذي الشعر الأسود والعيون السود، واللون الأدهم والجمجمة الطويلة، وانهم من نفس السلالة التي تقطن اسبانيا وغرب فرنسا وإيطاليا ، هذا مع اعتراف اولئك العلماء بوجود عنصر الكنعانيين الوارد من الشرق ، والذي يتميز بلونه الأسمر .

وإلى جانب هذين الجنسين (الأدهم والأسمر) يوجد جنس آخر ذو لون ابيض وشعر اشقر وعيون زرقاء ، وهو فيما يرجح لا يمت بصلة الى الجنسين السابقين ، ويسكن اليوم بلاد الريف بمغربنا الأقصى ، وبلاد جرجرة ببلاد الجزائر الشقيقة . وينسب بعض العلماء هذا الجنس الى الاصل الجرماني ، كما يقولون بأنه اقدم وجوداً في المغرب من العناصر البربرية الاخرى .

وما يزال العلماء إلى يومنا يعثرون على اجناس جديدة اخرى من بين البربر ، او السكان الاصليين ، وهذا يدل على تشعب أصلهم منذ القدم ، الشيء الذي أدى الى تضارب اقوال العلماء في نسبتهم : هل هم من الجنس الكنعاني المحض الوارد من الشرق ؟ ام أنهم من ذاك ومن جنس او اجناس اخرى وردت من اوروبا ومن افريقيا نفسها ؟

والسبب في قلة المعلومات عن اصل البربر الأقدمين يرجع الى ان تاريخ وجودهم في المغرب ظل مجهولاً آلاف السنين ، لأنهم لم يدونوا تاريخهم ، ولم يكشف عن امرهم الا بعد وصول الفينيقيين الى الشمال الافريقي ، في القرن الثاني عشر ق . م تقريباً ، حيث وجدوا به دولاً مستقلة كدولة موريتانيا وتوميديا وتوسكا وملفا . ولكن الشيء الذي تعجب منه العلماء اكثر من غيره هو ان اللغة السائدة بين البربر أجمعين

كنعانية الاصل ، وكذلك التقاليد والعادات ، فلعل الجنس الكنعاني كان أرقى من الاجناس الاخرى فأثر فيها ، او انه كان اكثرها عدداً فطغت لغته وعاداته عليها بحكم الأغلبية وابتلاع الكل للجزء .

وقد حكم المغرب من القبائل البربرية الكبرى في عهد الاسلام : أوْرَبَة ، التي آوت مولاي إدريس وناصرته ، وصنهاجة ، التي هي أصل المرابطين ، ومصمودة التي ينتمي اليها الموحدون ، وزناتة التي منها ينحدر المرينيون .

حياتهم القديمة

حياتهم الدينية :

كان البربر القدامى يعبدون مظاهر الطبيعة ، وأصناماً من الأحجار وغيرها ، كما كانوا يؤمنون بالسحر وأعمال السحَرة . وقدسوا وعبدوا ايضاً بعض الحيوانات ، كالكبش ذي القرون الكبيرة والأفعى والقردة .

حياتهم الاجتماعية :

سكن البربر في بداية عهدهم الكهوف ، ولما ارتقوا قليلاً اتخذوا لهم مساكن من اكواخ بسيطة ، من اغصان الشجر ، أو من القصب ، كما سكنوا بيوتاً من الطين والاحجار . وما زالت هذه مساكن أغلبيتهم في البادية إلى يومنا . ولم يعرفوا ابناء المدن إلا بعد احتكاك الفينيقيين بهم . وكانت قراهم ذات نظام يشبه النظام الجمهوري ، حيث يتوفر لدى كل منها مجلس مهمته النظر في مصالح القرية .

أما لباسهم فقد تطور عندهم وانحصر في جبات وبرانس من الصوف، بينما يضعون في أرجلهم نعالاً . اما رؤوسهم فتظل عارية محلوقة الشعر، وقد يضعون فوقها أكاليل من الريش . وكان كل من الرجل والمرأة يتزين ، ولكن الرجـــال يُميَّزون بأقراط في آذانهم ، بينما النساء يميزن بالخلاخل في أرجلهن وبالوشم في وجوههن.وكان البربر يحترمون الروابط العائلية .

أما ثرواتهم الرئيسية في عهـــدهم الاول فكانت تربيـة الماشية من بقر وغنم ومعز وإبل وحمير ، اما الفلاحة فتأتي عندهم في الترتيب الثاني. ويقـــال بأن البربر او الكنعانيين القادمين من الشرق صحبوا معهم الى المغرب تلك الحيوانات الأليفـــة ، كما حملوا معهم المعلومات البدائية في الفلاحة ، من مصر على الخصوص .

وكان سكان المغرب الاقدمون يعرفون الفول ، وهو أصيل في البلاد لم يجلب من الخارج ، كما كانوا يعرفون القمح والزيتـــون والكروم ، وغذاؤهم الرئيسي الكسكس ، والألباب والنباتات السائغة ، لأنهم كانوا في عهودهم الاولى نباتيين ، لا يأكلون اللحوم .

هل للبربر أدب وفن ؟

الواقع انه لم يكن للبربر أدب بالمعنى الصحيح ، ويعزى السبب في ذلك الى ان اللغـــة البربرية — ان صح ان نطلق عليها لغة — كثيرة اللهجات ، لا تستطيع ان تعبر عن الافكار الراقية بأسلوب ادبي خلاب، وبدقة متناهية، كما هو الشأن في اللغة العربية والفارسية والهندية واليونانية،

فالبربريـــة إذن مجرد لهجات بدائية محددة المعاني ، وتتميز في الغالب بالخشونة .

ورغم ذلك فقد كان للبربر حكايات يروونها عن الخوارق وأخرى عن بطولتهم وشجاعتهم في الحرب ، بشيء لا بأس به من جودة التعبير. كما كان من بينهم من يعرف القراءة والكتابة، وما زالت بعض الحجارات الى يومنا مكتوبة باللغة القديمة ، ومن بينها ما كتب باللغة الحميرية ، مما يؤكد أصالة روابطنا بالعروبة منذ القدم .

وأما الفن فان البربر قد نالوا فيه بعض الحظ ، ويتمثل ذلك في زخرفة الزرابي والملابس ، وتزويق الاواني الفخاريـــة ، وفي وشم النساء ، ونقش الصور الآدمية والحيوانية على الصخور ، ولكنه فن بدائي توحيه الاشكال الهندسيـــة ، وهو على كل حال ينم عن صفاء الطبع وسذاجة الفكرة ، وفطرية الذوق .

نحن أمة عربية

ومهما اشتد الخلاف حول الاصل البربري فان مما لا شك فيـــه ان ارتباطنا بالشرق او بالعروبة أشد وأمتن لأسباب عدة ، منها :

1) حصول هجرات كثيرة من الكنعانيين من بلاد العرب وما جاورها الى المغرب .

2) اللهجة الكنعانية التي يتكلم بها سائر البربر ، حتى يومنا هذا واحتواؤها على مئات الكلمات العربية الأصل ، ثم ان القواعد النحوية البربرية تشبه كثيراً قواعد النحو في العربية .

3) ان البربر يتصفون بنفس الخصال العربية الصميمة، كالكرم وحماية الجار والدفاع عن أفراد القبيلة، الى جانب اتصافهم بالشجاعة مع البساطة في العيش ، وما الى ذلك .

4) ثم ذلك التجاوب الروحي والفكري ، وذلك الانسجام التام ، الذي حصل بين البربر والعرب الفاتحين، ولو بعد مدة طويلة ، فتوثقت بينهما الاخوة القديمة، التي تربطهما ، لدرجة ان كثيراً من القبائل البربرية نسيت لغتها القديمة ، وأصبحت تتكلم العربية ، كما ان كثيراً من القبائل العربية نسيت لغتها واصبحت تتكلم البربرية .

5) ولكن القرآن الكريم كان أكبر عامل على تقوية تلك الأخوة ، وعلى استعرابنا ، حتى اصبحنا اليوم امة عربية او مستعربة على الأقل، دماً ولحماً ، ولغة وديناً وعادات وتقاليد . وانه لمن الحمق ان ينادى اليوم بأننا لسنا عرباً .

نقاط التلخيص

- البربر هم سكان المغرب الأصليون ، ويرجّح بعض العلماء انهم جميعاً من الاصل الكنعاني العربي ، كما يـرجح البعض الآخر ان معظمهم من اصل آخر .
- عَبَدَ البربر القدامى مظاهر الطبيعة وبعض الحيوانات وأصناماً حجرية.
- سكنوا الكهوف ثم الاكواخ ثم بيوتاً من الطين والحجارة، وتطور لباسهم الى جبات وبرانس ، وكانوا يهتمون بتربية الماشية اكثر من الفلاحة في اول حياتهم .
- ليس للبربر ادب بالمعنى الصحيح ، اما الفن فكان لهم فيه بعض الحظ ، ولكنه بدائي يشف عن صفاء وفطرة .
- بالرغم من الاختلاف حول اصل البربر فإنا امة عربية نسباً وتاريخاً وديناً وتقاليد ، والأدلة على ذلك كثيرة .

اسئلة

1 — هناك قولان بارزان يناقض الواحد منهما الآخر حول اصل البربر فما هما ؟ أيهما ترجح؟
2 — بماذا تعلل غلبة اللهجة الكنعانية على البربر ؟
3 — لم لا توجد لدينا المعلومات الكافية عن احوال البربر القدامى ؟ متى بدأنا نعرفهم بكيفية علمية ؟
4 — ما السبب في انعدام حياة الادب لدى البربر ؟ هل الفن هو الآخر كان منعدماً عندهم ؟
5 — أورد ما تستطيع من أدلة تثبت بها اننا امة عربية .

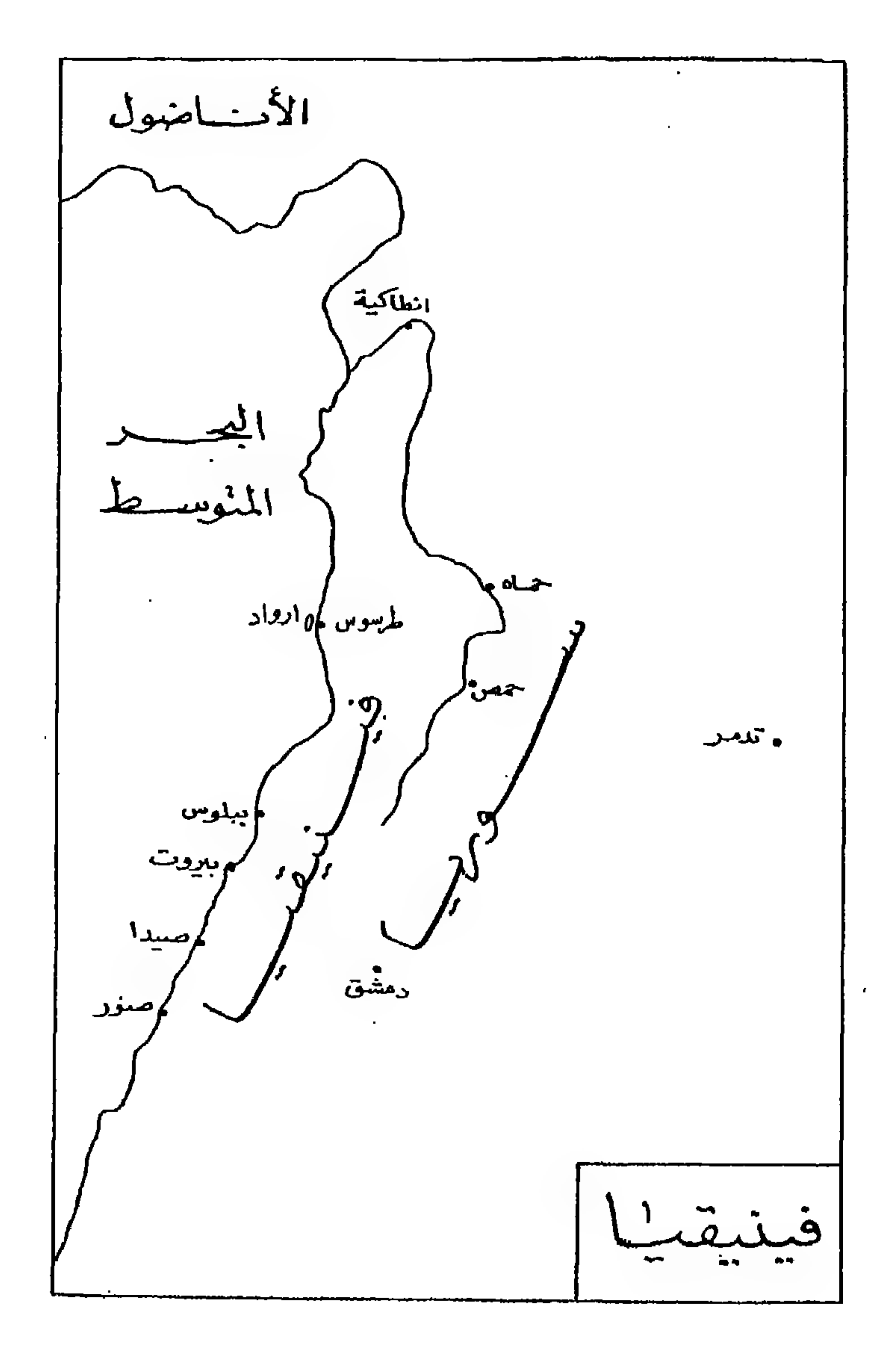
الدرس الثاني :

الفينيقيون
والقرطاجيون والرومان والوندال والبيزنطيون في المغرب

•

الفينيقيون (منذ اكثر من 1000 ق.م)

الفينيقيون من الاصل الكنعاني ، وهم أمة تجارية صناعيـــة امتازت بنشاط عظيم . وكانت بلادهم تعرف بفينيقيا ، وقد برزوا في التاريخ كأمة ذات حضارة عظيمة منذ مئات السنين قبل الميلاد المسيحي،وكانت مدنهم عامرة زاهرة ، وبلغوا شأواً بعيداً جداً في التمـدن والحضارة . وهم أول من استعمل الزجاج، وأول من ركب البحار بسفنهم البحرية . التي صنعوها ، وأول من علموا الدنيا الكتابة بالحروف الهجائية . وكان من دأبهم ان يجوبوا البحار بسفنهم الكثيرة ، ويؤسسوا مراكز تجاريـــة على الشواطىء الهامة ، لأنهم لم يكونوا يفكرون الا في التجارة وجمع الثروة من وراء تجوابهـــم واستقرارهم في الأماكن التي تروقهم من


الأناضول
انطاكية
البحر
المتوسط
حماه
طرسوس
ارواد
حمص
تدمر
ببلوس
بيروت
صيدا
صور
دمشق
فينيقيا

جهات العالم .

وأهم مراكزهم على الشاطىء الافريقي الشمالي،هي : بزيوم بطرابلس الغرب ، وزجيتان وقرطاجنة ، وكلاهما بتونس ، وهيبون بالجزائر ، وروسادير (مليلية) ، ولوكوس (العرائش) ، وتنجيس (طنجة) ، وغيرها ، وكلها في المغرب الأقصى .

وكانت صلتهم بالمغاربة تجارية محضة ، تتمثل في تبادل السلع عن طريق المقايضة . وقد استفاد المغاربة من حضارة الفينيقيين بعض الاستفادة.

القرطاجيون (883 ق.م – 146 ق.م)

في سنة 883 ق.م تأسست مدينة قرطاجة – على الأرجح – على الساحل التونسي ، وكانت في أول عهدها ميناء تجارياً عادياً ، الى ان هاجرت اليها أسرة فينيقية برئاسة الأميرة عليشة (Elessa) سنة 480 ق.م ، فمنذ ذلك الوقت فقط بدأت تظهر عظمة هذه المدينة ، اذ حكمتها تلك الاميرة حكماً ملكياً في بداية الأمر، وظلت محتفظة بتبعيتها لفينيقيا ، ولكن بعد مرور زمان تحولت حكومة قرطاجة الى جمهورية، وانفصلت في الحكم عن الوطن الأم نهائياً . وأخذت تشق طريقها نحو العظمة والازدهار ، حتى بلغت في ذلك ذروة المنتهى . وقد استولت هذه الجمهورية القوية على الشمال الافريقي كلّه ، ومعظم اسبانيا وعدة جزر في البحر الابيض ، وكان لها جيش عتيد ، وأسطول بحري كبير ، استطاعت بواسطته ان تصول وتجول في البحر الابيض وحدها زمناً طويلاً .

وعاشت هذه الأمة الفتية القوية ما يزيد على ستة قرون ونصف قرن،

في بحبوحة العز والسلطان والحضارة والمدنية.وقد حاربت اليونان منافستها في البحر الابيض المتوسط ، وانتصرت عليها فأصبحت بذلك سيدة البحر بدون منازع .

ثم اشتبكت قرطاجـة مع الرومان في عدة حروب مهولة ، دامت أكثر من مائة سنة كانت خلالها تنتصر على الرومان انتصارات حاسمة ، ولكنها في النهـاية انهزمت أمام جحافلهم ، فكان ذلك سبب خرابها ودمارها ، وذهاب عزها وعظمتها،ولقد دخلتها الجيوش الرومانية، فهدمت مدنها وأحرقت كتب العلم والأدب والحكمة بخزائنهـا العامرة ، وقتلت وشردت وعذبت آلاف القرطاجيين،فكان ما حل بهذه الجمهورية المغربية مأساة إنسانية قلما وجد لها مثيل في التاريخ .. وهكذا تحولت زعامة البحر الابيض المتوسط إلى أيدي الرومان .

وكان القرطاجيون كأبناء عمومتهم الفينيقيين أمةً تفضل الكسب والثراء في حياة الهدوء والسلام . وقد استفاد المغاربة من إخوانهم القرطاجيين كثيراً من أساليب الحضارة في شتى الميـادين ، وبالاخص في ميدان الفلاحة والصناعة والتجارة والتعليم . وكانت أهم مدنهم في المغرب هي: Coricon Teichos (الصويرة) ، و Thimiaterion (المهـدية) ، و Luxus (العرائش) ، و Tangis (طنجة) ، وكلها على ساحل المحيط الأطلسي . و Rusaddir (مليلية) على ساحل البحر الأبيض .

الرومان (146 ق . م — 429 م)

عندما تغلب الرومان على دولة قرطاجة وسحقوها سحقاً كباراً استولوا على بلادها وجميع مستعمراتها ، التي كانت تابعة لها ، ومن ضمنهـا

سواحل المغرب الاقصى . فاحتلوا أولاً تونس ، وبعدها الجزائر ، أما سواحل المغرب فإنهم لم يتمكنوا من احتلالها إلا في سنة 42 م ، أي بعد اندحار قرطاجة بمائة وثمانين سنة . وقد اطلقوا على المغرب اسم موريتانيا . ومما تجدر ملاحظته ان الاحتلال الروماني في المغرب لم يتعد (سلا)على مصب نهر (بورقراق) وفي الداخل لم يتجاوز مدينة **Helupulis** (قرب مدينة زرهون) ، أما باقي الوطن فقد ظل مستقلاً يثور منه البربر على الرومان المستعمرين في كل فرصة سانحة ، فينغصون عليهم العيش والاستقرار .

وأهم المدن الرومانية في المغرب : سلاكولونيا (سلا) ، ولوكسوس (العرائش) وتنجيس (طنجة) ، عاصمتهم بالمغرب الأقصى ، وكل هذه المدن تقع على الشاطىء الغربي . ومن مدنهم على الساحل الشمالي : مدينة روسادير (مليلية) ، ومن المدن الداخلية : مدينة هيلوبوليس . وكانت هذه المدن تتصل ببعضها بواسطة طرق حسنة التعبيد ، وكانت هناك قلاع وبروج منصوبة في كل مكان للمحافظة على الأمن .

وقد عامل الرومان المغاربة بمنتهى ما يتصوره العقل من القسوة والوحشية، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم سادة وأهل البلاد عبيداً لهم . وقد ظل المغرب خاضعاً لهم الى سنة 435 م ، إذ في هذه السنة أعلن بونيفاس الحاكم الروماني العصيان على دولته،واستدعى الوندال الذين كانوا يحكمون اسبانيا – للقدوم الى المغرب قصد نصرته ، فلبى الوندال دعوته،ودخلوا المغرب في نحو ثمانين ألف مقاتل ، بقيادة مليكهم جنسريك ، ولكنهم بدل ان يعينوا بونيفاس حاربوه ، كما حاربوا جيوش أعدائه ، وظلت الحروب قائمة بين الرومان والوندال ، الى ان قُضي نهائياً على الرومانيين.

في المغرب . وكثيراً ما كان المغاربة يعينون الوندال على الرومان في تلك الحروب ، ظناً منهم انهم جاءوا لتخيلصهم من الاستعمار الروماني . وقد ظل حكم الرومان في المغرب مدة ستة قرون تقريباً ، وبعد هـذا التاريخ جاء عهد الوندال .

الوندال (429 م — 534 م)

الوندال من السلالة الجرمانية ، وهم قبائل متبربرة متوحشة استعانت بهم الدولة الرومانية على ضبط النظام أيام ضعفها ، إلا أنهم مع مرور الايام أصبحوا السادة المتحكمين في الرومـان ، ثم احتل هؤلاء الوندال فرنسا ثم اسبانيا ، واستوطنوا على الخصوص في جزئها الجنوبي ، الذي سمي باسمهم: بأندلوش (الأندلس) .

وقد علمت انهم دخلوا الى المغرب واحتلوه ، ورغم ان المغاربـة وقفوا في جانبهم ضد الرومان ، فإنهم ما ان صفا لهم الجو في المغرب حتى بدأوا يرتكبون فيه أشنع الفظائع ، فأحرقوا وهدموا المباني والمزارع وبقروا بطون الحوامل ، وألقوا بالأطفال الرضّع على الأرض، وحسكوا رؤوس الشيوخ والشبان ، وهتكوا الاعراض ، لأنهم كما قلنـا كانوا قوماً جهلاء متوحشين ، وهكذا كان عصرهم بالمغرب أسوأ من سابقه ..

وفي المغرب كوّن الوندال لهم دولة ملكية يرأسها قائـدهم العظيم « جنسريك » ، وقد حكمت هذه الدولة رقعة الشمال الافريقي من طرابلس الغرب الى شاطىء المحيط الاطلسي ، وكذلك اسبانيـا ، وأهم الجزر بالبحر الأبيض المتوسط . وكان لها جيش قوي يعد بعشرات الآلاف ،

وأسطول بحري ضخم مهـاب الجانب ، وكانت عاصمتهـا بالمغرب « Tangis » (طنجة) .

وقد هاجم جنسريك روما وتمكن من الاستيلاء عليها ، وأباحهـا لجنوده طيلة خمسة عشر يوماً ، فعاثوا فيها فساداً وخراباً . وقـد ظل هذا الملك الجبار يحكم دولته في حزم ونشاط وقوة مدة عشرين سنة ، ولما توفي سنة 477 م دب الاضطراب في دولته ، وانشقت على نفسها ، فقامت ضدها الشعوب التي كانت ترزح تحت نيرها ، ومن بين هـذه الشعوب المغاربة ، الذين لم يستفيدوا من هؤلاء الوندال شيئاً ذا أهميـة لأنهم كانوا متوحشين .

وانتهزت الدولة الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) هذه الفرصة، فبعثت بقائدها Belisrio (بلزار) ، فاحتل قرطاجنة، واستمر يحارب الونداليين في الشمال الافريقي حتى قضى على دولتهم نهائياً . وبذلك انتهى العهد الوندالي بالمغرب ، بعد ان دام فيه زهاء 151 سنة ، وابتدأ العهد البيزنطي .

البيزنطيون (534 م ـ 640 م)

علمت سابقاً ان الدولة الرومانية قد وهن عظمها ودب فيها الضعف، وظلت كذلك الى ان أدى بهـا الامر في النهاية الى انقسامها قسمـين سنة 390 م :

1 ـ الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعاصمتها روما .

2 ـ الامبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتهـا بيزنطة (القسطنطينية

حالياً) . وعُرفت هذه الدولة عند العرب بالدولة الرومية .

وقد علمتَ ان الدولة الرومانية الشرقية هي التي قضت على الوندال في المغرب ، وقد دام حكمهـا للشمال الافريقي مدة 154 سنة . ولم يتغلغل احتلالها في المغرب كثيراً ، كما كان الشأن في العهد الروماني ، بل اقتصر فقط على طنجة وسبتة ونواحيها . كما ان البيزنطيين عاملوا المغاربة بشيء من العدل والانصاف، ولكن المواطنين لم يتأثروا بحضارتهم تأثُراً يستحق الاعتبار .

● نقاط التلخيص ●

- الفينيقيون أعظم أمة تجارية صناعية ظهرت في التاريـــخ من أصل كنعاني ، وهم أول من صنعوا السفن البحرية وركبوا البحار ، وهم أول من علموا الدنيا الكتابة بالحروف الأبجدية ، ولم يكشف عن وجود البربر في الشمال الافريقي الا بفضلهم .
- القرطاجيون من الأصل الكنعاني أسسوا لهم دولة عظيمة تجاريـــة صناعية أيضاً في الشمال الافريقي ، وظلوا سادة البحر الابيض الى ان تغلب عليهم الرومان،ومحوا آثارهم الحضارية والعلمية والادبية، وقد استفاد البربر منهم كثيراً،كما استفادوا من اخوانهم الفينيقيين من قبل .
- قضى الرومان على قرطاجة فأصبحت لهم السيادة على البحر الابيض، وقد استولوا على الشمال الافريقي ، ولكنهم لم يحتلوا من المغرب الا أجزاء ، نظراً لمقاومة السكان لهم .
- قدم الوندال الى المغرب من اسبانيا،وأسسوا لهم فيه دولة وندالية، وقد عاثوا في البلاد الخراب والدمار وعاملوا الاهالي بمنتهى الوحشية، ولذلك لم يستفيدوا منهم شيئاً مذكوراً .
- انقسمت الدولة الرومانية ايام ضعفها الى دولة رومانية غربية ودولة رومانية شرقية ، وقد حاربت هذه الاخيرة وندال المغرب الى ان قضت عليهم بأقسى ما يُتصور من القسوة ، بينما عاملت السكان المغاربة بشيء من العدل والانصاف .

اسئلة

1 — ما اهم مميزات الفينيقيين ؟ كيف كانت علاقتهم بالمغرب ؟

2 — كيف ظهرت قرطاجة كدولة عظيمة في التاريخ ؟ ما صلتهم بالفينيقيين اولا، وبالبربر ثانياً من النواحي التي تعرفها ؟

3 — علل اسباب ما يأتي : احتفاظ البربر بمقوماتهم الموروثة في العهد الروماني : آ— عدم تأثرهم بالحضارة الرومانية التأثر المنشود. ب— أكتفاء الرومان باحتلال جزء من الوطن. ج— استمرار مقاومة الاهالي لهم .

4 — اشرح كيف تمكن الوندال من تأسيس دولتهم في المغرب .

5 — ما الفرق بين حكمهم وحكم الرومان والبيزنطيين في المغرب ؟

الدرس الثالث :

آثار الحضارات
الفينيقية والقرطاجية والرومانية والبيزنطية في المغرب

•

أثر الحضارة الفينيقية والقرطاجية

علمت من قبل أن الفينيقيين أمة بلغت من الرقي والحضارة حداً بعيداً ، وان اهتمامهم الأكبر كان موجهاً نحو التجارة والصناعة، وجمع الثروة ، وانهم أنشأوا من اجل ذلك اسطولاً بحرياً قوياً كان يجوب البحر الابيض في حرية تامة، وانهم أنشأوا على سواحله مراكز متعددة، وقد عرفت ما كان يوجد منها على الشواطىء المغربية . وكانت تلك المراكز والمدن عامرة مزدهرة ، تتمتع بقسط وافر من الحضارة والنشاط في جميع الميادين ، وبالأخص في الميدان التجاري ، غير ان ما كان منها في المغرب اندثر ولم يبق له أثر ، وأُنشئت مكانها مدن جديدة .

وقد تأثر البربر الى حدٍ ما بحضارة الفينيقيين ، وقلدوهم في المسكن

والمليس والمأكل ، خصوصاً سكان المـــدن . وكان العامل الأكبر في استفادة البربر من الفينيقيين هو التجارة،التي كانت تتم فيما بين الفريقين عن طريق المقايضة ، لأن استعمال النقد لم يكن معروفاً آنذاك عند الفينيقيين . فقد كان التجار الفينيقيون يقدّمون الى البربر المغاربة الأقمشة المتنوعة ، والأواني النحاسية والزجاجية والطينية ، والأسلحة والخمور ، بينما كان البربر يدفعون لهم مقابل ذلك : الجلود والعاج والـــذهب والصوف ، وأحياناً العبيد أيضاً .

ومن الأشياء التي تعلمها البربر من الفينيقيين غراسة الأشجار وبعض الصناعات وإتقان تربية المواشي،ثم إن الفينيقيين هم الذين حملوا على ظهر سفنهم الى المغرب جموعاً عظيمـــة من الكنعانيين ، الذين كانوا على قدر كبير من الحضارة والغنى .

ولما ظهرت قرطاجة الفينيقية الأصل كدولة عظيمة في البحر الأبيض، سارت هي الاخرى مع المغاربة على منوال اجدادهـــا من حيث المعاملة الحسنة ، والتبادل التجاري عن طريق المقايضة . وقد بسط القرطاجيون نفوذهم في المغرب ، وبالأخص على سواحله ، لأنهم كانوا أيضاً أمة تجارية لم تـَعْنـِهـِم السياسة إلاّ بقدر ما يحتاجون اليها في معاملتهم التجارية وحياتهم الاجتماعيـــة . ولقد تصاهروا مع السكان البربر ، ولم يكونوا يتدخلون في شؤونهم ، وظل الصفاء قائمـــاً بين الجانبين ، لم تكدره حروب أهلية ذات أهمية . وكان هذا من الأسباب التي حملت البربر على التأثر بحضارتهم في شتى الميادين : في اللغة والدين والثقافـــة والفن ، والفلاحة ، كما تعلموا منهم كيفية استخراج المعادن من باطن الأرض، وعصر الزيتون والخمر .

ولقد عبد المغاربة الكبش القرطاجي « عمون » ، وتعلموا لغتهم البونيكية* وكتابتها ، كما أخذوا عنهم هندسة البناء ومختلف الصناعات والفنون . وفي العصر القرطاجي كانت مدن المغرب الآنفة الذكر ، أكثر عمراناً وحضارة مما كانت عليه سابقاً . وقد اعتمد القرطاجيون على المغاربة اعتماداً كبيراً في حروبهم ضد الرومان ، حيث كانت معظم جيوشهم تتألف منهم . وكان هؤلاء الجنود من أسباب انتصاراتهم في كثير من المعارك ضد أعدائهم ، ولكن خاتمة تلك الحروب مع الرومان انتهت باندحارهم وفناء دولتهم كما علمت .

وقد قام الرحالة القرطاجي هانون (**Hannon**) برحلة استكشافية هامة حول السواحل المغربية ماراً بأعمدة هرقل**،وذلك سنة 450ق.م، وفي تلك الرحلة اتصل بكثير من أصناف البربر وغيرهم ، وعقد معهم صلات تجارية وودية . وهذا يؤكد ايضاً مبلغ اهتمام القرطاجيين بالاتصال بالسكان . ولا عجب فيما ساد من الصفاء والاخوّة والانسجام بين البربر من جهة ، وبين الفينيقيين والقرطاجيين من جهة اخرى ، لأن قسماً مهماً من هؤلاء — ان لم يكن جلهم — يتحدون معهم في أصل واحد هو الاصل الكنعاني العربي .

---

* اللغة البونيكية هي مزيج من الفينيقية والبربرية ، وتكونت في الشمال الإفريقي ، وكانت لغة العلم والحضارة لدى القرطاجيين والمغاربة .

** هرقل، هو إله اقام له الفينيقيون معبداً عظيماً في اسبانيا قرب مدينة قادش، وربما اقاموا له ايضاً عدداً من الاصنام فوق الجبال المحيطة ببوغاز جبل طارق ، ولذا اطلقت على هذه الجبال اعمدة هرقل .

أثر الحضارة الرومانية والبيزنطية

ما أن تغلب الرومان على قرطاجة سنة 146 ق.م حتى اسرعوا في الاستيلاء على جميع مستعمراتها ، ومن بينها سواحل الشمال الإفريقي ، ولكنهم في المغرب لم يتمكنوا من الاستيلاء الا على أجزاء من سواحله ومن داخله ، نظراً للمقاومة المستمرة ضدهم من جانب الأهالي . فأقصى نقطة وصلوا اليها على الساحل الغربي مدينة سلاكولونيا (سلا) ، وابعد نقطة في الداخل هيمنوا عليها مدينة هليوبوليس . وكان المغرب في أول عهدهم مقاطعة مهملة لم يدخلوه في مجلسهم النيابي ، الذي يحدد اختصاصات الحاكم ، ويضمن بعض الحقوق للمواطنين ضمنياً. ولكن في سنة 42 ق.م ايام كلود قيصر ، قُسم الشمال الافريقي تقسيماً جديداً ، وأصبح المغرب الاقصى يعرف عندهم بموريتانيا الغربية ، أو موريتانيا التنجيسية ، نسبة الى تنجيس (طنجة) . ومنذ ذلك الوقت فقط ، وجه الرومان اليه كبير اهتمامهم .

وقد عرفت ان الرومان أسسوا بالمغرب عدة مدن ، وكانت تلك المدن عامرة جميلة ، بها القصور الفخمة ، والأسواق الرائجة والحمامات النظيفة ، والمسارح الواسعة ، والدكاكين المليئة بمختلف البضائع ، والمصالح الحكومية والمحاكم وبعض المدارس العلمية . وقد جعل الرومان لغتهم اللاتينية هي اللغة الرسمية في البلاد ، كما حثوا الاهالي على سكنى المدن بدل سكنى البادية ، الشيء الذي دفع بكثير من البربر الى ترك باديتهم ، والعيش في المدن المتحضرة ، وأدى ذلك الى تزايد السكان في الحواضر وتزايد البناء بها،فكثرت المدن ، وكانت تتصل ببعضها بواسطة شبكة من الطرق المعبدة والقناطر المقامة على الأنهر .

ورغم مـا كان الرومان يتمتعون به من حضارة ومدنية ، ورغم كثرة مدنهم بالمغرب . وحثهم الاهـالي على سكناها ، ورغم جعلهم لغتهم اللاتينية رسميـة في البلاد – رغم كل ذلك فإن البربرية الأصيلة والبونيكية (لغة قرطاجنة) وتقاليد البربر الموروثة عن أجدادهم الأولين ، وعن اخوانهم القرطاجنيين ، ظلت هي السائدة بين اغلب البربر طيلة الخمسة قرون ، التي استمر الرومان خلالها مهيمنين على المغرب . ذلك لأنهم كانوا يعاملون المغاربة معاملة سيئة جداً ، ويفرضون عليهم أفدح الضرائب ، ويأخذون خيراتهم بالقوة ، ويجنـدون شبانهم قسراً ، كما كانوا يعتبرون انفسهم سادة ، والبربر عبيداً لهم . وهكذا كان الرومان يمثلون في المغرب النموذج المثالي للاستعمار الممقوت . وهكـذا رفض المغاربة بإباء وشمم ، ان يرضخوا للذل والصغـار ، فاستمروا يحاربون السادة الرومانيين وينغصون عليهم الراحة والتنعم بلذيذ الحياة طيلة مكوثهم بالمغرب . وكان كلما تقدم الرومان في ناحية ، ارتحلت القبائل البربرية عنها إلى ناحية اخرى .

وقد اعتمد الرومان على جنود المغرب ، وحاربوا بهم أوروبا عـلى نهري الرين والدانوب ، وقد خلد ترجان ذكراهم في تمثاله بعد حرب داسي . وأشاد ببطولتهم وشجاعتهم .

وقد كان الرومان يأخذون من المغرب القمح والزيت ومواد غذائية اخرى ، والجلود والصوف والمواشي والخيول والعقارات الطبية . وكان معـبر تلك التجارة هو اسبانيا . وهنا نعيد الى الأذهان ان المغاربة لم يتأثروا بحضارة الرومان التأثير الذي كان منتظراً ، لأسباب عدة منها : معاملة الرومان القاسية للأهالي ، ثم غرابة الجنس الروماني ولغتهم وتقاليدهم

بالنسبة لهم ،وأخيراً طبيعة المغاربة التي تأبى الذل والخنوع . هذا باستثناء البربر سكان المدن ، لأن أغنياءهم على الخصوص تعلموا اللغة اللاتينية وقلدوا الأسياد الرومان في مسكنهم وملبسهم ومأكلهم ومشربهم ، ولكن بالرغم من ذلك فإن هذا المظهر الحضاري الروماني سرعان ما زال ، ولم يبق منه إلا بعض الأطلال هنا وهناك في البلاد ، فكأنه كان مجرد طلاء مغشوش او سراب خادع .

ثم جاء البيزنطيون الى المغرب وقضوا على الوندال وأذاقوهم مر العذاب، وجرّعوهم كأس المنايا ، بينما عاملوا البربر وبقايا الرومان معاملة حسنة . الا ان نفوذ هؤلاء في المغرب لم يتعد نواحي طنجة وسبتة . ويرجع ذلك الى ان البيزنطيين لم يكن يهمهم في استعمارهم الا الاستيلاء على الموانيء التجارية ، او لأن المغاربة كانوا ينغصون عليهم الحياة بسبب الهجمات العنيفة التي كانوا يشنونها عليهم في كل وقت وحين . وربما يعزى ذلك ايضاً الى ان الاهالي البربر كانوا في عهدهم متحضرين ، يدل على ذلك كثرة المدن المغربية التي كانت موجودة آنذاك . ولعل هذا ايضاً من الاسباب التي لم تجعل المغاربة يتأثرون بحضارتهم كثيراً.وفي عهدهم هبت ريح الفتنة على البلاد بسبب اختلاف المذاهب المسيحية ، فأطاحت بأخضرها ويابسها واحتدم القتال بين طوائف الدين ، وشاع الخراب والدمار في المدن الآهلة .

نقاط التلخيص

- أسس الفينيقيون في المغرب عدة مدن ، وعاملوا سكانه البربر معاملة حسنة ، وتبادلوا معهم السلع عن طريق المقايضة ، ونتج عن ذلك تأثر البربر بحضارتهم .
- لما قامت دولة قرطاجة في الشمال الافريقي استولت على اجزاء مهمة من المغرب ، وعاملت سكانه معاملة كريمة كأجدادهم الفينيقيين ، فتأثر بهم البربر أبلغ تأثر في كافة النواحي .
- تغلب الرومان على القرطاجيين واستولوا على مستعمراتهم ومن بينها المغرب الأقصى ، الذي بنوا فيه عدة مدن ، وأحكموا ادارتهم للبلاد ، ولكن البربر لم يتأثروا بحضارتهم التأثر المطلوب .
- استعان الرومان بالجيوش المغربية في حروبهم بأوروبا ، وقد خلد ذكراهم ترجان في حروب داسي على نهري الرين والدانوب لما أبدوه من شجاعة وبطولة .
- قضى البيزنطيون على الوندال بالمغرب وحلوا محلهم ،ورغم معاملتهم الحسنة للسكان فانهم لم يتأثروا بحضارتهم الا طفيفاً .

اسئلة

1 — اذكر ما تعرفه عن الفينيقيين وتأثر البربر بحضارتهم .
2 — كيف تأسست دولة قرطاجة ، واين ؟
3 — ماذا استفاد البربر من حضارة القرطاجيين ؟
4 — ما الفرق بين معاملة كل من: الفينيقيين والقرطاجيين والرومانيين والبيزنطيين للمغاربة؟
5 — علل لم لم يستفد البربر كثيراً من الحضارتين : الرومانية والبيزنطية ؟

لدرس الرابع :

الفتح الاسلامي في المغرب

الفاتحون الاولون

(62 — 172هـ)

●

تمهيد :

في عهد الخليفة عمر بن الخطاب تقدمت جيوش الإسلام الى برقة وطرابلس ثم فزان بأرض ليبيا ، ثم رجعوا عنها بعد فرض جزية على أهلها . وفي ايام الخليفة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبي سرح . وفي سنة 26 ه أمر الخليفة واليه على مصر بأن يتقدم نحو الشمال الإفريقي ، الذي كان خاضعاً للروم البيزنطيين، يحكمهم بَطْريقهم « جرجير » — وكانت مدينة اسبيطلة مقر حكمه بتونس ، فدخل عبدالله بجيوشه المؤمنة في أرض افريقية (تونس الحالية) . وصحب معه في هذه الحملة بطلاً فذاً هو عقبة بن نافع الفهري . وإلى هذا البطل يرجع كثير من الفضل في

انتصار المسلمين عـــلى الأعداء الروم ، وقتل بطريقهم « جرجير » في آخر معركة . وأمام ذلك لم يسع الروم إلا أن يطلبوا الصلح ، فقبلـه المسلمون عـــلى ان يدفع الروم لهم تعويضاً مالياً عظيماً يقدر بآلاف الدنانير .

ويمكننا أن نعتبر فتح مصر في عهد عُمر ، وكذا الانتصار الحاسم الذي حققه المسلمون على الروم في افريقية ، بداية الفتح لشمال افريقية ، ذلك الفتح الذي تصدى له أربعة قواد مسلمين عظام ، هم : عقبة بن نافع الفهري — زهير بن قيس البلوي — حسان بن النعـمان الغساني — موسى بن نصير .

عقبة بن نافع الفهري (المتوفى سنة 63 هـ)

ابتدأ ظهور هذا البطل العظيم كقائد حربي محنك ، منذ شارك في حروب الروم بإفريقية ، التي أسلفنا ذكرها . ولما تولى معاوية بن أبي سفيان أمر الخلافة ، كلفه بفتح الشمال الإفريقي سنة 50 هـ ، على أن يتولى إدارة جميع البقاع التي يحقق الاستيلاء عليها . وجعل ولايته على البلاد المغربية (الشمال الإفريقي) منفصلة تماماً عن تبعيتها لوالي مصر ، كل ذلك تقديراً لكفاءته ومهارته . وتقدم هـــذا البطل غازياً البلاد ، فاستولى عـــلى طرابلس وعلى تونس ، بعد أن تغلب على مقاومتها ، وأسس بتونس مدينة القيروان وجامعها الذي يحمل اسمه ولا يزال قائماً الى يومنا ، وجعل المدينة عاصمة حكمه ، فكانت أول عاصمة إسلاميـة في المغرب العربي (الشمال الافريقي) .

وبينما عقبـــة عاكف على تنظيم الشؤون بالبلاد التي استخلصها من

أيدي الروم والبربر ، إذا بالخليفـــة معاوية يأمر بعزله ، بسبب وشاية بعض الخبثاء الذين لا يخلو منهم عصر ، غير ان هذا البطل لم يستسلم للتهمة التي ألصقت به ، فذهب الى دمشق وقابل الخليفـــة وأقنعـــه ببراءته مما نسب إليه ، وأنه الوحيد الذي يعول عليه في القيـــام أحسن قيام بمهمة الفتح ، نظراً لأنه يعرف البلاد المغربية وطبيعة أهلها . غير ان المنية عاجلت الخليفة بعد مدة قليلة قبل تنفيذ وعده ، فلما تولى ابنه يزيد،الخلافة نفذ ما وعد به والده . وهكذا رجع عقبة إلى إمارته السابقة سنة 62 ﻫ ، بعد أن أمده الخليفة بكثير من الرجال والعتاد والمؤن .

ولما حل البطل عقبة بالقيروان نظم جيوشه تنظيماً يضمن له النجاح في مهمته ، وجعل زهير بن قيس البلوي نائباً عنه على القيروان مـــدة غيابه . ثم مضى في بلاد المغرب يحارب البربر فتمكن من الاستيلاء على ما بقي من المغرب الأدنى ، ثم المغربين الأوسط والأقصى . وتقدم إلى جبال الأطلس معقل البربر فاستولى عليها،ثم توجه إلى الصحراء فأخضعها. وبعد ذلك اتجه نحو الشاطىء الأطلسي ، حيث مدينـــة آسفي ، وهناك أدخل قوائم فرسه في البحر ورفع كفيه إلى السماء ، فقلده جميع رجاله المجاهدين ، وقال ما معناه : اللهم إننا مدافعون عن دين الإسلام ، لا نطلب مالاً أو جاهاً من وراء ذلك ، ولولا هذا البحـــر العائق لمضينا نقاتل في سبيلك ، حتى لا يبقى أحد يعبد سواك .

ثم سار عقبة بجيوشه الباسلة إلى مدينة طنجة ، ومنهـــا أمرهم إلى القيروان ، على أن يلتحق بهم مع ثلة من فرسانه ، فنفذ المسلمون أمره وعادوا . أما هو فتبعهم مع قليل من رجاله يقدر عددهم بثلاثمائة فارس تقريباً . ولكن ما أن وصل المغـــرب الأوسط ورآه البربر في قلة من

جنوده حتى هاجمته آلاف منهم بقيادة أميرهم العظيم كسية أو كسيلة، فدافع عقبة هو وأصحابه عن أنفسهم دفاع الأبطال الميامين ، وانتهت المعركة باستشهاد ذلك القائد العربي العظيم وجميع من كان في صحبته من المجاهدين الأبرار . وقد دفن — رضي الله عنه — في المكان الذي سقط فيه شهيداً ،بالقرب من مدينة بسكرة ، وقبره اليوم مزار مقدس لكافة المغاربة ، يستوحون منه معاني العظمة والبطولة والشرف .

وعقب ذلك تقدم الزعيم البربري كسيلة إلى مدينة القيروان فاستولى عليها ، بعد معارك دامية نشبت بينه وبين المسلمين ، الذين اضطروا الى التقهقر نحو برقة ، أمام القوات البربرية الكثيرة العدد . وظل كسيلة يتتبع فلول العرب في كل مكان فيقضي عليهم ، وأصبح منذ ذلك الوقت السيد المطاع والأمير المهاب في طول البلاد المغربية وعرضها .

وقد تعجب لماذا لم يترك عقبة بن نافع قوة كافية من الجيش الإسلامي في المغرب ، ليضمن بذلك استتباب الأمن ؟ ثم لماذا رجع مع قليل من رجاله ، بينما كان الواجب ألا يتنقل في أطراف البلاد إلا بمعية كثير من جنده،خصوصاً وأن البلاد كانت حديثة العهد بالاحتلال العربي ؟.. ويعلل البعض السبب في ذلك كما يأتي :

1 — ربما اعتقد انه قضى على شوكة البربر ، ولن يستطيعوا القيام ضده بعد تغلبه عليهم ، واستيلائه على بلادهم ، قياساً على ما كان يفعله العرب مع كثير من الأقطار التي فتحوها في المشرق .

2 — أو ربما اعتقد ان البربر الذين تغلب عليهم بحد السيف قد فهموا الغاية السامية ، التي جاء المسلمون من أجلها إلى بلادهم ، وهي

نشر دعوة الله الواحد الأحد ، ونبذ عبادة الشرك والوثنية .

زهير بن قيس البلوي

بعد مقتل عقبة بن نافع — رضي الله عنه — هدأت حركة الفتح الإسلامي في المغرب،مدة من الزمان ، إلى ان بويع عبد الملك بن مروان بالخلافة ، فعين زهير بن قيس البلوي أميراً على الأقاليم المفتوحة في المغرب،وأمره بمتابعة الفتح لاستعادته كله إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى . وهكذا تقدم زهير بجيوشه الجرارة المؤمنة في البلاد غازياً سنة 69 هـ ، فاشتبك مع البربر والروم في حروب يشيب لها الولدان ، أسفرت نهايتها عن سقوط مدينة القيروان في أيدي العرب،وموت الأمير كسيلة البربري في ساحة القتال ميتة أبطال الوطنية .

وهكذا استولى زهير على المغربين الأدنى والأوسط . وبينما هو عائد مع رجاله من افريقية،في طريقه إلى المشرق إذا بجموع الروم تهاجمه ، فاشتبك معهم في الحرب وتغلب عليهم . ثم واصل سيره . وما ان اقترب من مدينة برقة حتى علم بأن الروم أغاروا عليها ، وانهم نهبوها نهباً ، وقتلوا وسبوا ، وأخذوا كثيراً من المسلمين أسرى . فما كان من زهير إلا أن أسرع إلى ساحل المدينة ، حيث جيوش العدو المغيرة لينقذ المسلمين ولكن ما ان رأى الروم في قوة عظيمة لا قبل له بالوقوف في وجهها حتى همّ بالتراجع . غير انه لم يطق صبراً عندما سمع صياح المسلمين واستغاثتهم به ، في الوقت الذي كان الروم يدفعونهم دفعاً إلى مراكبهم ، ليستخدموهم كعبيد في ديارهم .

وما ان برز زهير ورجاله أمام الروم حتى نزلوا من مراكبهم وحملوا عليهم كالجراد ، فاشتعلت نار الحرب بين الطرفين . وقد استشهد فيها معظم جيش العرب ، وفي مقدمتهم قائدهم البطل زهير بن قيس . وما أن سمع الخليفة عبد الملك بما حل بالمسلمين عموماً،وبالقائد زهير خصوصاً حتى حزن حزناً عظيماً ، وصمم على الأخذ بالثأر . وهكذا كانت نهاية زهير كنهاية عقبة – رضي الله عنهما .

حسان بن النعمان

بعد موت زهير عين عبد الملك قائداً عظيماً آخر عوضاً عن المتوفى، وأمره بالعمل على استرجاع البلاد المغربية إلى حوزة المسلمين . فأعد هذا القائد العدة ، وذهب في طريقه يحارب ، فاحتل مدينة قرطاجة،وكانت عاصمة الروم بالشمال الإفريقي كله،ولم يسبق للعرب من قبل ان فتحوها.

أما البربر فإنهم بعد موت أميرهم كسيلة تولت قيادتهم امرأة قوية الشخصية تسمى « داهية » وأطلق عليها العرب « الكاهنة » ، لأنها كانت تدعي علم الغيب ، وتشتغل بالسحر ، وربما كانت متعلمة ايضاً . وكان مقرها بجبال « أوراس » ، بالمغرب الأوسط ، وآمن بها جميع البربر ، ودانوا لها بالطاعة العمياء ، فأصبحت عليهم ملكة تأمر فتُطاع . وهكذا أصبح لزاماً على القائد العربي حسان – إذا أراد تحقيق غايته – أن يحارب هذه المرأة الجبارة ، رغم ما تملكه من الجحافل البربرية ، التي لا حصر لها ، والمؤيدة بفلول الروم : الذين انضووا تحت لوائها .

وسرعان مـا توجه حسان لمحاربة الكاهنة ، فاشتبك معها في حرب

ضروس ، انهزم فيها القائد العربي أول الأمر . فلما أمده الخليفة عبد الملك بما يحتاجه من الرجال هاجمها ، فتغلب على البربر ، وقتل ملكتهم « داهية » ، التي سقطت في ساحة الوغى ، كبطلة عظيمة ، دافعت عن الوطن دفاع الأمجاد . وليتها اعتنقت الإسلام ، إذن لكانت قد جمعت بين البطولة في الدين ، والبطولة في الوطنية .

ومن غريب ما قامت به هذه الملكة البربرية . الغيورة على حرمة الوطن ، أنها — بعد موت كسيلة وتوليتها على البربر — أمرت بهدم جميع المدن والحصون ، وأتلفت ما حولها من بساتين وحقول ، وكل ما يستفاد منه من مظاهر الحضارة المغربية ، اعتقاداً منها أن العرب إنما يحاربون من أجل الثروة . والعيش في نعيم مستديم ، وأنهم لا محالة عائدون الى صحرائهم . ما لم يجدوا في المغرب بغيتهم ، وبذلك ينجو الوطن من سيطرتهم . وهكذا اتبعت هذه المرأة الداهية ، سياسة الأرض المحروقة ، وفضلت هي ورجالها البربر سكنى الجبال والكهوف والأكواخ ، على سكنى الحواضر ، وان يعيشوا عيشة التقشف في ظل الحرية ، على نعيم الترف والمدينة .

وبعد أن قضى حسان على الزعيمة البربرية ، دان له معظم البربر بالطاعة ، فكوّن منهم القائد العربي أول حكومة إسلامية بالشمال الإفريقي . ويقال بأن حسان استصحب معه في عودته الى المشرق كثيراً من التحف الثمينة ، التي هي من مظاهر الحضارة المغربية القديمة ، وقدمها هدية الى الخليفة عبد الملك . غير أن أخا الخليفة عبد العزيز بن مروان ، عزل حساناً من منصبه ، على الرغم من أنه كان مجرد أمير على مصر ، مثل حسان الذي كان أميراً على البلاد المغربية .

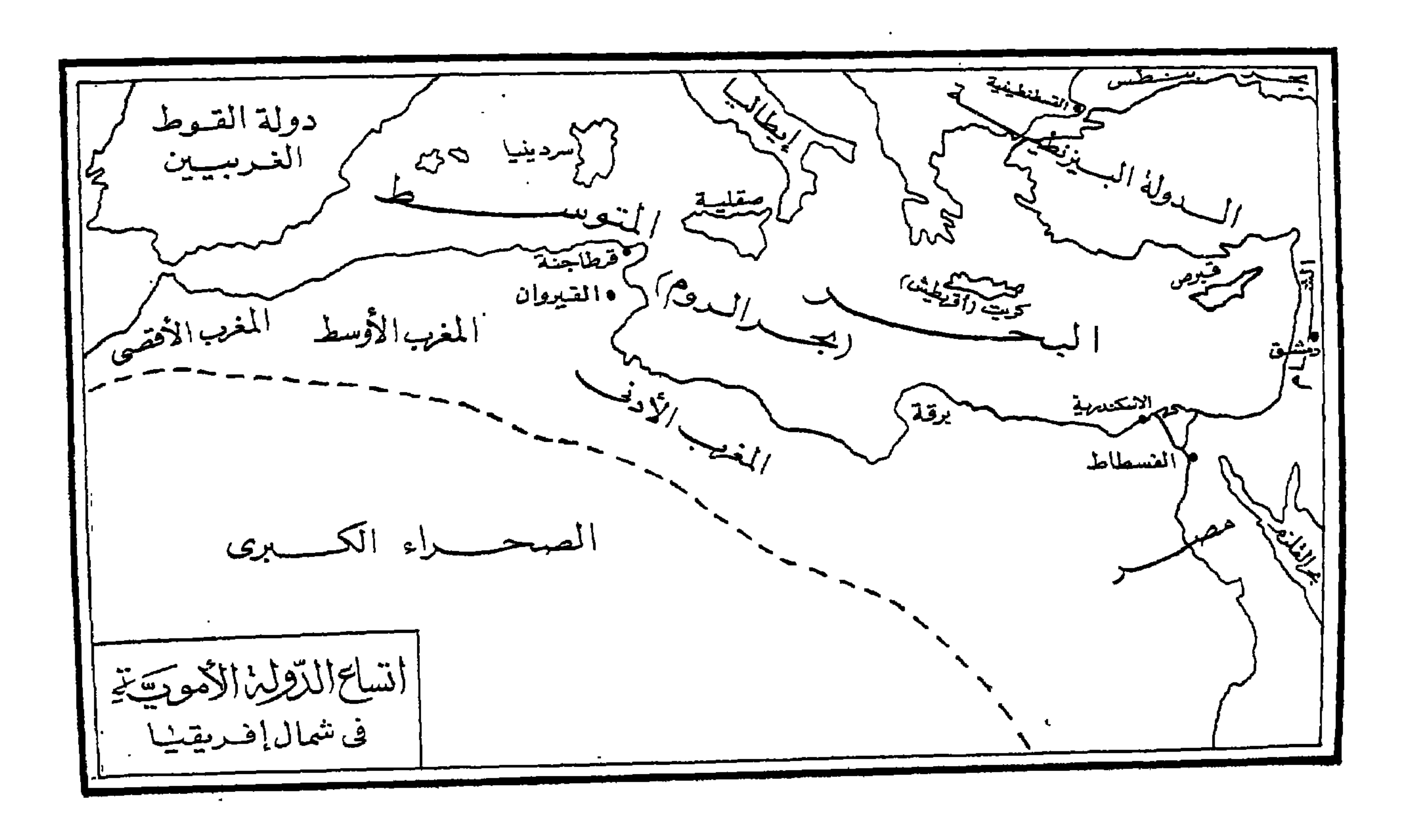
ويلاحظ أن بداية اعتناق البربر الاسلام — بكيفية صحيحة واسعة عن ذي قبل — وكذا استعرابهم — بطريقة أكثر جدوى — حصل في عهد القائد الحازم حسان ، لأنه اهتم بتعريف الناس مسائلَ دينهم ، وألزامهم بتعلّم العربية ، التي جعلها رسمية في كافة البلاد المغربية .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة بعث بعشرة من الفقهاء لتعليم البربر شؤون الدين . ولكن رغم أن عدة آلاف منهم اعتنقوا الاسلام، كما تعلم كثير منهم العربية ، فإن الأغلبية الساحقة البربرية ، ظلت على ما هي عليه من جهل بأمور الدين ، ولا تتكلم سوى لهجتها القومية . وبعبارة أخرى أن الدين الإسلامي واللغة العربية ظلا كما كانا عليه في عهد حسان ، أو تقدما بقدر طفيف لا يستحق الاهتمام .

موسى بن نصير

خلف هذا البطلُ الجديد القائد المعزول حسان في الولاية على إفريقية، والاستمرار في الحرب ضد الذين خرجوا عن طاعة المسلمين ، بعد مقتل عقبة وزهير — رضي الله عنهما — فقضى في البلاد يقضي على ما يعترض سبيله من مقاومات ، وبالأخص في المغرب الأقصى ، حيث تكتلت قوات البربر هناك بعد اندحارها أمام القائد حسان في المغربين الأدنى فالأوسط . ولما استولى على مدينة طنجة اتخذها عاصمته بالمغرب . وبعد أن أتم إخضاع كافة البربر ، عمل على تحويل ما بالبلاد من كنائس الشّرك ، إلى مساجد لعبادة الله وحده ، كما بنى مسجداً بأغمات هيلانة.

ومما يدل على حنكة هذا القائد العربي وبُعد نظره انه سرعان ما



اتساع الدولة الأموية في شمال إفريقيا

أدرك أن ضمان السيطرة على المغاربة (البربر) بالقوة والسيف لا يمكن أن تدوم،لما جبلوا عليه من شجاعة وحب للحرية وإباء للضيم . خصوصاً وقد رأى إنهم برهنوا على ذلك عملياً فيما أبدوه من شدة في مقاومـــة الفاتحين العرب،وفي وقوفهم ضدهم وقوف الطود الشامخ عشرات السنين . الأمر الذي لم يسبق له نظير فيما فتح من بلاد المشرق . بل رأى أنهم لجأوا إلى سياسة الأرض المحروقة في عهد ملكتهم داهية ، حيث هدموا المدن وقطعوا الأشجار وأبادوا كل مظهر من مظاهر الحضارة ، أملاً في ان يكون ذلك حاملاً للعرب على الرجوع إلى بلادهم . إنهم فعلوا كل ذلك وقاوموا العرب تلك المقاومة العنيفة،لأنهم كانوا يجهلون خلال تلك المدة الغاية السامية . التي جاء العرب من أجلها إلى ديارهم ، حتى قدم موسى بن نصير فأفهمهم تلك الغاية بطريقة نظرية وعمليـــة في آن واحد . فإلى جانب أنه أجبرهم على تعليم أبنائهم القرآن الكريم واللغة العربية ، كما عمل على تفقيههم في أمور الدين — إلى جانب ذلك سلك سياسة عملية تتلخص في أنه كوّن من البربر جيشاً ، وجعل عليه قادة برابرة مسلمين ، من بينهم طارق بن زياد .

وما أن أتم موسى تنظيمهم حتى فتـــح أمامهم مجالاً واسعاً بغزو اسبانيا ، حيث أتاح لهم الفرصة لإظهار شجاعتهم وإشباع نخوتهـــم في ميدان الحرب ، لا إرضاءً للعصبيـــة الجاهلية ، ولا دفاعاً عن الشرك والوثنية ، بل ابتغاء مرضاة الله ، وتأييداً للمثُل العليا، التي جاء الإسلام بها للبشر كافة .

- كان عقبة بن نافع الفهري أول فاتح للمغرب سنة 50 هـ . وبينما هو راجع في عدد قليل من رجاله هاجمه البربر في المغرب الأوسط . فدافع هو وأصحابه عن أنفسهم دفاع الأبطال، ولكنهم سقطوا جميعاً في ساحة الشرف سنة 63 هـ .

- كلف زهير بن قيس البلوي بمتابعة فتح المغرب بعد عقبة، فاستعاد هذا مدينة القيروان ، وقتل زعيم البربر كسيلة ، ولكنه قُتل في معركة نشبت بينه وبين الروم أثناء عودته إلى المشرق .

- بعد زهير عُين حسان بن النعمان ، فتمكن هذا من احتلال قرطاجنة عاصمة الروم في الشمال الإفريقي ، كما قتل أميرة البربر داهية . ومن حسنات هذا القائد أنه سعى إلى تعليم البربر أمور دينهم وحثهم على تعلم العربية .

- ولما عزل حسان من منصبه عين مكانه موسى بن نصير فاستأنف هذا الحرب ضد البربر الذين خرجوا عن طاعة المسلمين، واستولى على طنجة واتخذها عاصمة للمغرب . وفي سنة 92 هـ أمر قائده المغربي طارق بن زياد بفتح الأندلس ففتحها .

- تدل سياسة موسى بن نصير مع البربر على أنه فهم نفسيتهم كرجال حرب وقتال ، ولهذا فتح أمامهم مجال الأندلس لينشغلوا بفتحها من جهة، ولكي تدخل في حوزة المسلمين مملكة جديدة من جهة أخرى .

اسئلة

1 – اذكر ادوار الفتح الاسلامي نحو الغرب قبل عقبة .

2 – كيف تمكن عقبة من الاستيلاء على الشمال الافريقي كله ؟ بم تعلل ارتحال جيوشه عن المغرب ، ثم موته مع قلة من رجاله ؟

3 – ما رأيك في الكفاح الذي قام به الزعيمان البربريان « كسيلة » و « داهية » ضد العرب ؟ بين السبب المحتمل الذي جعل البربر يقفون في وجه الفتح الإسلامي عشرات السنين .

4 – تحدث – باختصار – عما قام به زهير ثم حسان بن النعمان في المغرب .. في أي عهد منهما كثر عدد من أسلم من البربر ؟

5 – ما السياسة التي سلكها موسى بن نصير مع البربر ، وعلى أي شيء تدل ؟ ما أثرها ؟

الدرس الخامس :

فتح الاندلس

●

قبل الفتح

تكوّن اسبانيا والبرتغال شبه جزيرة واقعة في غرب أوروبا ، سماها العرب جزيرة الأندلس . والاسم الذي كانت البلاد تُعرف به أيام الفينيقيين هو اسبانيا « **Espana** » . وفي غضون القرن الخامس ق.م جاء القرطاجيون إلى البلاد واحتلوا مراكز بني عمومتهم الفينيقيين ، كما أسسوا غيرها ، ولما تغلب الرومان على قرطاجة استولوا على مستعمراتها ومن ضمنها اسبانيا ، التي خضعت لحكمهم سنة 134 ق.م. وفي سنة 406 م أغارت على رومة واسبانيا قبائل بربرية ، أتت من شمال اوروبا من بينهم الوندال الذين تسمت البلاد باسمهم « باندالوش » ، ثم أغارت على البلاد قبائل القوط ، وهم والوندال ينتسون إلى الجرمان .

وفي سنة 581 م اعتنق القوط الديانة النصرانية ، ولما غزا المسلمون اسبانيا وجـدوا دولة القوط هي الحاكمة في البلاد . وقبل قيام دولة

القوط كان يحكم اسبانيا الملك غيطشة « Witiza » العريق في النسب في أسرة الملك ، إلا أن أحوال البلاد في عهـــده كانت متضعضعة بسبب انقسام السكان إلى أحزاب وشيع ، وبسبب الضرائب الفادحة التي كان القسس يثقلون بها كاهل الشعب . فكانت النتيجة أن خلع الثوار الملك غيطشة عن عرشه وقتلوه شر قتلة ، وعينوا عليهم مكانه ملكاً آخر يسمى رُدريك «Rodrick» ويسميه العرب رُذريق أو لُذريق . ولم يكن هذا من أسرة الملك ، وإنما كان قائداً قوطياً من قواد الجيش،وبهذا تأسست الدولة القوطية التي وجدها العرب قائمة في اسبانيا .

وظل أبناء الملك المقتول ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة المواتية لاسترداد حقهم المغصوب . وحنق على الملك القوطي ايضاً حاكم سبتة يوليان Julean لأنه لوث شرف ابنته . وهكذا كانت الأسباب مواتية لدخول العرب اسبانيا .

استعادة الشمال الإفريقي

وفي سنة 88 هـ أسند الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ولاية الشمال الإفريقي إلى موسى بن نصير ، فاستطاع هذا البطل العظيم أن يتغلب على مقاومة البربر ويعيدهم من جديد للإخلاد إلى الطاعة والسكينة تحت ظل الإسلام ، فدانت له البلاد ، ولم يستعص عليـــه إلا فتح سبتة ، التي كان يحكمها يوليان المذكور من قبـــل ملك اسبانيا ، ولكن لما غضب يوليان على ملكه حرض موسى بن نصير على غزو اسبانيا .

1 — حملة طريف :

استأذن موسى في ذلك الخليفة الوليـــد فأذن له . وفي رمضان

سنة 91 هـ عيّن موسى بطلاً مغربياً اسمه طريف على رأس فرقة من الجيش عدد رجالها أربعمائة راجل ومائة فارس تقريباً ليقوم بجس النبض على شواطىء الأندلس ، فأدى طريف المهمة بنجاح ، وعاد إلى المغرب مصحوباً بكثير من الغنائم،وباسم هذا القائد سميت مدينة طريف المعروفة في اسبانيا .

2 – حملة طارق :

وفي سنة 92 هـ استعد موسى بن نصير لفتح اسبانيا وأسند قيادة الجيش إلى بطل مغربي آخر هو طارق بن زياد ، فقاد هذا البطل جنوده الشجعان البالغ عددهم اثني عشر ألف فارس وراجل معظمهم مغاربة ، ورافقه في هذه الغزوة يوليان حاكم سبتة . وما ان علم ملك اسبانيا لذريق بذلك حتى جهز جيشاً جراراً يقدر بعشرات الالوف من الرجال ، وتوجه به لمقاتلة المسلمين . وعندما رأى طارق ذلك العدد الضخم من جيش النصارى ، بعث إلى موسى يطلب منه المدد العاجل، فأنجده بخمسة آلاف جندي مغربي .

وعلى ضفاف وادي لكة (Guadalète) قريباً من مدينة شريش الحالية اصطف الجيشان : الإسلامي ، والإسباني الذي لا يحصى عدده ، وخطب طارق في جيشه خطبته المشهورة : « أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، الخ .. » ، وذلك بعد أن أمر بعض رجاله بإحراق سفنه سراً ، حتى لا يطمع جنوده في الفرار.ثم نشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين، وطال أمدها ، وفي نهايتها انهزم جيش الإسبان انهزاماً ذريعاً ، وسقط

ملكهم لذريق صريعاً في ساحة الوغى . ثم تقدم طارق في البلاد، فاستولى على عدة مدن وقرى ، ومنها : استجة «Ecija » ، وطليطلة «Toledo» ، ومدينة سالم « Medina Celi » ، التي يقال إنه وجد فيها مائدة النبي سليمان . وكان كلما فتح مدينة ترك بها حامية وأعلن لأهلها أن العرب لم يجيئوا لبلادهم لسلب أموالهم ، وتخريب ديارهم ، أو إفساد زرعهم، أو قتلهم أو إيذائهم ، وإنما جاءوا فقط لهدايتهم إلى طريق الخير وعبادة الله وحده ، لا شريك له .

3 — حملة موسى بن نصير :

أما موسى بن نصير فإنه عندما سمع بانتصارات طارق ، دبت في نفسه الغيرة ، ثم أعد جيشاً قوامه ثمانية عشر ألف رجل ، وتوجه بهم إلى اسبانيا في رجب 93 هـ ، فاستولى على مدن كثيرة منها مدينة اشبيلية « Sèvilla » التي كانت عاصمة الملك باسبانيا قبل الحكم القوطي . وفي طليطلة اجتمع بطارق فأخذ منه جميع ما تحت يده من الغنائم ، ومن بينها مائدة النبي سليمان . ثم واصل القائدان العظيمان : موسى وطارق إتمام فتح البلاد .

ويلاحظ أن سلوك طارق في غزواته كان يختلف تماماً عن سلوك موسى ، فإن الأول كان يقسم الغنائم بالقسطاس بينه وبين جنوده ، بعد أن يحتفظ منها بالخمس للخليفة ، باعتباره أميناً على مال الدولة ، بينما الثاني كان يستأثر وحده بكل ما يحصل عليه من أموال ونفائس . ويقال بأن طارق كان يطلع الخليفة رأساً على نتائج أعماله، متخطياً بذلك أميره موسى ، بينما كان هذا الأخير يكاتب الخليفة في شأن طارق ،

ويذكر له عصيانه وعقوقه .

وأمام ذلك استدعاهما الخليفة الوليد للمثول بين يديه في دمشق، فلبى طارق الدعوة ، وحضر إلى دمشق ، بينما تباطأ موسى ، ولم يتوجه إلى دمشق إلا بعد أن جاءه أمر جديد من الخليفة يلح عليه .في الحضور ، وقبل أن يذهب ترك ابنه عبد العزيز في اشبيلية (العاصمة) حاكماً على الأندلس ، كما ترك ابنه عبدالله والياً على افريقية ، وابناً ثالثاً على طنجة . وكان الخليفة الوليد قد أصيب بمرض عضال ، وكان ولي عهده هو أخوه سليمان ، فبعث هذا إلى موسى بالتوقف ، حيث يصله كتابه ، حتى يتولى الخلافة بعد أخيه المحتضر ، لينال وحده شرف استلام الغنائم الأندلسية ، ولكن موسى رفض إطاعة سليمان فسيا أراد وقدم إلى دمشق ، ودفع إلى الخليفة المريض كل ما كان تحت يديه من نفائس وأموال .

فلما تولى سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه،انتقم من موسى أشد الانتقام، حيث أفقره وشرد عائلته ، وجيء برأس ابنه عبد العزيز ، الذي تركه والياً على اسبانيا ، وعُرض أمامه . فتجلد موسى. ثم أصدر هذا الخليفة القاسي — فيما بعد — أمره بعزل جميع اللخميين من مناصبهم ، لأن موسى ينتمي اليهم ، كل هذا بسبب امتناع موسى عن إطاعة أمره ، بالإضافة إلى الشكاوى التي كان طارق يرفعها إلى الخليفة ضد موسى .

وإن التاريخ ليأخذ على سليمان هذه المعاملة القاسية التي استعملها مع موسى بن نصير ، وهو البطل العظيم الذي استعاد الشمال الإفريقي إلى حظيرة الإسلام ، ودوّخ مملكة اسبانيا .

المغرب والأندلس في عهد الولاة

كان الخلفاء الأمويون بالمشرق يعينون الولاة أو الأمـراء ، لينوبوا عنهم في حكم الشمال الإفريقي والأندلس . وكان الوالي العام يقيم بالقيروان، ويشمل نفوذه كل المغرب والأندلس بعد فتحها . وأول أمير عام عيّن على المغرب والأندلس هو موسى بن نصير ،وأول وال على الأندلس وحدها هو طارق بن زياد . وقد دام حكم الولاة بالأندلس زهاء 45 سنة كانت البلاد خلالها تعتبر تابعة لوالي المغرب (المغرب العربي) الذي كان مقره بالقيروان. وقد مرت سواء بالمغرب أو بالأندلس في عهد الولاة سلسلة من الأحداث الخطيرة ، اكتنفهـا كثير من الغموض التاريخي . ويلاحظ أن معظم تلك الحوادث التي جرت في المغرب خلال تلك الفترة كانت تنعكس انعكاساً أسوأ في بلاد الأندلس ، وهنـا نجمل ما نراه مناسباً لدرسنا .

كانت تلك الفترة فترة انتقال من الفوضى الشاملة إلى حياة الاستقرار التي تمت على يد عبد الرحمن الداخل ، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس، وكانت ايضاً فترة صراع عنيف بين العرب والبربر ، كل منهما يريد أن يتغلب على صاحبه واخضاعه لحكمه . وهو امتـداد للصراع الطويل الذي ابتدأ منذ الشروع في فتح المغرب . وهنا نرجح أن معظم الحوادث الداميـة التي جرت سواء في المغرب أو في الأندلس ، وكذلك النفور الذي دب في النفوس ، تسبب في وجود معظمه العرب مع الأسف* .

* لا نرى أن هذا ينقص شيئاً من واقعنا العربي ، فنحن اليوم عرب أو مستعربون مـا في ذلك شك ، للأسباب التي سبق أن ذكرناها في الدرس الاول . ومن الافضل ان ينبه الاستاذ تلاميذه الى ذلك ، حتى لا يختلط عليهم الامر .

فقد دخل العرب إلى المغرب حاملين معهم الهدي المحمدي، وبرهنوا في عهدهم الأول خلال الفتح على طهارة النفس، وخلوصها من شوائب العصبية والأثرة والصلف ، ولكنهم ما أن استقروا في المغرب والأندلس، حتى بدأوا يحيون نعرتهم القبلية ، التي نهاهم عنها الرسول(ص) ، ضد بعضهم من جهة ، وضد البربر من جهة أخرى. وهكذا تعصب اليمانيون ضد المضريين ، ثم تعصبوا كلهم ضد البربر .

فهذا يزيد بن أبي مسلم عامل المغرب والأندلس يسيء معاملة البربر، ويريد ان يسير معهم كما سار الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق مع أهله ، فقد فرض جزية على جميع من أسلم من البربر ، وأمر بإعادتهم الى قراهم ليعيشوا فيها كما كانوا قبل الإسلام . ولكنه ما أن شرع في تنفيذ خطته الجهنمية ، حتى ثار عليه البربر ثورة عارمة ، لا تبقي ولا تذر وقتلوه ، وولوا مكانه عليهم محمد بن يزيد ، ثم كتبوا إلى الخليفة يزيد ما نصه : « إنا لم نخلع يداً من طاعة ولكن يزيد سامنا ما لا يرضي الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك» . وكان الخليفة عاقلاً جداً حيث تأسف لما حصل من عامله المقتول من مظالم ، وأبدى موافقته على تعيين العامل الجديد .

وهذا عمر بن عبيدالله عامل طنجة والمغرب الأقصى يسوم البربر سوء العذاب ويريد ان يخمّس من أسلم منهم ، فكانت النتيجة أن ثاروا عليه بدافع إبائهم الضيمَ المشهورِ فيهم . ولم يقف الأمر إلى هذا الحد ، بل إن جميع عمال ابن الحبحاب الذي تولى إمارة المغرب والأندلس ساهموا بنصيبهم في الإساءة المزرية إلى البربر ، إذ اعتبروهم مُسودين وهم أسياد ، ضاربين بذلك عرض الحائط مبدأ المساواة الذي جاء به الإسلام .

ثار البربر على عاملهم العربي ابن الحبحاب بزعامة قائدهم مسيرة المضغري ، وكان مذهب الخوارج الذي تفشى بين البربر عاملاً قوياً في إذكاء روح التمرد والمقاومة فيهم ضد العرب ، والعمل على الخروج عن طاعتهم . لأن ذلك المبدأ يدعو إلى المساواة بين المسلمين ، ولا يشترط في الأمير أن يكون أبيض أو أسود ، عربياً أو بربرياً . وحدثت معارك طاحنة بين جيوش مسيرة البربرية وبين العرب ، انتصر فيها هذا القائد البربري انتصاراً حاسماً ، وخاطبه البربر بأمير المؤمنين ، ولكنه أساء هو الآخر المسيرة فيهم فقتلوه وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي. فتقدم هذا إلى العرب ، وحاربهم وانتصر عليهم في وقعة مشهورة تعرف بوقعة الأشراف،لأن كثيراً من أشراف العرب سقطوا قتلى في تلك المعركة. وعقب ذلك خرجت جميع جهات المغرب من سلطة ابن الحبحاب الذي عزله الخليفة هشام من منصبه .

وسمع أهل الأندلس – خصوصاً منهم البربر – بما أحرزه إخوانهم في المغرب من الانتصار على العرب فثاروا على عاملهم بها عقبة بن الحجاج السلولي،وولوا مكانه عبد الملك بن قَطَن الفِهري . ولكن الحالة ظلت على ما هي عليه من الفوضى والاضطراب سواء في المغرب أو في الأندلس.

ثم جاء هذا العامل العربي الجديد كلثوم بن عياض،الذي عينه الخليفة هشام مكان ابن الحبحاب المعزول . فما ان استقر في القيروان حتى أخذ يسيء إلى البربر ، ثم تقدم بجيوشه الجرارة إلى المغرب الأقصى فاشتبك مع جيوش خالد الزناتي قرب وادي سبو فكان النصر للبربر . وما أن وصل الخبر إلى بربر الأندلس حتى انقضوا انقضاض الصاعقة على العرب، فأكثروا الإيقاع بهم . فاختلت الأمور بالأندلس ، كما اختلت بالمغرب.

من قبل ، رغم ان العرب استطاعوا ان يلموا شعثهم ، ويتغلبوا على البربر في الأندلس . ولم تكن الحالة تتحسن نوعاً ما إلا نادراً،ونتج عن ذلك في النهاية خروج كل من المغرب والأندلس عن طاعة خلفاء الشرق، واستقلالهما بنفسهما ، حيث أسس عبد الرحمن الداخـــل دولته الأمويـــة بالأندلس ، كما أسس إدريس الأكبر دولته الإدريسية بالمغرب،فيما بعد.

نقاط التلخيص

- كان القوط هم الحاكمين لاسبانيا قبل فتح العرب لها . وكانوا يظلمون الإسبان ، ويفرضون عليهم الضرائب الفادحة ، ولذا كانت الثورات لا تخمد لها أوار .
- وفي سنة 88 هـ كلف الخليفة الأموي عبد الملك البطل موسى بن نصير باستعادة فتح المغرب ، فتمكن هذا من تحقيق الغرض .
- وفي سنة 92هـ أمر موسى بن نصير القائد طارق بن زياد بغزو الأندلس ، فغزاها بجيوش معظمها مغربية ، واستولى على البلاد بمساعدة قائده موسى بن نصير في نهاية الأمر .
- بعد أن أتم موسى فتح المغرب والأندلس بدأ الخلفاء الأمويون يعينون ولاة عليها ، وكان والي القيروان هو الوالي الأكبر وعلى يديه يعين ولاة كل من المغرب والأندلس .
- وقد حدثت ثورات كثيرة في المغرب والأندلس في عهد هؤلاء الولاة ، كان السبب في معظمها الولاة العرب أنفسهم .

أسئلة

1 – كيف كانت أحوال اسبانيا قبل الفتح الإسلامي ؟
2 – تكلم عن حملتي طارق وموسى على الاندلس .
3 – ما اختصاص كل من والي الشمال الإفريقي ووالي الاندلس في عهد الولاة ؟
4 – حكم عقلك فيما يأتي :
آ – غضب موسى بن نصير على طارق .
ب – انتقام سليمان الخليفة الاموي من موسى بن نصير .
5 – جاء في الدرس أن معظم الحوادث والفتن كان مثيروها من العرب وحدهم .. ما رأيك فيما ذكر ؟ هل ذلك ينقص من واقعنا العربي حالياً ؟ لم ؟

الدرس السادس :

الادارسة

(172 — 375 هـ)

●

وقعة فخ ونجاة إدريس

في سنة 169 هجرية اشتد بالمدينة أمر الحسين بن علي بن الحسن المثلث ، المنحدر من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتغلب على عاملها العباسي ، فبايعه الناس ، ثم سار الحسين هذا الى مكة ، وكان بها طائفة من كبار الحجاج العباسيين ، فاشتبكوا مع الحسين في القتال حتى هزموه هو وأصحابه ، ثم قتلوه وقطعوا رأسه . وقدأحصيت قتلى الحسين فكانوا مائة ونيفاً . واختلط المنهزمون ممن بقي على قيد الحياة بالحجاج ، وتفرقوا في كل جهة . وحصلت هذه الوقعة في مكان قريب من مكة ، يعرف بفخ .

وكان من جملة من حضر هذه الحادثة من آل الحسين يحيي وإدريس، ولدا عبدالله ، ولكنهما استطاعا ان ينجوا بنفسيهما ففر يحيي الى بلاد

الدَّيْلم بالمشرق ، واجتمع الناس عليه هناك وبايعوه ، وكوّن منهم دولة قوية،هددت مُلك العباسيين . ولكن يحيى اصطلح مع هارون الرشيد ، فأكرم الخليفة العباسي مثواه أول الأمر ، ثم سجنه حتى مات في سجنه.

أما إدريس فإنه توجه شطر المغرب الأقصى مع مولاه راشد ، ومر في طريقه على مصر وبرقة فتلمسان ثم طنجة ، التي كانت قاعدة المغرب الأقصى في ذلك الوقت . ولما لم يستطب المقام فيها رحل عنها ، وذهب الى مدينة وليلي . وهناك نزل على القائم بشؤونها ابن عبد الحميد الأوْرَبي. وكان دخول إدريس إلى المغرب في غرة ربيع الأول سنة 172 من الهجرة . وبعد قضائه بوليلي عدة أشهر جمع ابن عبد الحميد رؤساء البربر ووجوههم ، وعرّفهم بشخصية إدريس ونسبه للرسول (ص) ، ثم دعاهم لبيعته فأجمعوا كلهم على مبايعته ، وعقب ذلك قام إدريس يخطب فيهم : « أيها الناس لا تمدوا الأعناق الى غيرنا ، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا » .

إدريس يجاهد في سبيل الله

ولما بايعت إدريس معظم القبائل البربرية كوّن منها جيشاً كبيراً أعده إعداداً حسناً ، ثم تقدم به لغزو بلاد تادلة بالمغرب الأقصى ففتحها، وكان معظم أهلها على دين اليهودية والنصرانية ، فدخلوا في الإسلام جميعهم . ثم عاد إلى وليلي ومكث بها مدة شهر تقريباً ، استراح خلاله جيشه من التعب.، ثم خرج لغزو من بقي من البربر على المجوسية والنصرانية واليهودية ، ففتح قلاعاً كثيرة ، ودخل أهلها في الإسلام طوعاً وكرهاً ، ومن رفض الدخول في الإسلام قتله . ثم قفل راجعاً

إلى وليلي . ولم تدخل سنــة 173 هـ حتى كان إدريس قد دوّخ معظم بلاد المغرب الأقصى طولاً وعرضاً .

ثم قصد مدينة تلمسان — في أرض الجزائر الشقيقة — لمحاربة سكانها من قبائل مغراوة وبني يفرن . وما أن وصل اليها بجيشه الكثيف حتى خرج عاملها . ورضي بمبايعته دون العباسيين ، فدخل إدريس المدينة مع جيشه ، وأمّن أهلها وبنى بها مسجداً عرف باسم مسجد تلمسان .

وفاته بإيعاز من الرشيد

ولما علم الخليفة العباسي هارون الرشيد بما أصبح عليــه إدريس من القوة والحول ، وباستيلائه على تلمسان التي كانت تحت النفوذ العباسي ، وهي في نظر وزيره يحيى البرمكي باب الشرق ، ومن دخل الباب دخل الدار—لما علم بذلك همّ بإعداد جيش كثيف وتوجيهه لمحاربة إدريس . ولكن وزيره نصحه بالعدول عن هذه الفكرة ، واقترح عليه اللجوء إلى الحيلة ، وذلك بأن يرسل إلى إدريس رجلاً ذكياً يتظاهر بأنــه ضد العباسيين ، ويحتال على قتله . فاستحسن الرشيد الاقتراح ، ثم اختار للقيام بهذه المهمة رجلاً يدعى سليمان بن جرير المعروف بالشماخ .

جاء الشماخ إلى إدريس وتظاهر أمامه بأنه يحب أهل البيت ويكره العباسيين ، وأنه فر من قبضتهم بأعجوبة ، فصدقه إدريس وقربه إلى مجلسه ، وبالغ في الثقة بــه وإكرامه . وذات يوم ، غاب راشد عن سيده إدريس ولم يكن يفارقه أبداً ، فوجد الشماخ الفرصة سانحة، فدس له سماً خفية ، فقتله ، ثم انسل هارباً . ولما عاد راشد من غيبته وجد

إدريس ملقى على فراشه يتمتم بكلمات غير مفهومة .. وتفقد الشماخ فلم يجده،فأدرك في الحال أنه هو الجاني . وفي التو خرج راشد هو وجماعة من الجيش في طلب الشماخ فلحقه يعبر وادي ملوية ، وضربه ضربات بسيفه قطعت إحداها يده اليمنى ، وشجّت رأسه أخرى . ولكن رغم ذلك استطاع الشماخ ان ينجو بنفسه من القتل . ثم عاد راشد إلى وليلي ودفن إدريس بها ، وكانت وفاته في فاتح ربيع الثاني سنة 177 هـ .

وكان إدريس قد ترك زوجة بربرية حاملاً تدعى كنزة ، فجمع راشد وجوه البربر وطلب منهم أن ينتظروا ريثما تضع كنزة حملها ، فإن كان ولداً ولوه ملكاً عليهم خلفاً لأبيه ، وإن كان أنثى اختاروا من بينهم من يقوم بشؤونهم ، فوافق الجميع على ذلك . ولما وضعت كنزة كان المولود ذكراً ، فسموه إدريساً كأبيه ، ويقال إنه كان يشبهه . وقام راشد بأمور البربر أثناء الحمل ومن بعده،وقد بذل جهوداً مشكورة في تعليم الطفل إدريس وتربيته ، فحفظه القرآن الكريم وروّاه الحديث الشريف ، وعلّمه الشعر والحكم والأمثال ، ودرّبه على ركوب الخيل وفنون الحرب . ولما بلغ الولد 14 سنة وخمسة أشهر تقريباً، بويع بالملك كما بويع يوم ولادته ، وذلك في غرة ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة. فأظهر إدريس طول حياته من ضروب الفطنة والحنكة والجدارة ما يثير الدهشة .

ولما استقام له الامر ، وكثرت جيوشه ، وقوي نفوذه في طول البلاد وعرضها ، جاءته وفود كثيرة من العرب من افريقية والاندلس، يقدر عددهم بخمسمائة،فسر إدريس بهم غاية السرور ، وبالغ في اكرامهم وأسند إليهم المناصب الرفيعة دون البربر ، فعين منهم عُمَير بن مُصْعب

لأزدي المعروف بالملجوم وزيراً . كما عين أبا الحسن عبدالله كاتبه الخاص ، وعين غيرهما قاضياً ، وآخر قائداً عاماً للجيش ، وهكذا ، L كان السبب في قيام بهلول المضغري بالثورة ضده ، وكان من قواده المخلصين . وقد دفع الإباءُ هذا القائد البربري إلى خلع بيعة إدريس إعلان بيعته للعباسيين .

وأمام ذلك لم يجد إدريس الاصغر بُدّاً من استعطاف القائد البربري بقرابته لرسول (ص) ، فكف عنه بهلول وصالحه . ثم انحرف عنه اسحق لأوربي لنفس السبب المتقدم وهو تفضيله للعرب على البربر ، فترك هذا القائد البربري بيعة ادريس ، ومال الى بني الاغلب التابعين للعباسيين ، باحتال ادريس عليه وقتله .

بناء مدينة فاس (192 هـ)

لما كثرت الوفود العربية على إدريس الاصغر ، وضاقت مدينة وليلي بهم فكر في بناء مدينة جديدة ، فوقع اختياره أخيراً على المكان الذي اكتشفه وزيره عمير بن مصعب ، حيث مدينة فاس حالياً . وكانت تسكن المكان قبائل على دين المجوسية واليهودية والنصرانية ، وكانوا في قتال لا ينقطع مع بعضهم بسبب اختلافهم الديني ، والعصبية القبلية. ولما حضر إدريس لمعاينة الموضع ، وجد هذه القبائل تتقاتل ، فتدخل في الامر وأصلح ما بينها ، ثم رغّبها في اعتناق الإسلام فأسلم الجميع ، واتفق معهم على شراء المكان الذي اختاره لبناء المدينة بثمن يقدر بنحو ستة آلاف درهم ، ودفع لهم الثمن ، وأشهد عليهم في ذلك كاتبه أبا الحسن عبدالله .

وفي غرة ربيع الآول سنة 192 هـ شرع في بناء المدينة،مبتدئاً بعدوة الأندلس . وبنى بها مسجداً يعرف بجامع الأشياخ . وبعد ثلاث سنوات شرع في بناء عدوة القرويين وبنى بها مسجدها المعروف بجامع الشرفاء . وبها بنى مساكنه ، وانتقل اليها نهائياً مع أهله وعشيرته ورجال دولته . ولقد شجع الناس على بناء بيوتهم لتعمير المدينة . وفي عدوة الأندلس أنزل الأندلسيين الوافدين عليه من اسبانيا،واما في عدوة القرويين فقد أسكن عرب القيروان النازحين اليه . وكان عدد الأندلسيين ثلاثمائة أسرة ، وعدد العرب الوافدين من القيروان ثلاثة آلاف أسرة . ولما جاءته وفود من أهل الفرس من العراق أنزلهم بالقرب من عين علون .

ولما أتم إدريس الأصغر بناء مدينة فاس ، جعلها عاصمة ملكه . وفي سنة سبع وتسعين ومائةللهجرة،خرج لغزو بلاد المصامدة فأخضعها لحكمه،ثم عاد إلى فاس وظل بها مدة . ثم خرج في نفس السنة لمحاربة قبائل نفزة في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر الشقيقة) فتغلب عليها،واستولى على مدينة تلمسان ، واعتنى بإدخال إصلاحات هامة عليها ، ومكث بها مدة ثلاث سنوات ، ثم قفل راجعاً إلي فاس .

وهكذا تمكن إدريس الاصغر من توحيد صفوف البربر تحت لواء دولته الإدريسية . وأصبح نفوذه يشمل المغرب الأقصى والأوسط، الذي كان تابعاً من قبل للنفوذ العباسي . وظل هذا الملك الفذ يقوم بالأعمال الجليلة لصالح دولته إلى أن توفاه الله في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين . وكان قد بلغ من العمر نحو ست وثلاثين سنة ودفن بعاصمته . وقد ترك من الأولاد اثني عشر ، كلهم ذكور ، أكبرهم محمد .

ولما اعتلى محمد بن إدريس الأصغر أريكة الملك قسم المغرب بين

إخوته الكبار بإشارة جدته كنزة ، وبقي أولئك الإخوة عمالاً يأتمرون بأمر أخيهم الملك ، ويسيرون وفق خطته . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تنازع الإخوة على الملك ، وقامت بينهم الفتنة ، وظل الحال كذلك حتى توفي الملك محمد بفاس في ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ودفن بالعاصمة بالقرب من أبيه . وكان قبل وفاته قد عهد بالملك لابنه علي بن محمد ، الذي كان يبلغ من السن يوم توليته تسع سنوات وأربعة أشهر . فتولى الوصاية عليه بعض أفراد حاشية والده المخلصين ، وكانت أيام هذا الملك زاهرة ، ساد فيها الهدوء والأمن والازدهار نسبياً ، وتوفي في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين ، بعد ان عهد لأخيه يحيى بتولي شؤون الرعية . وكان عهد يحيى هذا عهد عز ورفاهية وسلطان عريض ، وعدل بين الناس ، وتقاطرت الوفود عليه من كل جهة : من المغرب ومن افريقية والأندلس .

جامعة القرويين (245هـ)

كانت الأرض التي بنيت فيها جامعة القرويين ملكاً لرجل من قبيلة هوارة ورثها عن أبيه ، الذي امتلكها أيام تأسيس فاس . وكان في جملة من وفد من عرب القيروان امرأة تسمى فاطمة بنت محمد الفهري ، وتكنى بأم البنين ، وكانت قد ورثت عن زوجها وإخوتها مالاً كثيراً وكانت امرأة صالحة ، فلما نزلت بعدوة القرويين ، ورأت ذلك الموضع أعجبها ، وفكرت في بناء مسجد للصلاة وتدريس العلم تقرباً إلى الله وشكراً على نعمائه . فاشترت الأرض من صاحبها ، وشرعت في البناء يوم السبت فاتح رمضان سنة خمس وأربعين ومائتين ، وحفرت به بئراً

للبناء والسقي منـــه ، وتم بناء الجامع في عهد يحيي بن محمد ، الذي وصلت الدولة في زمانه أوج عزها وسلطانها .

وقد كان جامع القرويين أول جامعة إسلامية أسست في العالم الإسلامي، ثم تأسست بعدها جامعة الأزهر الشريف بمصر ، بناها الفاطميون الذين ينحدرون من أصل مغربي أيضاً . وقد صارت القرويين على مرّ الأيام كعبة يحج اليها الطلاب من كافة البقاع والأصقاع ، وتخرّج منها مئات من علماء الدين ، وفطاحل العلم وجهابذة اللغة والأدب ، بيّضوا وجـه المغرب في سجـــل الزمان ، وخلدوا النبوغ المغربي في أسفار الشرق والغرب . واليوم وقد نظمت جامعة القرويين تنظيماً عصرياً جديداً في عهدي الملكين الجليلين المرحوم له محمد الخامس،وابنه البار الحسن الثاني أطال الله عمره ، فإنا نرجو ونأمل أن تقوم القرويين بواجبها على الوجه الأكمل ، حتى تعيد مجدها الغابر وتحقق عزّها المرتجى إن شاء الله .

وبعد وفاة يحيي بن محمد تعاقب أبناء إدريس على ملك المغـــرب ، ولكنهم لم يقوموا بأعمال عظيمة تستحق الذكر ، وظلت الحالة تسوء إلى أن قام على الدولة موسى بن أبي العافية الذي كان خاضعاً للعبيديـــين (الفاطميين) أول الأمر ثم خرج عن طاعتهم،فعمل هذا على تقويض عرش الأدارسة. ولما حقق مراده أصبح السيد المطاع في البلاد . وتوارث أبناؤه الملك من بعده مدة مائة سنة تقريباً ، ولكن أيامهم كانت أسوأ من سابقتها ، ولم يقوموا بعمل جليل يستحقون عايه تقديراً أو ثناء . وقد عاشت الدولة الإدريسية زهاء قرنين وثلاث سنين ، وكانت أيامها بصفة عامة زاهرة ، توفر فيها الأمن ، وتمتع الناس خلالها بقسط وافر من الحرية والرفاهية ، وكثرت المدن بصفة خاصة .

نقاط التلخيص

- فر إدريس إثر واقعة فخ بالمشرق ، ولجأ إلى المغرب مع مولاه راشد ، وهناك بايعته قبائل البربر ملكاً عليها .
- في سنة 177 هـ أوعز هارون الرشيد بقتل إدريس إلى شخص يدعى الشماخ فدس له سماً وقتله .
- لما مات إدريس انتظر البربر حتى وضعت زوجه حملها ، فكان المولود ولداً ، فأسرعت القبائل البربرية إلى مبايعته خلفاً لأبيه .
- لما ضاقت مدينة وليلي بالسكان أشار إدريس الأصغر ببناء مدينة فاس وذلك سنة 192 هـ ، واتخذها عاصمة لدولته .
- في عهد يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس بنت فاطمة بنت محمد الفهري جامعة القرويين ، فكانت أول جامعة أسست في العالم الإسلامي ، وصارت منذ تشييدها مهد العلم والعرفان ، وموئل العلماء والطلاب . وكان لجهودها العلمية فضل عظيم على حضارة المغرب .

أسئلة

1 – كيف فر إدريس من واقعة فخ ؟ كيف أسس دولته في المغرب ؟

2 – لم قتل هارون الرشيد إدريس ؟

3 – متى بنيت مدينة فاس ، وكيف تم ذلك ؟

4 – ما المشورة السيئة التي عمل بها إدريس الاصغر ؟ ما نتائجها ؟

5 – تحدث بإسهاب عن بناء جامعة القرويين ، وعما تعرفه من خدماتها العلمية .

الدرس السابع :

قيام الدولة الاموية بالاندلس

●

عبد الرحمن الداخل (138 — 172 هـ)

لما آل أمر الخلافة في الشرق إلى بني العباس ، بعد تغلبهم على بني أمية ، شرعوا في تعقب فلولهم ، وتعذيب عائلاتهم قصد إبادتهم بشتى الوسائل ، فمن قتلٍ بالسيوف وطعن بالرماح ، إلى احتزاز للرؤوس وقطع للأطراف ، وصلب علـى الأخشاب وتعريض الأجسام لحرارة القيظ . وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين قد أمر بقتل عبد الرحمن ابن معـاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وبعث إلى داره في دمشق رجالا لتنفيـذ أمره . ولكنهم لما وصلوا للبيت وجدوا صاحبه متغيباً عنه . وما ان علم عبد الرحمن بكل ذلك حتى فر إلى فلسطين هو وخادمه بدر ، بعد أن أخذ ما استطاع أخذه من مال .

ثم وصل إلى برقة ، فلما أحس عاملها ابن حبيب الفهري بوجوده

في المدينة فرق جنوده في كل مكان قصد العثور على الشاب الأموي، وغله في الأصفاد، ثم تسليمه إلى الخليفة العباسي طمعاً في الحظوة بمحبته ومجازاته على ذلك خير الجزاء . وكان هذا الرجل قد عينه الأمويون ليتولى عمالة برقة ونواحيها ، وظل يأتمر بأمرهم ، ويظهر لهم المحبة والإخلاص والطاعة تصنعاً ورياء ، فلما قضى العباسيون على الأمويين ، وأقاموا دولتهم أسرع هذا العامل المرائي بإعلان بيعته للحاكمين الجدد . ولما حل عبد الرحمن بعمالتـه خف للقبض عليه ، ناسياً فضل الأمويين عليه ، وتلك عادة اللئام ، وما أكثرهم ، ولكن أمله لم يتحقق ، فقد أفلت عبد الرحمن من يديه الملطختين بالعار والشنار ، ووصل سالماً إلى تاهرت أو تيهرت بالجزائر الشقيقة ، وكانت عاصمة البربر هناك . فاستقبل هو وأصحابه المخلصون الذين رافقوه من برقة ، من طرف زعيم البربر الزناتيين سكان تاهرت بكل حفاوة وترحيب وتكريم . وإلى قبيلة زناتة هذه ينتمي عبد الرحمن من جهة أمه البربرية (راح) .

وقد تربى عبد الرحمن يتيماً هو وإخوته في قصر جدهم هشام عاشر الخلفاء الأمويين ، لأن أباه معاوية توفي سنة 118 هـ ، وعمره هو خمس سنوات ، كما توفيت والدته . وكان هشام يخص عبد الرحمن وإخوته بالخمس من ريع الأندلس . وقد كان انتماء أمه إلى البربر وريع الأندلس المخصص له ، من الأسباب القوية التي جعلته يفضل الفرار إلى المغرب ، ويفكر في الدخول إلى اسبانيا ليؤسس دولته الأموية بها .

عبد الرحمن يؤسس دولته الأموية

وفي الوقت الذي كان عبد الرحمن مقيماً في تاهرت بين أخواله البربر ينعم بالأمن والحرية والسعادة والجاه ، كانت أحوال اسبانيا في غاية الفوضى والاضطراب ، بسبب الفتن الأهلية ، والحروب القائمة بين عامر بن عمرو العَبْدَري ، أمير سرقسطة ، وبين يوسف الفهري أمير قرطبة وطُلَيطلة . ووصل إلى علم عبد الرحمن ما يجري في ديار الأندلس، فرأى أن الفرصة مواتية ، فأرسل خادمه بدرا اليها ليمهد له الطريق لتحقيق رغبته في الإمارة عليها .

ومن الصدف العجيبة التي قلما يجود بها الزمان أن يصل بدر إلى قرطبة فيجد شيوخها ورؤساءها ووجوه القوم فيها مكوّنين اجتماعاً خطيراً يتباحثون فيه حول إقصاء أميرهم المتغيب يوسف الفهري بتهمة استغلاله منصب الإمارة في مصالحه الخاصة ومصالح آله من قبيلة قيس ، وبحجة أنه آخذ في سلخ اسبانيا المسلمة عن خلافة الشرق ، وفي ذلك ما فيه من التفرقة بين صفوف المسلمين ، وضعف كيانهم . وفعلاً اتفقوا على عزل أميرهم ، ولكنهم ظلوا محتارين في اختيار الشخص الذي يحل محله ويكون حائزاً على قوة الشخصية والفضل والعلم والتدين والحنكة حتى يستطيع إعادة الأمن إلى نصابه ، وتحسين أحوال المسلمين، وتحقيق العدل والمساواة بين الجميع .

فانتهزها بدر فرصة وأطلع بعضهم على قصده من المجيء إلى الأندلس، ذاكراً لهم أن الصفات التي يشترطونها فيمن يتولى إمارتهم متوفرة في شخصية عبد الرحمن الأموي ، ودلهم على وجوده بتاهرت ، فتداولوا

فيما بينهم في شأن ذلك . وأخيراً قرروا الموافقة على ما عرض عليهم بدر بالإجماع . وهيأوا مركباً أبحروا به نحو تاهرت لنقل أميرهم الجديد عبد الرحمن . ولما وصلوا واجتمعوا بعبد الرحمن بايعوه أميراً عليهم باسم مسلمي الأندلس ، وطلبوا منه الارتحال معهم ليتسلم مقاليد الحكم .

لما عزم عبد الرحمن على مصاحبة الوفد الأندلسي أعدت له قبيلة زناتة مئات من فتيانها الأشاوس ليرافقوه إلى الأندلس ، ويشدّوا عضده في إقامة دولته . وهكذا دخل عبد الرحمن إلى اسبانيا ، بعد أن أمضى في البلاد المغربية مدة تقدر بنحو خمس سنين ، طاف في أثنائها بين قبائل البربر ووطد صلته بها . وكان دخوله في ربيع الآخر سنة 138هـ ، في عهد أبي جعفر المنصور خليفة العباسيين ، وعرف منذ ذلك الوقت بعبد الرحمن الداخل .

وأثناء دخوله انسلخ إقليم سبتمانيا من بلاد الغال (فرنسا)* عن الحكم الإسلامي نتيجة لضعف المسلمين وقيام الفتن بينهم ، التي اضطرم أوارها زمناً طويلاً .

جهوده في سبيل الاستقرار والوحدة

دخل عبد الرحمن قرطبة واتخذها عاصمة لدولته الفتية ، أما يوسف الفهري ، الأمير السابق ، فإنه لما رجع من حربه ضد أمير سرقسطة ،

* مما تجدر ملاحظته أن العرب وصلوا في فتوحهم ببلاد الغال إلى مدينة ليون التي دخلت في حوزتهم ، ولكنهم تراجعوا إلى الاندلس غير منهزمين ، عندما سقط قائدهم عبد الرحمن الغافقي في إحدى المعارك صريعاً كبطل من الابطال العظام .

ووجد عبد الرحمن قد حل محله ، اشتبك معه في عدة حروب مهولة ، انتهت بتصالح الرجلين ، على أساس أن يرد عبد الرحمن ليوسف جميع أملاكه ، ويسمح له بالسكنى في بلاط الحر ، حيث قصره الفخم ، الذي يوجد بشرق قرطبة ، ومقـابل ذلك يعترف يوسف بإمارة عبد الرحمن على الأندلس ، ويدفع له ولديه كرهينة على الاتفاق .

وما أن استقر على أريكة الإمارة حتى بدأت الوفود تتقاطر عليه من كل حدب لتعلن له بيعتها . وبعد زمن يسير أخذ فيه راحته، شرع في التجوال بأنحاء إسبانيا متفقداً أحوالها ، وعاملاً على الضرب على أيدي العابثين ومثيري الفتن .

وبينما عبد الرحمن يكرس الجهود في سبيل توحيـد صفوف المسلمين في الأندلس تحت لوائه ، تارة بالحلم والسياسة ، وتارة بالقوة والسيف، بينما هو كذلك إذا بيوسف المعزول ينظم — في الخفاء — حركته المعادية، ويبذل الأموال بسخاء في سبيل استمالة الرؤساء ، وتأليف جيش قـوي يمكنه من القضاء على عبد الرحمن الداخل ، الذي اعتبره متعدياً عليه ، وغاصباً لحقه في الإمارة . وما ان حلت سنة 142 هـ حتى أعلن يوسف ثورته الخطيرة ضد عبد الرحمن ، فاستولى على الحصون والقلاع التي تقع في غرب قرطبة ، وكان يقود جيشاً لجباً قوامه عشرون ألف جندي ، وأعلن نفسه أمـيراً على الأماكن التي استولى عليها . ولما تعرضت له الجيوش الأموية هزمها أول الأمر ، ولكن عبد الرحمن حقق الانتصار عليه في النهاية . وأثناء هزيمته اغتاله بعض جنوده ، واحتزوا رأسه ، وبعثوا به إلى قرطبة ، برهـاناً على طاعتهم، وأمـلا في الحظوة عند الأمير الأموي .

وقام أبناء يوسف الثائر المتوفى بصولات حربية جريئة ضد عبد الرحمن، أخذاً لأبيهم بالثأر، وسعياً وراء استعادة حكمهم للبلاد . وكان يوسف وأبناؤه أعظم خطر يهدد كيان الدولة الأموية الحديثة العهد بالتكوين في الأندلس . فلما قضي عليهم استراح عبد الرحمن قليلاً من متاعب الحرب.

وفي سنة 145 هـ أمر أبو جعفر العباسي واليـه العلاء بن مغيث أن يستعيد اسبانيا إلى النفوذ العباسي كما كانت قبل قيام الدولة الأموية بها، وأغار العلاء فعلاً على شواطىء الأندلس، ولكنه فشل في تحقيق أمنيته. وفي تلك الأثناء كانت هناك ثورة عارمـة ضد عبد الرحمن تدعو لبني العباس دون الأمويين، واتفق كل من والي برشلونة : سليمان بن يقظان الأعرابي، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري، وأيوب الأسود بن يوسف الذي كان عبد الرحمن الأمير قد سجنه سجناً مؤبداً . وقرروا طلب العون من شارلمان، ملك بلاد الغال (فرنسا) ، الذي كان أعظم ملوك ذلك العصر، والذي كان صديقاً للعباسيين .

وفي مدينة بَدِرْبُون **Paderborn** من أعمـال فرنسا، اجتمعوا بشارلمان وطلبوا مساعدته، على أساس الاعتراف بسلطته عـلى اسبانيا المسلمة . وتم الاتفاق بين الخونة وشارلمان، على أن يعينـوه بجيوشهم المسلمة أثناء دخوله للبلاد دخول الظافر المنتصر، ولكن المتفقين فشلوا بسبب اختلال الخطة ومحاربة بعضهم البعض، واضطرار تراجع شارلمان عن الأماكن التي كان قد احتلها في اسبانيا، لقيام فتنـة كبرى في بلاده . ولما تمكن الأهالي من القبض على الأعرابي، الذي كان رأس الفتنة حكموا عليه بالموت، بتهمة الخيانة العظمى، فقتل في الجـامع على مرأى من الجميع .

وهكذا قضى عبد الرحمن على مناوئيه ، من عرب وفرنج وبربر ، ووطد دعائم حكمه في طول البلاد وعرضها بالحكمة أحياناً ، وبالقوة أخرى . ورغم قيام الفتن في البـــلاد ، وخوضه الحروب ضد أعدائه الكثيرين فقد قام عبد الرحمن بأعمال عظيمة في سبيل رقي البلاد، وتحسين أحوال الرعية. وقد صرف من أجل ذلك زهرة عمره، أي أربعاً وثلاثين سنة.

وكانت اسبانيـــا المسلمة قبل دخول عبد الرحمن الملقب بالداخل ، ولاية تابعة — بصفة عامة — إلى الخلافة العباسية بالشرق ، ولكنها بعد تأسيس الدولة الأموية بهـــا انفصلت نهائياً عن تبعيتها للشرق . وكان عبد الرحمن يفكر دوماً في القضاء على العباسيين ، واسترداد ملك بني أمية الذي اغتصبوه اغتصاباً من أصحابه .

مظاهر الحضارة والعلم في عصره

اعتنى عبد الرحمن الداخل ببناء الجوامع الكثيرة للصلاة ودراسة العلم، وتشييد العمارات المنيفـــة والقصور الجميلة . وأهم تلك الجوامع جامع قرطبة الكبير ، الذي تم تشييده سنة 170 هـ ، ويقال إن نفقته بلغت مائة ألف دينار . وقد بني في مكان كنيسة كانت قائمة هنـــاك . كما بنى الأمير كثيراً من الحمامات والأسواق والفنادق، وشجع على البناء والتشييد. وكانت الشوارع متسعة ومرصفة بالأحجار ترصيفاً جيداً ، وقنوات المياه والمجاري تصل إلى البيوت في نظام هندسي محكم .

وإلى قرطبة كان يهرع مئات الطلاب من الشرق والغرب مسلمـــين

ونصارى ويهود على السواء ، ليرشفوا جميعاً من مناهل العلم والفلسفة والآداب والطب،وغيرها من العلوم والفنون التي يتلقونها على أيدي فطاحل العلماء والشيوخ العظام . وكان من عادة عبد الرحمن أن يقرب اليه العلماء والأدباء ويوليهم المناصب التي تليق بكل واحد منهم ، ويجزل العطاء لهم بلا حساب . ويلاحظ أن دولته كانت عربية محضة ، على غــرار ما كانت عليه دولة بني أمية في الشرق ، بخلاف دولة بني العباس .

وفي ميدان الفلاحة والزراعة أكثر من البساتين والجنائن واهتم بتقدم الزراعة . ويقال إنه استجلب نخلة من الشام وغرسها بيده في أحــد بساتينه . ومن تلك النخلة توالد نخيل اسبانيا المشهور إلى يومنا .

وهو أول من استحدث منصب الحجابة في الدولة ، ولم يكن معروفاً قبل ذلك . واهتم بتنظيم جيوشه تنظيماً راقياً يناسب ذلك العصر، كما بنى قواعد خاصة لصنع السفن البحرية .

وبالإجمال ، فإن الأندلس في عهد عبد الرحمن ، خصوصاً في قرطبة نالت حظاً وافراً من التقدم والرقي والعلم والحضارة ، رغم جلبة الفتن والحروب،التي اضطر الأمير الى خوضها . وبفضل كل ذلك صارت قرطبة عاصمة الأندلس تضارع بغداد عاصمة العباسيــين بالشرق في الحضارة والعمران ، وتنازعها الزعامة في العلوم والفنون والآداب .

وفاته

وفي يوم الثلاثاء من ربيع الآخر سنة 172 هـ توفي هذا الأمير العظيم،

بعد ان قضى في خدمة المسلمين بالأندلس زهاء ثلاث وثلاثين سنة . وقبل موته أسند الأمر إلى ابنه هشام، بالرغم من أنه أصغر من أخيه سليمان، والسبب في ذلك أن عبد الرحمن كان يعرف قدر هشام ومحبة المسلمين له ، نظراً لسمو أخلاقه وكريم صفاته .

نقاط التلخيص

- علم عبد الرحمن بأن العباسيين جادون في البحث عنه للإيقاع به ، كما أوقعوا بسائر الأمويين ، ففر إلى فلسطين ، ثم إلى المغرب واستقر في تاهرت بالمغرب الأوسط .
- في أثناء مقامه بتاهرت كانت أحوال اسبانيا المسلمة في غاية الفوضى ، فرأى عبد الرحمن أن الفرصة سانحة فبعث مولاه بدرا إلى الأندلس لتمهيد الأمر له .
- وصل بدر إلى قرطبة فوجد أهلها يتناقشون حول عـزل أميرهم يوسف الفهري لسوء سلوكه ، فعرض بدر عليهم استعداد عبد الرحمن الأموي للقيام بشؤونهم فوافقوا وبايعوه أميراً عليهم .
- في سنة 138 هـ دخل عبد الرحمن إلى الأندلس فحقق وحدة البلاد ، وفصلها عن دعوة العباسيين .
- اعتنى عبد الرحمن الداخل ببناء الجوامع الكثـيرة للصلاة ودراسة العلم ، وشيّد العمارات والقصور الجميلة. وكانت قرطبة كعبة العلم والفلسفة والآداب والطب وغيرها من العلوم والفنون . وفي سنة 172 هـ توفي عبد الرحمن الداخل .

أسئلة

1 – كيف أفلت عبد الرحمن من مقصلة العباسيين ؟ إلى أين اتجه ؟ أين أقام في المغرب ؟

2 – حدثنا عن أحوال اسبانيا أثناء مقام عبد الرحمن في تاهرت .

3 – كيف انتقل عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس ؟ في أي سنة تم ذلك ؟

4 – ما أهم العقبات التي واجهته هناك في سبيل تحقيق وحدة البلاد ؟ متى توفي ؟

5 – أذكر لنا أهم الاعمال التي قام بها عبد الرحمن الداخل ؟ تحدث قليلا عن الحركة العلمية في عهده .

الدرس الثامن :

الامويون في الاندلس

الناصر ـ المستنصر

ازدهار الحضارة في عهديهما

●

عبد الرحمن الناصر (300 ـ 350 هـ)

صفاته وتوليته :

كان مولد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر في رمضان سنة 227هـ، وتربى في كنف جده عبدالله لأن أباه كان قد قتل بسبب وشاية . وكان جده يبالغ في محبته والعطف عليه . وكثيراً ما كان ينيبه عنه في حضور الحفلات الرسمية ، والأعياد القومية ، واستعراض الجنود .

وما ان توفي والده حتى أجمع الأمراء والزعماء والقواد على مبايعته، فاعتلى أريكة الإمارة . ولم يعارضه في ذلك أحد من إخوته أو بني عمومته ، لأنه اشتهر بينهم جميعاً بدماثة الأخلاق ، وحسن السيرة .

وتمت توليته في أوائل ربيع الأول سنة 300 هـ وعمره آنذاك 22 سنة .

جهاده في سبيل الوحدة :

وفي الوقت الذي جلس فيـــه عبد الرحمن الناصر على عرش الإمارة الأموية، كانت الثورات والفتن تعم اسبانيا المسلمة كلها . ولقد تمخض ذلك عن استقلال كل والٍ أو أمير بمقاطعته ، وتخلصوا من التبعيـــة للدولة الأموية التي كانت قاب قوسين أو أدنى من التداعي والانهيار لولا أن تداركها الله بعبد الرحمن الناصر ، الذي تصدى منـــذ اللحظة الأولى لرتق الفتوق ، ولم الشعث ، وقطع دابر المفسدين ومثيري القلاقل والفتن من الأمراء والزعماء الكثيرين . فواتاه الحظ ، وحالفـــه النجاح فيما انبرى له من عمل جبار . وهكذا نشر ألوية السلام والأمن في جميع الربوع الأندلسية ، جنوبها وشرقها وغربها ، بعد جهـــاد عسير ، دام زهاء عشرين سنة منذ توليته ، خصوصاً بعد استيلائه على مدينة طليطلة عاصمة بني حفصون ، الذين كانوا قد تغلبوا على معظم الأقاليم الإسلامية الشرقية ، وأرغموا سكانها على الاعتراف بإمارتهم . وقد ظلت طليطلة خارجة عن طاعة الأمويين مدة 42 سنة تقريباً . وبعد استيلاء عبد الرحمن الناصر عليها لم يبق خارجاً عن سلطته في البلاد إلا أقاليم النصارى في الشمال .

ونشير هنا بصفة خاصة، إلى أن ألد الأعداء وأعظمهم قوة وخطراً، الذين جابههم الناصر هم : عمر بن حفصون وأبناؤه ، ونصارى الشمال، وكلاهما في اسبانيا . ثم الفاطميون الذين أخذ نفوذهم – في النصف الأول من القرن الرابع الهجري – يطغى في مجموع المغرب. فقد وقف بنو حفصون في وجهه ، فاشتبك معهم في عدة حروب كان ينتصر عليهم

في معظمها، رغم ما بذلوه من حول وقوة واصرار، في سبيل القضاء على الدولة الأموية ، والاستئثار بحكم البلاد وحدهم . وتحالفوا من أجل ذلك مع مملكة ليون الواقعة في الشمال ، دون أن يشعروا بتوبيخ ضميرهم على ما في عملهم هذا من عار وشنار وخيانة عظمى للإسلام والعروبة .

وكثيراً ما كان الأمير عبد الرحمن يخرج بنفسه لحرب الأعداء ، ويظهر في قتاله من ضروب الشجاعة والإقدام ، ما يبعث على التقدير والإعجاب .

واشتبك مع أعدائه نصارى الشمال ، الذين كانوا البادئين بالعدوان ، فانتصر عليهم في القتال ، واحتل كثيراً من مدنهم وقلاعهم ، ولم يثنه عن القضاء عليهم نهائياً إلا اضطراره لمواجهة الخطر الذي كان يهدد دولته من الجنوب . ذلك الخطر الذي كان مبعثه الدولة الفاطمية القائمة في إفريقية (تونس) والتي أخذ نفوذها يمتد في مجموع المغرب . وقد حقق انتصارات باهرة أيضاً على الفاطميين ، وأوقفهم عند حدهم .

من أسباب نجاحه :

كان الناصر يتغلب على أعدائه بالقوة تارة ، وبالسياسة والتسامح تارة أخرى . وكان يرحم الذين يتغلب عليهم . وإذا جنحوا للسلم يجنح له، ويعاملهم معاملة كريمة . وكان يعتني بالجرحى سواء من جنده أو من جند أعدائه ، مما يشف عن علو همته ونبل أخلاقه . وكان إذا دخل مدينة أو قرية يحقق فيها إصلاحات هامة ، ويحسن أحوال سكانها، ويثبت دعائم الأمن والعدل بينهم قبل مغادرته ديارهم. ومما يزيدنا تقديراً لشخصية هذا البطل ، أن نصارى الشمال أغاروا على حصن الحنش وفتكوا بحاميته

من المسلمين فتكاً ذريعاً . ورغم أن أهل هذا الحصن كانوا خارجين عن طاعته ، ولا ينفكون يناصبونه العداء ، فإن الغيرة دبّت في نفسه على إخوانه المسلمين ، وصمم على الأخذ بالثأر لهم من النصارى المعتدين. وهكذا سار بجيشه الكثيف إلى أرض الأعداء ، فأحرق زروعهم، وهدم بنيانهم ، وقتل خلقاً عظيماً منهم ، ممن اعترضوا سبيله من غير النساء والشيوخ والأطفال . ثم رجع الجيش إلى قرطبة العاصمة ، محملاً بالغنائم التي لا تحصى .

وبفضل قوة شكيمته في الحرب ، ورحمته بالمغلوبين ، وتسامحه مع التائبين ، وكرمه وغيرته على إخوانه حتى ولو كانوا أعداءه . الى كل ذلك تعزى بعض الأسباب في نجاحه ، ذلك النجاح الباهر ، فيما أحرزه من الانتصارات، حتى اتسع نفوذه في اسبانيا كلها طولاً وعرضاً، باستثناء أقاليم الشمال التي ظلت بأيدي النصارى . وبفضل قوته الحربية وسياسته الحكيمة ، سارع كثير من ملوك أوروبا إلى خطب ودّه ، من اسبان وفرنج (فرنسيين) وألمان وروم وصقالبة وغيرهم .

إعلان نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين :

كان ولاة الأندلس — منذ الفتح — يلقبون فقط بالولاة أو الأمراء، واستمر الحال كذلك بعد تأسيس الدولة الأموية . ولما تولى عبد الرحمن الناصر شؤون الدولة لم يكن في أيامه الأولى يلقب إلا بالأمير ، ولكن عندما رأى أن الخلافة العباسية في الشرق آلت إلى الانهيار، بسبب تدخل العنصر التركي في شؤون بني العباس، حتى أصبح الأتراك يولّون ويعزلون من شاءوا من الخلفاء ، حسبما تمليه رغبتهم وأطماعهم ، وخصوصاً عندما

سمع أن الخليفة المقتدر قتله مولاه مؤنس المظفر ، ثم أضفى على نفسه لقب الخلافة ، واستبد بالأمر سنة سبع وعشرين وثلاثمائة هجرية .

وعندما رأى أيضاً أن الفاطميين في إفريقية (تونس) انتحلوا لقب الخلافة لأنفسهم . لم يجد مانعاً من إعلان نفسه خليفة على المسلمين في اسبانيا ، وأمر أئمة المساجد أن يذيعوا ذلك بين الناس ، فوق المنابر . فكان عبد الرحمن هذا أول من لقب بالخليفة من بني أمية في اسبانيا . وبذلك أصبح هناك ثلاثة خلفاء في العالم الإسلامي : الخليفة العباسي في الشرق ، والخليفة الفاطمي في إفريقية ، والخليفة الأموي في اسبانيا .

وكان الأمراء الأمويون يتعاملون من قبل بنقود من طراز شرقي ، فلما لقب عبد الرحمن نفسه خليفة ضرب نقوداً خاصة بدولته ، وكتب عليها اسمه ولقب الخلافة وتاريخ ومكان ضربها بالأندلس . ويقال بأنه ظل حاملاً للقب أمير الأندلس زهاء سبع وعشرين سنة .

وفاته :

وفي ثالث رمضان سنة 350 ه توفي عبد الرحمن الناصر وعمره 73سنة، بعد ان حكم البلاد أكثر من خمسين سنة ، صرفها في توحيدها، وتوطيد الأمن ، وإقامة العدل ، وتوفير أسباب العيش والرفاهية لشعبه .

الحكم المستنصر (350 – 366 ه)

صفاته وأيامه :

تولى الحكم الثاني الملقب بالمستنصر الخلافة بعد أبيه عبد الرحمن الناصر

وذلك سنة 350 هـ . وقد جمع هذا الخليفة من الصفات الحميدة والسجايا الكريمة التي ورثها عن والده ما جعله في مصاف العظماء . وكان عصره يتسم بالسلام ، إذ لم يحدث فيه من الاضطرابات والقلاقل ما حدث في عهد أبيه ، وذلك لأن قوة والده الشخصية والحربية ظلت عالقة بأذهان الناس ورادعاً لهم من إثارة أي فتنة . ولم يكن ذلك قاصراً على مسلمي اسبانيا وحدهم ، بل تعـدى خوف الدولة إلى نصارى الشمال ، الذين خلدوا إلى الهدوء والسكينة،منذ أن كسر شوكتهم عبد الرحمن الناصر ، وأرغمهم على طلب السلم . وظلوا على هدوئهم حتى بعد تولية المستنصر بمدة .

ولكن النصارى عادوا فمزقوا حجاب السلام الذي كان مخيماً ، حيث غزوا المسلمين المتاخمين لهم ، واستولوا على عدة أقاليـم من أرضهم . فجهز الحكم المستنصر جيشاً قوياً لمحاربتهم . وتمكن الجيش الإسلامي من إجلاء النصارى عن بقاع المسلمين المحتلة ، ولاحقهم في عقـر دارهم فكبدهم خسائر باهظة ، وغنم منهم غنائم تفوق الحصر والتقدير . وأمام ذلك لم يجد العدو مناصاً من طلب الهدنة ، وإقامة عهد السلام بينه وبين المسلمين . فاستجاب الحكم لطلبه ، لأنه كان يفضل — بطبعه — السلم على الحرب ، ولكنه اشترط على العدو أن يهدم الحصون والقلاع التي أقامها على حدود المسلمين باعتبارها مصدر قلق وتهديد لهم،كما اشترط عليه أن يرد جميع الكتب العلمية العربية ، التي سبق أن استولى عليها من خزائن المسلمين .

فهدم النصارى حصونهم تنفيذاً للشروط،وأرجعوا إلى الخليفة الأموي آلافاً من كتب العلم والأدب والفن والحكمة . وهكذا أظهر المستنصر

لأعدائه ما يتحلى به من الشجاعة والإقدام والحنكة السياسية ، وهذا مما دفع بكثير من الممالك الأجنبية إلى ان تخطب وده ، وترغب في صداقته. وكثيراً ما كان الحكم يشارك جيشه في خوض المعارك الحربية ويحقق النصر على أعدائه .

وأرسل الحكم إلى المغرب الأقصى والأوسط جيوشه فاستولت عليهما، وخُطب له على منابرهما ، بعد التخلي عن الخطبة للفاطميين ، كما تمكن من القضاء على دويلة الأدارسة التي كانت قد تأسست بالريف ، من جديد بعد ان قضى عليها آل العافية .

وفاته :

وفي شهر صفر سنة 366 هـ توفي الحكم المستنصر ، بعد أن صرف من عمره في حكم البلاد ست عشرة سنة،أظهر خلالها من الكفاءة والمقدرة ما هو جدير بانتسابه إلى أبيه عبد الرحمن الناصر العظيم . وبعده جاء ابنه هشام،وكان صغير السن لم يتجاوز عمره عشر سنوات . فضعفت الخلافة بالأندلس ، وأصبح أمر الدولة بيد ابن ابي عامر وأبنائه .

الحضارة الإسلامية في عهدي الناصر والمستنصر

تهافتت الممالك الأجنبية على ربط عدة اتصالات سياسية مع عبد الرحمن الناصر في عهده الزاهر ، منها ذلك التحالف الودي الذي ربطه البيزنطيون مع الخليفة الأموي ، وسببه أن الدولة العباسية كانت تعادي كليهما . ومما يبين مدى هذا التحالف بين الدولتين ، أن الأمبراطور قسطنطين

السابع ملك بيزنطة أمر ببناء قبلة لجامع قرطبة العظيم ، وبولغ في صنعها وإتقانها بالفسيفساء المذهب والملون . هذا زيادة على ما قدمه إلى الخليفة الأموي من الأعمدة الرخامية العجيبة ، لتستعمل في بناء مدينة الزهراء .

كما أرسل قسطنطين هذا إلى الناصر الراهب نيكولاس «Nicholas» ليقوم لدى الخليفة المسلم ، بترجمة كتاب الطب من اليونانية إلى اللاتينية الذي كان قد أهداه إياه توثيقاً لعرى الصداقة ، ودعماً لروابط الثقافة بين البلدين . ولما ترجمه نيكولاس ، كلف الخليفة ابن شبروط اليهودي ليقوم بترجمته من اللاتينية إلى العربية ففعل . وكان هذا الكتاب من نفائس كتب الطب في الأندلس .

وأرسل أوتو الأكبر أمبراطور ألمانيا، والذي صار فيما بعد أمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، سفارة إلى عبد الرحمن الناصر ، لإقامة علاقات سياسية وودية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل عقدت عدة علاقات أخرى من هذا القبيل ، بين الناصر وممالك أخرى كمملكة الصقالبة ، ومملكة إيطاليا ، وحكام فرنسا وغيرهم .

وفي عهد ابنه الحكم المستنصر عقدت كثير من العلاقات السياسية أيضاً ، بينه وبين الممالك الأجنبية وكان هذا الخليفة كأبيه ميالاً بطبعه إلى السلم ، والمبالغة في إكرام الوفود الأجنبية التي تحل بقرطبة .

وكانت الحكومة في عهد الخليفتين منظمة غاية التنظيم ، وكان الحاجب يقوم بما يقوم به رئيس الوزراء اليوم ، ويساعده في المهمة وزير آخر . وكان للكتابة شأن عظيم لا يقل عن منصب الوزارة، وكان هناك كتابتان : كتابة الرسائل وكتابة الزمام أو الجهبذة . وكان للقضاء شأن خطير أيضاً ،

ولا يتولاه إلا ذوو العلم الراسخ والسمعة الطيبة . وكان هناك المحتسب أو صاحب السوق ، ومهمتـه أن يراقب الأسواق ، ويحدد الأثمان ، ويفصل في البيع والشراء . ولكثرة الأرزاق ، وحسن التصرف فيهـا كانت الحياة رخيصة جداً .

وفي الناحية الزراعية والصناعية والتجارية ، تقدمت الأندلس تقدمـاً عرموقاً ، فكثرت الحقول المزروعة بأنواع مختلفـة من الحبوب والخضر وأشجار الفواكه والزيتون وغيرها ، وحفرت السواقي ، وأقيمت السدود، وجلب الماء من الجبـال والعيون والآبار ، للسقي والشرب . وقلما كان قصر أو بيت كبير يخلو من حديقة .

ونالت الصناعة حظاً وافراً من التقدم والازدهار، فقد كانت الدكاكين والأسواق مليئة بأنواع من الأواني والآلات ، من ذهبية وفضية ونحاسية وزجاجية وفخارية ، وكذا أنواع الملابس والمنسوجات ذات الطـابع العربـي والأوروبـي والبربري، ناهيك بدكاكين العطور والبخور والأدوية وغيرها .

أما التجارة فراجت رواجاً عظيماً في الداخل ،وبين البلاد والأجانب، وكانت الجبايات والجمارك منظمة ، تضبط بدقة دخل البلاد وخرجها .

أما في الناحية العلمية والفنية والأدبية ، فقد قطعت البلاد شوطاً بعيد المدى في التقدم . كانت مدارس الأندلس ، وبالأخص في قرطبة تعج بالطلاب من كل صوب وحدب ، وكان الحكم المستنصر كأبيه ، شغوفاً بالعـلم والعلماء ، وكان يرسل الرسل من أجل اقتناء الكتب النفيسة في البلدان البعيدة ، ويدفع في سبيلها أموالاً باهظة . وقد استطاع ان يجمع

في خزانته من الكتب أربعمائة ألف كتاب ، وفي وقت لم تكن آلـة الطباعة موجودة فيه . ذلك لأن المستنصر نفسه كان عالماً مطلعاً . وقد دفع في كتاب الأغاني لأبـي الفرج الأصفهاني مبلغ ألف دينار ذهبي . فاقتناه قبل أن يقتنيه غيره .

وأنشأ عبد الرحمن الناصر مصانع لبناء السفن ، ودوراً لضرب نقود خاصة بدولته بعد أن كانت الأندلس تستعمل نقوداً شرقية .

• نقاط التلخيص •

- كانت البلاد قد تفرقت كلمتها ، فعمل الناصر على توحيدها ، وانتصر على أعدائه النصارى ، فحقق لبلاده الأمن والاتحاد.

- من أسباب نجاح الناصر في سياسته وحروبه أنه اتبع سياسة القوة تارة ، واللين والتسامح والكرم تارة أخرى .

- أعلن الناصر نفسه أميراً للمؤمنين منافسة لأعدائه العباسيين والفاطميين. وهكذا أصبح في العالم الإسلامي آنذاك ثلاثة خلفاء: الخليفة الأموي في اسبانيا ، والخليفة الفاطمي في إفريقية ، والخليفة العباسي في الشرق .

- تولى الحكم المستنصر فكان عصره يتسم بالسلام ، إذ لم يحدث في عهده من القلاقل والاضطرابات ما حدث في عهد أبيه ، وذلك لأن هيبة والده ظلت عالقة بأذهان الناس ، فلم يجرؤ أحد على تمزيق حجاب السلام .

- بلغت الحضارة الأموية في الأندلس مبلغاً عظيماً من الرقي والكمال، وبالأخص في عهدي الناصر والمستنصر ، فقد قويت العلاقات بالدول الأجنبية ، وتقدمت البلاد في الزراعة والصناعة والتجارة، وفي الناحية العلمية كثرت المدارس المختلفة . وقد جمع الحكم أربعمائة ألف كتاب في خزانته ، مما يدل على مبلغ تعلقه بالعلم .

اسئلة

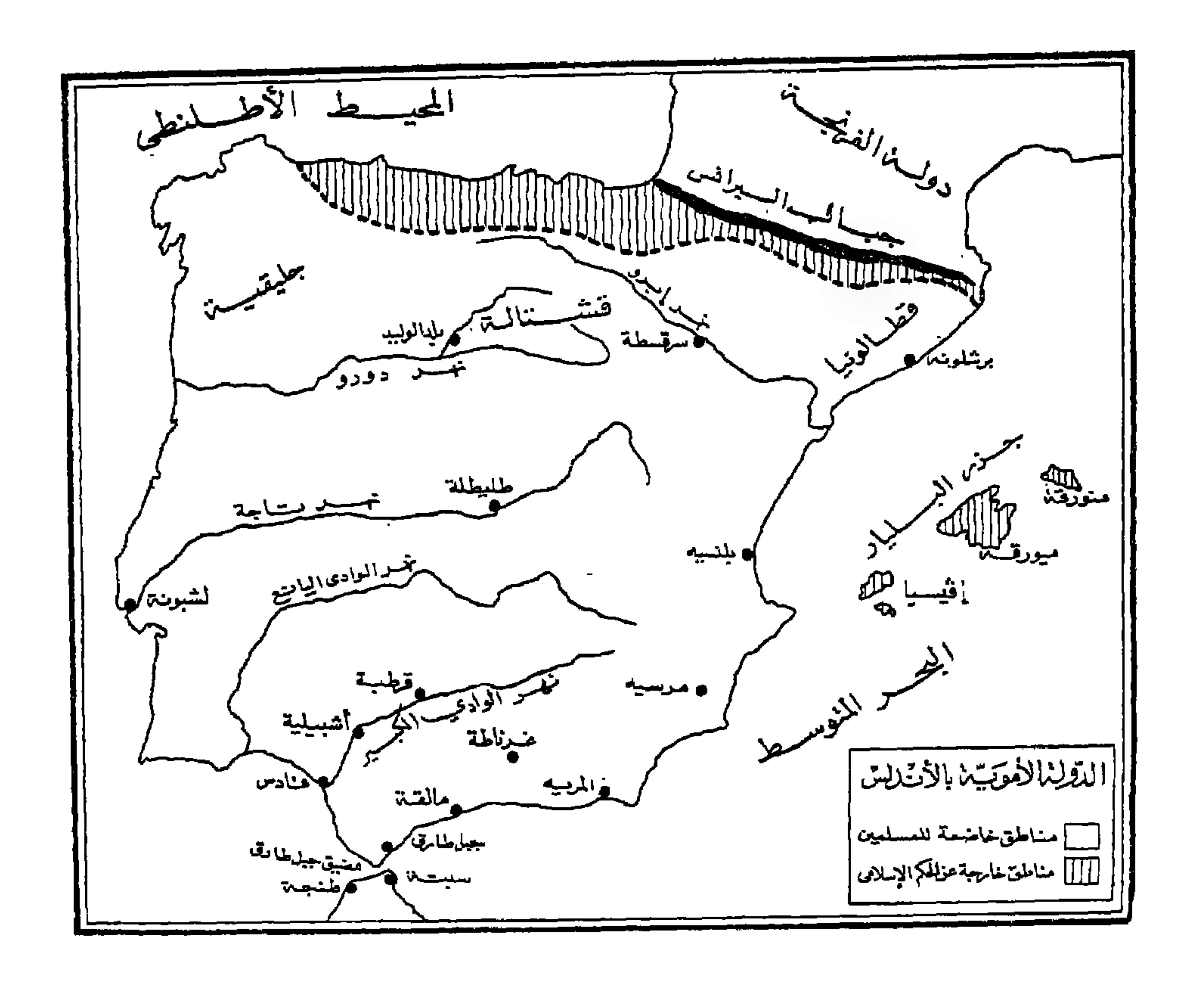
1 – ما الجهود التي بذلها عبد الرحمن الناصر في سبيل توحيد الاندلس ؟

2 – علل أسباب توفيقه في سياسته وحروبه ؟

3 – لقب عبد الرحمن الناصر نفسه بأمير المؤمنين، ما أهمية ذلك ؟ أذكر جملة أعماله الهامة؟

4 – كيف تولى الحكم المستنصر الخلافة ؟ بم امتاز عصره ؟ ما أعماله الحربية ضد النصارى؟

5 – تكلم باسهاب عن الحضارة الإسلامية في الاندلس . خصوصاً في عهدي الناصر والمستنصر؟



الدولة الأموية بالأندلس
مناطق خاضعة للمسلمين
مناطق خارجة عن الحكم الإسلامي
المحيط الأطلنطي
دولة الفرنجة
جبال البرانس
جليقية
قشتالة
بلد الوليد
نهر دورو
نهر ابرو
سرقسطة
قطالونيا
برشلونة
طليطلة
نهر تاجة
لشبونة
نهر الوادي اليانع
بلنسيه
جزر البليار
منورقة
ميورقة
إفيسيا
البحر المتوسط
مرسيه
قرطبة
نهر الوادي الكبير
أشبيلية
غرناطة
قادس
مالقة
المريه
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة

الدرس التاسع :

المغرب بين الفاطميين والامويين

(305 — 428 هـ)

إمارتا : مغراوة وبني يفرن

●

نشأة الدولة الفاطمية

كان أبو عبدالله المحتسب أكبر داعية لمذهب الشيعة في اليمن ، ولما حج في إحدى السنين اتصل في مكة ببعض رجالات قبيلة كتامة ، الذين جاءوا بدورهم لأداء فريضة الحج . واستطاع أبو عبدالله المحتسب أن يسيطر على الحجاج الكتاميين بمواهبه الفذة ، ويوهمهم بأن المهدي المنتظر من آل البيت سيظهر على يدهم ، فيكون لهم بذلك العز والسلطان على كافة المسلمين . وهكذا انخدع الكتاميون بادعائه ، وصحبوه معهم إلى بلادهم ، وجعلوه رئيساً دينياً عليهم ، فنشر بينهم مذهب الشيعة الذي تحمسوا له غاية التحمس .

ولما استقرت الأمور لعبدالله في إفريقية بعد معارك وحروب ، تم له فيها النصر ، استدعى مولاه عبيدالله الملقب بالمهـــدي ، فاستجاب هذا للدعوة وسافر . وما أن علم الخليفة العباسي المقتـــدر آنذاك بذلك حتى ألقى عليه القبض ، ثم تمكن المهدي من الإفلات من يد الخليفة، ولكنه ألقي القبض عليه ثانياً على يد أمير الأغالبة بإفريقيا ، وتمكن أيضاً من الإفلات . وألقي القبض عليه للمرة الثالثة عـــلى يد أمير بـــني مدرار بسجلماسة ، غير أنه استطاع النجاة بنفسه . وهكذا وصل إلى إفريقيـــة بعد مصاعب وأهوال لاقاها في طريقه . وهناك بويع بالخلافة على المسلمين باعتباره المهدي المنتظر ، فكان أول خليفة عبيدي نسبة إلى اسمه ، أو شيعي نسبة إلى المذهب الشيعي ، أو فاطمي نسبة إلى فاطمة الزهراء التي زعم العبيديون أنهم ينتمون اليها .

وكانت لعبيدالله الفاطمي هذا أطماع بعيدة .. إنه لم يكتف بالاستيلاء على إفريقية والمغرب الأوسط ، بل سعى للاستيلاء على المغرب الاقصى أيضاً* . وتم له ما أراد على يد مصالة بن حبوس .

بنو أمية بالأندلس

لقد سبق أن عرفنا نشأة هذه الدولة على يد عبد الرحمن الداخل ، الذي كان من جملة من أفلت من آل أمية من مقصلة العباسيين، عقب القضاء على الدولة الأموية بالمشرق . وأنه وصل إلى تاهرت عاصمة البربر

* إن هذا الخليفة الفاطمي مد سلطانه على مصر أيضاً عقب تأسيس دولته بالقيروان . وانتقل اليها نهائياً واتخذ القاهرة عاصمة لدولته .

بأختنا الجزائر ، حيث لقي من أهلها كل حفاوة وتكريم . وبعد أن استقر بين ظهرانيهم مدة تطلعت نفسه الطّموح إلى الأندلس ، فأرسل مولاه بدراً اليها . فلعبت الصدف دورها العجيب ، حيث دخل عبد الرحمن إلى الأندلس وأسس بها ملكه الأموي .

ولما جاء دور عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لتقلّد مهام البلاد أثبت دعائم الدولة واتسع سلطانه وعظمت أطماعه تبعاً لذلك . فخاض غمار الحروب والمعارك مع دولة الفاطميين من أجل السيطرة على المغرب الأقصى ، الذي كان ضعيفاً مفكك الأوصال آنذاك .

الدولة الزناتية (مغراوة وبنو يفرن)

مغراوة وبنو يفرن قبيلتان بربريتان تنحدران من أصل واحد هو قبيلة زناتة العظيمة ، فهما إذن أختان شقيقتان : ولكنهما عاشتا في تنافس على الزعامة والسلطان ، خصوصاً بعد انقراض آل أبي العافية ، الذين قضوا على دولة الأدارسة وكانوا في أول أمرهم تابعين للفاطميين ، ثم خلعوا طاعتهم وولوها للامويين في الأندلس ، فحاربهم الفاطميون وضيقوا عليهم الخناق حتى هزموهم هزيمة نكراء . ولم يعد لهم بعد ذلك ذكر في ميدان الحكم والسلطان . وظلت الدعوتان الفاطمية والأموية ، تتنازعان وتتحاربان من أجل امتلاك المغرب، وهكذا أصبحت البلاد تعج بالفوضى والاضطراب زمناً طويلاً ، إلى أن قيّض الله لها رجلاً كفؤاً هو زيري ابن عطية من قبيلة مغراوة ، فاستولى على المغرب سنة سبع وسبعين وثلاثمائة . وقد تمسك زيري هذا بالدعوة الأموية ، وقاتل العبيديين في

سبيلها وتغلب عليهم ، وأكرههم على التراجع عن التراب المغربي إلى ما وراء تلمسان .

وكان زيري من أعظم زعماء مغراوة وأشهر أمرائهم فقد كان يتصف بكثير من السجايا الكريمة والخصال الحميدة، كالشجاعة والإقدام والمعرفة والسياسة ، وكان شديد الغـــيرة والإخلاص لمصلحة المغرب والمغاربة . ومن أعماله العظيمة أنه أسس مدينة وجدة سنة 348 هـ ، واتخذها عاصمة لدولته . وعلى الرغم من أنه كان موالياً للأمويين بالأندلس ، فإنه لم يكن مخلصاً لهم كل الإخلاص ، بل كان يداهنهم ريثما تحين الفرصة فيتخلص منهم . واستدعـــاه ذات مرة المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة الاندلسي ، فلبى دعوته ، وحضر إلى قرطبة ، وقدم إليه هدايا مغربية عظيمة ، فأحله المنصور بأجمل قصور الاندلس ، ووسع له في الجرايات ، وبالغ في الحفاوة والترحيب به ، ولقبه بالوزير .

ولكن زيري بن عطية ، عندما رجع إلى المغرب لم يرضه أن يكون تابعاً لصاحب الاندلس ، وهو أمير ذو أبهة وملك وسلطان ، واستقبح لقب الوزير في حقه ، فلما بلغ ذلك المنصور استاء غاية الاستياء، وأعد جيشاً قوياً أرسله إلى المغرب لمحاربة زيري ، فنشبت بين الطرفين معارك طاحنة ، أسفرت نهايتها عن انتصار بني أمية ، واندحار الجيوش المغراوية وموت أميرها البطل زيري ، وذلك سنة 391 .

وبعد موت زيري خلفه ابنه المعز ، فمال هذا إلى مهادنـة الأمويين على أساس قبول طاعتهم ، وتصدى بعد ذلك لمحاربة قبائل صنهاجـــة الحاكمة بالمغرب الأوسط . والتي كانت موالية للفاطميين . وظل زمام الحكم بيد المعز وازدهرت أيامه إلى أن اضطرب حبل بني أمية بالأندلس.

وفي تلك الأثناء توفي المعز وذلك سنة 417 هـ ، فتولى من بعده ابن عمه حمامة . وقد ظل الود والصفاء قائمين بين دولة زناتة المغراوية وبين الأمويين بالأندلس . إلا أن النزاع بقي مستمراً لا ينقطع بين أمراء مغراوة فيما بينهم من جهة ، وبين أبناء عمومتهم بني يفرن من جهة أخرى ، من أجل حكم المغرب .

وكانت كل من القبيلتين : مغراوة وبني يفرن تمتلك جزءاً من المغرب، فكانت لمغراوة فاس وهي عاصمتها ووجدة ونواحيها . وكان لبني يفرن سلا وشالة وتادلة ونواحيها . وكانت شالة عاصمة بني يفرن . وعلى الرغم من ان اليفرنيين تمكنوا مراراً من الاستيلاء على فاس . إلا أن الغلبة كانت دائماً للمغراويين . من أجل ذلك غلب اسم مغراوة على هاته الدولة . كما أطلق عليها اسم الدولة الزناتية . وظلت هذه الدولة المغراوية قائمة في المغرب من تاريخ انقراض الدولة الإدريسية إلى ظهور الدولة المرابطية، التي كانت السبب في القضاء عليها وعلى شقيقتها دويلة بني يفرن .

ولم تكن لا دولة مغراوة ولا دولة بني يفرن تتمتعان بالاستقلال التام في المغرب . فقد كانتا تخضعان تارة للفاطميين وتارة للأمويين . وقد ابتدأ الصراع بين الأمويين والفاطميين منذ سنة 305 هـ ولم ينته إلا في سنة 369 هـ .

ولما انقضى عهد الأمويين في الأندلس ، قامت على أنقاضها دويلات كثيرة يُعرف أصحابها بملوك الطوائف . أما في المغرب فكانت الدولة القائمة آنذاك هي دولة زناتة المغراوية ، التي كانت في نظر المغاربة هي دولتهم الشرعية . هذا بالرغم من أنها لم تتمكن من الاستيلاء على جميع

المغرب . وسقطت الدولة الأموية والمتربع على عرش المغــرب في ذلك الوقت هو حمامة المغراوي ، الذي ظل يحكم دولته مدة أربع عشرة سنة تقريباً . وقد سمى هذا الأمير نفسه فيما بعد ملكاً على المغرب . وعاش مستقلاً ، فازدهرت أيامه بعض الازدهار ، حيث قصدتـه الوفود ، ومدحه الشعراء . وبعد وفاته سنة 431 ﻫ تربع على ملك المغرب ابنــه دوناس بن حمامة . وظل هذا ملكاً مهاب الجانب ، متوفر النشاط في أعماله من أجل ازدهار دولته لمدة واحد وعشرين سنة . وكانت أيامه بصفة عامة متقدمة ، فقد زيد خلالها في مدينة فاس ، وشيدت القصور الفخمة ، وراجت التجارة والصناعة،واعتني بالزراعة وتخطيط البساتين .

وبعد موت دوناس سنة 452 ﻫ تولى شؤون الدولة ابنه الفتوح،الذي ظل في الحكم مدة ثلاث سنوات ، اشتبك خلالها مع أخيــه عجيسة في عدة حــروب مهولة داخــل فاس . وكان الفتوح مستولياً على عدوة الأندلس ، وعجيسة بعدوة القرويين . وانتهت المعارك بــين الأخوين بانتصار الفتوح . ومـــا زالت إلى يومنا بفاس باب تسمى بباب الفتوح نسبة إلى الأمير الفتوح ، وباب أخرى تسمى بباب العجيسة ، نسبة إلى أخيه الأمير عجيسة .

ولما برز المرابطون في الميدان سنة 455 حاربوا الفتوح حرباً شعواء . فقاومهم هذا الأمير المغراوي مقاومة الأبطال ، ولما أحس بالعجز عن صدهم ، تنازل لابن عمه معنصر بن حماد عن إمارته ، فقاتل هــذا المرابطين بشجاعة نادرة ، حتى سقط صريعاً في المعارك سنة 460 ﻫ ، وبذلك انقضى عهد الدولة المغراوية ، وإن ظل بعض زعمائها يقاومون المرابطين فترة أخرى مقاومة يائسة .

أطوار دويلة اليفرنيين

ظلت إمارة يفرن في هذا العصر محتفظة باستقلالها منتهزة الفرص لمحاربة مغراوة بني عمومتها ، ولكن المرابطين في النهاية قضوا عليها ، كما سبق أن قضوا على المغراويين .

وكان بنو يفرن من الموالين للدولة الأموية أيضاً ، حتى إن المسمى يعلي بن محمد اليفرني أعلن سنة 347 هـ أنه خليفة الناصر الأموي على بلاد المغرب ، ووقف في وجه الفاطميين ، وقاتل جوهر الصقلي الذي استولى على المغرب كله سنة 349 هـ وقتل فيه عدداً لا يحصى من المغاربة. وكانت النتيجة أن استطاع الأمير اليفرني يعلى أن يتغلب على قائد الفاطميين العظيم ، وأرغمه على الانسحاب من المغرب .

وفي سنة 373 هـ ثار اليفرنيون على الأمويين وانضموا إلى الحسن بن كنون الإدريسي ، الذي قدم من مصر ، لاستعادة دولة الأدارسة ، التي انقرضت في المغرب . وكان أمير اليفرنيين في هذا الوقت هو يدّو بن يعلى ، فبعث اليه المنصور بن أبي عامر جيشاً قوياً وحاربه ، وانحازت قبائل مغراوة الى الأمويين ضد الحسن الإدريسي ، وضد بني يفرن الذين يحاربون من أجله ، وهكذا انهزم اليفرنيون وصاحبهم الإدريسي انهزاماً منكراً ، ولجأوا بعد ذلك الى سلا وشالة ، ثم استولوا فيما بعد على تادلة ونواحيها ، وهناك كوّنوا لهم دويلة واتخذوا من شالة قاعدة لملكهم .

وفي سنة 424 هـ خرجت جيوش بني يفرن تحت قيادة أميرهم الكمال تميم من سلالة وشالة . وتوجهت إلى فاس وحاربت دولة مغراوة التي

كانت تحت إمرة ملكها حمامة،فانتصرت الجيوش اليفرنية على المغراوين، واستولت على فاس ، وما كان تحت سيطرة المغراويـــين من النواحي المحيطة بها . فاضطر حمامة أن يلجأ مع فاول جيشه إلى مدينة وجدة ، وهناك استعد من جديد ، وكرّ راجعاً إلى فاس سنة 429 ﻫ فقاتل أبا الكمال اليفرني ، وتغلب عليه ، وأخرجه من مدينـة فاس ، فكان أن عاد اليفرنيون من حيث أتوا .

وفي سنة 449 ﻫ توفي أمير اليفرنيين المسمى أبا الكمال وخلفه غيره من الزعماء . وبقيت هذه الدويلة عائشة تقوم تارة وتكبو أخرى ، الى أن قضى عليها المرابطون كما أسلفنا .

المغرب تحت السيطرة الفاطمية والأموية

يمكننا أن نحصر تغلب كل من الفاطميين والأمويين الأندلسيين على المغرب فيما يأتي : في سنة 305 ﻫ تقدم مصالة بن حبوس إلى المغرب واستولى عليه باسم الفاطميين . وفي سنـة 323 ﻫ انطلق المسمى منصور الخصي قائد الفاطميين وأخضع المغرب لدولته ، بعد أن خاض معارك عظيمة ضد الزناتيين وأمويي الأندلس ، وحقق عليهم الانتصار الحاسم. وفي سنة 349 ﻫ تقدم جوهر بن عبدالله إلى المغرب واحتله كله . وفي سنة 362 ﻫ توجه بلكين بن زيري الصنهاجي شطر المغرب واستولى عليه باسم الفاطميين ، بعد اشتباكه مع الزناتيين والأمويين في عدة حروب . ولكن احتلاله للمغرب لم يدم طويلاً . فإن المغاربة تخلصوا من تبعيتهم للفاطميين وأعلنوا موالاتهم للأمويين . ورجع منصور الفاطمي لمحاربـة

المغاربة سنة 369 هـ ووصلت جيوشه إلى تطوان ، التي كانت عبارة عن حصن صغير آنذاك . وتقدمت إلى نواحي سبتة . فما أن علم منصور بكثرة الجيوش الأندلسية والمغربية المنتظرة مجيئه في سبتة ، حتى خفّ بالرجوع لأنه أدرك أن لا قدرة له على مواجهتها بجيشه القليل العدد بالنسبة للجيوش التي بسبتة . وهكذا أصبح النفوذ الأموي هو القائم في المغرب .

وقد استولى الأمويون بدورهم على المغرب سنة 364 هـ بقيادة غالب الذي وجّهه الحكم المستنصر، وذلك بعد أن خاض الحروب مع الفاطميين على الأرض المغربية وتمكن من طردهم إلى المغرب الأوسط .

• نقاط التلخيص •

- الفاطميون شيعيون ينتسبون إلى فاطمة الزهراء حسب زعمهم. وكان أول من بويع بالخلافة منهم هو عبيدالله الملقب بالمهدي . وكان لهذا أطماع في التوسع .
- قام النزاع بين الفاطميين والأمويين بالأندلس على امتلاك المغرب. كل منهما أراد أن يخضعه لسيطرته . وهكذا ظل المغرب طعمة سائغة مدة من الزمان ، يتناوب التهامه الطرفان المتنازعان .
- مغراوة وبنو يفرن قبيلتان من صلب واحد هو زناتة العظيمة . وكانت هاتان القبيلتان في نزاع دائم على الرئاسة وحكم المغرب .
- كانت مغراوة وبنو يفرن تواليان خضوعهما إلى الفاطميين تارة ، وإلى أمويي الأندلس تارة أخرى . ولذا لم تكونا مستقلتين الاستقلال التام في غالب الأحيان .
- من قواد الفاطميين الذين استولوا على المغرب: مصالة بن حبوس، ومنصور الحصي وجوهر بن عبدالله . ومن قواد الأمويين: غالب الموجه من قبل الحكم المستنصر ، والذي تمكن من طرد الفاطميين من المغرب .

أسئلة

1 – كيف نشأت الدولة الفاطمية ؟

2 – ماذا تعرف عن دولتي مغراوة وبني يفرن ؟

3 – كم استمر الصراع بين الفاطميين والامويين على امتلاك المغرب في العهد الزناتي ؟ علل أسباب ضعف المغرب في ذلك العهد .

4 – ما العصر الذي خلف بني أمية في الاندلس ؟ أذكر ما تعرفه عنه .

5 – في أي سنة قضى المرابطون على كل من دولة مغراوة ودولة بني يفرن؟ما رأيك في ذلك؟

الدرس العاشر :

سقوط دولة بني أمية في الاندلس

●

مالت الدولة الأموية في الأندلس إلى الضعف عندما تولى أمرها هشام الثاني الملقب بالمؤيد الذي لم يتجاوز عمره عشر سنوات ، ولكن « صبحاً » أم الخليفة أسندت منصب الحجابة إلى المنصور بن أبي عامر، ورغم أن هذا استبد بالحكم لدرجة أن الخليفة الشرعي أصبح عبارة عن دمية تحركها يده كيف شاءت — رغم ذلك فإن لهذا الحاجب الفضل في تثبيت دعائم الملك الأموي الذي كان متداعي البنيان . وتمكن هذا البطل من توطيد الأمن وتحسين أحوال الناس ، وراجت في أيامه سوق العلم والأدب .

ولم يكتف ابن أبي عامر بما أحرزه في الأندلس من نصر في حروبه، وتوفيق في سياسته ، بل عمل على إخضاع المغرب أيضاً لسيطرته، وتمكن من ذلك فعلاً ،فقد دانت له دولة زناتة ، التي كانت قائمة في المغرب آنذاك . ولكن كان هناك عدو قوي آخر ينازع بني أمية سلطانهم على

المغرب ، ويهدد كيان دولتهم في الأندلس . وهذا العدو هو الفاطميون، أصحاب إفريقية . وقد ظل المغرب طعمة سائغة للفاطميين والأمويين في العهـــد الزناتي . ومات ابن أبـي عامر سنة 393 هـ ، بعد أن دام في الحكم سبعاً وعشرين سنة حقق فيها أعمالاً جليلة لبني أمية في الأندلس . وكانت وفاته في إحدى معاركه ضد نصارى الشمال ، فتولى بعده أمر الحجابة ابنه أبو مروان عبد الملك فاستبد بالحكم كأبيـه . وكانت أيامه « أعياداً في الخصب والأمان دامت سبع سنين إلى أن مـات » ، فتولى منصب الحجابة من بعده أخوه عبد الرحمن الذي لقب نفسه بالناصر وولي العهد ، وهكذا خلط هذا بين منصبه كحاجب وبين شؤون تخص الخليفة وآله . وقد دام في حكمـــه أربعة أشهر حيث قام ضده سنة 399 هـ محمد بن هشام الملقب بالمهدي بمؤازرة الجنود البربريـــة ، فعزله من منصبه ولكن الجنود تسلمته وقتلته ، كما نحي عن منصب الخلافـة هشام الثاني، المؤيد .

غير أن الخليفـــة الجديد « المهدي » ثار عليه رجل أموي آخر هو هشام بن سليمان وأخوه أبو بكر بمعاونة الجيوش البربرية ، فتقابل المهدي مع الأخوين ، واستطاع التغلب عليهما وقتلهما . فاجتمع البربر بعد ذلك وبايعوا سليمان ابن أخ أحد المقتولين ، ولقبوه بالمستعين ، وطلب هذا معونة النصارى فلبي طلبه.. وهكذا تقدم المستعين بجيوشه البربرية والجيوش النصرانية . وما أن اصطدم جيش المستعين بجيش المهدي حتى حلت بهذا الأخير الهزيمة ، فدخل المستعين قرطبة سنة 400 هـ .

ولما انهزم المهدي تلك الهزيمة المنكرة استنجد بدوره بالنصارى، فتمكن بمساعدتهم من التغلب على خصمه..وأمام ذلك اضطر المستعين الى ان يترك

العاصمة هو وجنده من البربر . ولم يكتف المهدي بما أحرزه من الانتصار عليه بل تتبعه ، فكانت النتيجة أن كر عليه عدوه وألحق به الهزيمة ، وتتبعه كذلك إلى أن تمكن من دخول قرطبة للمرة الثانية سنة 403 هـ .

وآنذاك لجأ المهدي إلى استعمال الحيلة فأخرج الخليفة هشاماً المؤيد من سجنه ، وكان قد عزله من قبل وسجنه واعتلى عرشه — أخرجه من سجنه ثم بايعه بالخلافة ونصب نفسه حاجباً له . فعل كل ذلك أملاً في اكتساب عطف الأهالي . إلا أنه حصل عكس ما تمناه ، إذ ثار عليه الناس في قرطبة وقتلوه شر قتلة . ولما خلا الجو للمستعين في العاصمة قتل هشاماً المؤيد ، منافسه على كرسي الخلافة سراً ، وجلس هو على عرشه مدة أربع سنوات ، استقلت خلالها كثير من أقاليم اسبانيا، حيث تكونت فيها إمارات ودويلات .

ثم استولى علي بن حمود الإدريسي صاحب سبتة على مدينة قرطبة سنة 427 هـ وبايعه أهلها على طاعة هشام المؤيد ، الذي كانوا يظنون أنه ما يزال حياً . وألقى علي القبض على المستعين وقتله،بعد ان اعترف بقتل هشام المؤيد الخليفة الشرعي للبلاد . فأصبح علي بن حمود منذ ذلك الوقت حاكم البلاد الاسبانية . وظل كذلك حتى قتل في إحدى حروبه .

ولما مات علي بن حمود تولى أخوه القاسم ملك الأندلس ولقب نفسه بالمأمون ، ولكن ايامه كانت قصيرة ، لأن ابن اخيه أمير سبتة يحيى الملقب بالمعتلي أعلن الحرب عليه سنة 413 هـ . وأمام قوات المعتلي الكثيرة لم يجد القاسم بدأ من الفرار إلى اشبيلية . وهناك بايعه القاضي أبو القاسم محمد بن عباد وكثير من البربر .

وحين فر القاسم من قرطبة اجتمع الأهالي وقرروا إحياء الخلافة الأموية،

فبايعوا عبد الرحمن الملقب بالمستظهر بالله سنة 414 هـ ، ولكنه لم يدم في الخلافة أكثر من شهر وسبعة عشر يوماً ثم قتل . فبويع بعده محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفي بالله،وقد دام هذا في الخلافة ستة عشر شهراً. ثم ثار عليه سكان قرطبة وخلعوه سنة 416 هـ لأنه لم يهتم في حياته إلا بشؤون نفسه ، ورجعوا إلى الاعتراف بسلطان الحموديين عليهم، فبايعوا يحيى الحمودي الملقب بالمعتلي بالله ، ولكنه فضل ان يظل مقيماً في مالقة وجعل نائباً له على قرطبة .

وفي سنة 418 هـ عاد الملك لبني أمية حيث بايع الناس هشاماً الثالث الملقب بالمعتمد بالله ، ولكن عهده كان مليئاً بالفواجع والفتن ، فخلعه أهل قرطبة سنة 422هـ..وبذلك انقضى نهائياً عهد بني أمية في الأندلس، وعادت الأمور إلى الأسرة الحمودية التي حكمت البلاد زهاء أربعين سنة منذ عهدهم الأول بقرطبة .

أسباب السقوط

علمنا سابقاً ان الضعف دب في جسم الدولة الأموية منذ تولي هشام الثاني المؤيد منصب الخلافــة وهو صغير السن ، لم يتجاوز عمره يوم مبايعته العاشرة، وأن أمه صبحا هي التي أضحت المتصرفــة في الشؤون وكان من لطف الله أن عينت المنصور ابن أبي عامر حاجباً لابنها ، فأقال هذا الرجل الكفء الدولة من كبوتها وقوى دعائمها ، بعد ان كانت قاب قوسين أو أدنى من السقوط . ولما مات المنصور توارث أبناؤه منصبه . ولكن الدولة بعد أبيهم العظيم أصبحت تسير في طريق التداعي والانهيار والزوال المحتوم.

ولم يكن خلفاء ابن أبي عامر هم وحدهم السبب في ضعف الدولة. فإن للخلفاء الأمويين الضعاف الذين تعاقبوا على كرسي الخلافة اليد الطولى والقدح المعلى في التعجيل بسقوط دولتهم . فقد كان ضعفهم الشخصي ، وقلة حنكتهم السياسية ، وميلهم إلى اللهو والعبث ، وإنفاقهم أموال الشعب في بناء القصور الفخمة والمآكل والمشارب والملابس ، وغيرها ، ثم ظلم الكثيرين منهم ومن ولاتهم للرعية ، ثم تلك الأحقاد الطائفية التي نشأت من النعرة القبلية والتي أدت إلي تعصب العرب ضد البربر ، وتعصب هؤلاء ضد أولئك ، والقيسي العربي ضد المضري العربي ، وقيام الحروب الأهلية نتيجة لذلك كله ، ثم انعدام الأمن وقلة الحاجيات ، وغلاء المعيشة ، على الرغم من غنى البلاد ووفرة المال ، كل هذه الأسباب وغيرها من العوامل هي التي أدت إلى ضعف الدولة الأموية ضعفاً خطيراً أودى بحياتها في النهاية .

ملوك الطوائف

عقب سقوط الدولة الأموية العظيمة بالأندلس تكونت في البلاد عدة إمارات ودويلات عُرف أصحابها بملوك الطوائف . وكان أعظمها قوة وشأناً أربع دويلات . أما باقي الدويلات والإمارات الصغيرة فكانت تابعة أو متحالفة مع الكبرى التي هي : 1) دويلة الأدارسة أو بني حمود في مالقة والجزيرة في جنوبي اسبانيا . 2) دويلة بني عباد في اشبيلية . 3) دويلة بني ذي النون في طليطلة . 4) دويلة بني عامر في بلينسية .

1 ـ دويلة بني حمود (الأدارسة) :

يرجع نسب أصحاب هذه الدويلة الطائفية باسبانيا إلى أدارسة المغرب، الذين تعاون في القضاء عليهم بالمغرب كل من أمويـي الأندلس، وفاطمي إفريقية . وبعد القضاء على دولتهم عاش بعض آل إدريس في انعزال تام ، في المغرب ومصر واسبانيا . وما أن حصلت الفتنة بين المسلمين بالأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي حتى أسند البربر والعرب قيادتهم لعلي بن حمود الإدريسي حاكم سبتـة . وكان لهذا أخ يسمى أبا القاسم ابن حمود بالجزيرة ومالقة . وكان الخليفة المؤيد الأموي قد ولاه حكمها من قبله .

وفي سنة 407 هـ بويع علي بن حمود هذا بالخلافة على اسبانيا المسلمة، وتلقب بالمتوكل على الله. ولما مات تولى الأمر من بعده أخوه أبو القاسم، وحصلت الفتنة في عهده ، ففقد بنو حمود الخلافة على البلاد . واسترد الأمويون خلافتهم لمدة يسيرة . ثم تغلب ابن أخيه المسمى يحيى عـلى الأمويين ، فعادت الخلافة إلى الحموديين ثانيةً ، ولكن ابن عباد والي اشبيلية ثار عليه ، ووقعت بينهما معارك طاحنة قتل في أثنائها يحيى، فتولى من بعده أخوه إدريس ، الذي حكم مالقة والجزيرة وبعض ثغور المغرب المقابلة .

وهكذا تعاقب الحموديون على عرش مملكتهم هذه حتى قويت دويلة العباديين باشبيلية فقضت عليهم نهائياً سنة 452 هـ . وكانت الدسيسة التي نفثها الإشبيليون بين صفوف الحموديين في اسبانيا ، هي العامل لأكبر في التعجيل بنهاية دويلتهم .

2 – دويلة بني عباد في اشبيلية :

ينتسب بنو عباد أصحاب اشبيلية في العهد الطائفي إلى أصل شامي . وقدمت أسرتهم إلى الأندلس في أواسط القرن الثامن الميلادي . فلما حصلت الفتنة في البلاد بسبب قيام الحروب الأهلية ، ونتج عن ذلك سقوط الدولة الأموية ، وفرار آخر خلفائها من قرطبة هشام الثالث ، كان أول من أعلن الثورة واستولى على اشبيلية ونصب نفسه حاكماً مستقلاً عليها هو محمد بن عباد سنة 413 ه . وذلك بمساعدة طائفة من أصدقائه المخلصين ، الذين منحهم الأراضي تقديراً لجميلهم،على أساس جزية يدفعونها . وهكذا كان بنو عباد أول من افتتحوا عهد التفرقة والطائفية في الأندلس .

وكان محمد بن عباد هذا صديقاً للحموديين ، ولكنه انقلب عليهم وعاداهم وتطاول عليهم . فنتج عن ذلك نشوب حرب بين الفريقين ، قُربَ اشبيلية ، دارت الدائرة فيها على يحيى الخليفة الحمودي ، حيث قتل وانهزم جيشه . وما أن شرع محمد بن عباد في الاستعداد لمتابعة الحرب ضد الحموديين في عقر دارهم حتى وافاه الأجل سنة 439ه. فتولى من بعده على اشبيلية ولده أبو عمرو الذي تلقب بالمعتضد بالله .

وقد اشتهر هذا بذكائه وجمال قوامه وحسن هندامه مما جعله هدفاً لقريض الشعراء ، وحديث السمار من الرجال والنساء . ولكنه كان أيضاً قاسياً في تصرفاته مع خاصته ورعيته ، متلهفاً على جمع الأموال وإنفاقها في بناء القصور الشامخة ، وإقامة الليالي الحمراء ، التي تكثر فيها معاقرة الخمر ، ومجالسة النساء ، وسماع الطرب والغناء . ولم يكن يهتم بالدين

أو يقيم وزناً للمروءة ، فلم يبن مساجد ، ولا عني برعيته التي أفقرها من جراء ما سلبه منها من أموال . ولا راعى إلاّ ولا ذمة في الكثير من رجاله الذين بطش بهم ، وعلق جماجمهم محلاة بالأحجار الكريمة في ردهات قصره . وهكذا كان هذا الأمير الماجن صورة من الشيطان .

وقد سعى إلى بسط سلطانه على جيرانه من الأمراء الآخرين ، وسلك لتحقيق ذلك سبيل الغدر والخديعة،وكان اهتمامه الأكبر موجهاً نحو الحموديين باعتبارهم خطراً على دويلته . وقد تمكن في النهاية من القضاء عليهم كما علمت .

3 — بنو ذي النون في طليطلة :

يرجح أن أول أمير حكم طليطلة من أسرة بني ذي النون في العهد الطائفي هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر . وتنحدر هذه الأسرة من أصل بربري . وقد تلقب إسماعيل هذا بالظافر ، وأسس دويلته سنة 427 هـ . وقد دعاه جِهْوَر ، الذي كان قد استولى على قرطبة بعد فرار آخر خليفة أموي منها،إلى مبايعته ، فسخر إسماعيل من دعوته في جملة من سخر منها من الأمراء والملوك الآخرين ، الذين دعاهم جِهْوَر الى ذلك .

فكانت النتيجة أن حصلت بينهما حروب ، كاد اسماعيل أن ينتصر فيها على خصمه لولا أنه اضطر إلى التخلي عن محاربته ، لمواجهة قوات قشتالة وليون ، التي ما فتئت تهاجم أراضي طليطلة . ولما شعر بضعفه عن رد الأعداء ، اضطر إلى مهادنتهم على أساس دفع الجزية لهم .

وبناء على ذلك اعتمد بنو ذي النون على مساعدة النصارى ، ومساعدة بني عامر أصحاب بلينسية في محاربة قرطبة التي يحكمها الجهْوَرِيُون .

4 — بنو عامر في بلينسية :

كان خلفاء المنصور بن أبي عامر سبباً من الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية العظيمة ، وذلك نتيجة لاستبداد بعضهم من جهة، وضعف آخرين منهم من جهة ثانية . وبعد انتهاء العهد الأموي تفرق آل عامر في البلاد ، ومالوا إلى نصرة بقايا الأسرة الأموية .

ومنـــذ سنة 413 هـ على الأرجح ، كان يحكم منهم بلينسية الأمير أبو الحسن عبد العزيز المغافري حفيد المنصور العامري ، وكان له حلفاء كثيرون ، أشهرهم التجيبيون ، ثم بنو هود أصحاب سرقسطة . وكان هؤلاء يعتمدون على مؤازرة بلينسية في حروبهم ضد النصارى المتاخمين لهم.

5 — الحركة العلمية والأدبية في العهد الطائفي :

رغم انقسام اسبانيا المسلمة إلى إمارات ودويلات متعددة ، ورغم ما كان ينشب بينها من قتال مر ، من أجل سيادة بعضها على بعض— بالرغم من كل ذلك فإن سوق العلم والأدب كانت رائجة رواجــاً كبيراً . فبعد أن كان النشاط العلمي والأدبي في العهد الأموي يكاد يقتصر على قرطبة ، أصبح في عهد ملوك الطوائف منتشراً في كثـــير من مدن اسبانيا الأخرى ، وأخذت كل دويلة من الدويلات المتعددة ، تنافس غيرها في بناء المدارس، وتشجيع العلم والأدب والشعر ، لتحوز قصب السبق في هـــذا المضمار . وهكـــذا تقدمت الحياة العلمية

تقدمـاً عظيماً ، وبرز علماء فطاحل في العـلم والأدب والشعر والطب والفلسفة وغيرها .

وهكذا نجد أن انقسام البلاد ونشوب الحروب بين أقاليمها، لم يوقف الحركة الثقافية ، بل ان ذلك التخبط في العمل السياسي وفي دياجير الفتن زادها اتقاداً وقوة وازدهاراً .

نقاط التلخيص

- بعد موت المنصور بن أبي عامر آلت الدولة الأموية إلى السقوط. ولما انتهى أمرها حل محلها بنو حمود الإدريسيون الذين ظلوا في الحكم زهاء أربعين سنة .
- كان ضعف أبناء ابن أبي عامر الذين تعاقبوا بعده على منصب الحجابة من جهة ، وميل الخلفاء الأمويين إلى اللهو والعبث في عهدهم ، وإنفاقهم أموال الشعب في بناء القصور والتلذذ بشهي الطعام والشراب ولبس الملابس الفاخرة، ثم طغيان ولاتهم وظلمهم للرعية — كان كل ذلك من أسباب سقوط الدولة الأموية .
- تكونت على أنقاض الدولة الأموية دويلات متعددة أشهرها بنو حمود في مالقة ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو عامر في بلينسية . أما باقي الدويلات والإمارات، فإنها كانت تابعة للمتقدم ذكرها ، أو متحالفة معها .
- كانت الحرب لا تنقطع بين ملوك الطوائف ، وكثيراً ما كانت الواحدة منها تستعين بالنصارى أعداء الإسلام .
- رغم ما كان يسود اسبانيا في العهد الطائفي من ضعف سياسي ، فقد ظلت الحركة الثقافية في تقدم وازدهار .

أسئلة

1 — ماذا كانت النتيجة بعد موت المنصور بن أبي عامر ؟

2 — أذكر ما تعرفه عن بني حمود الإدريسيين . كيف تولوا الحكم بعد الامويين ؟كم ظلوا يحكمون الاندلس ؟

3 — ما أسباب سقوط الدولة الاموية ؟

4 — تكلم بايجاز عن دويلات : بني عباد في اشبيلية ، وبني ذي النون في طليطلة وبني عامر في بلنسية .

5 — حدثنا عما تعرفه عن الحركة العلمية والادبية في العهد الطائفي . هل أثر الانحطاط السياسي في الحركة الثقافية ؟ لم ؟

الدرس الحادي عشر :

المرابطون

(462 — 541 هـ)

يوسف بن تاشفين — بناء مدينة مراكش

●

أصل المرابطين وظهورهم

ينتمي المرابطون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، وكانوا يعيشون في الصحراء الكبرى جنوب المغرب. وقد سموا بالملثمين لانهم كانوا يضعون خُمُراً على وجوههم نساء ورجالا اتقـاء من حرارة الصحراء اللافحة ، كما سموا بالمرابطين لأنهم اجتمعوا أول الأمر ، وتكوّنـوا في الرباط الذي كان فيه عبدالله بن ياسين يعبد الله .

وكانوا قبل إسلامهم على دين المجوسية شأن معظم برابرة المغرب . وامتازت فخذة منهم ، وهي لمتونة عن باقيهم بالرئاسـة فيهم والسيادة عليهم ، خصوصاً بعد إسلامهم . وكانت لهم حروب طويلة مع غيرهم من قبائل البربر وأمم السودان ، حتى تمكنوا من تدويخ بلاد الصحراء ،

وحمل سكان السودان على الإسلام،وإرغام – من بقي منهم على دينهم– على دفع الجزية . ثم تفرقوا إلى إمارات ورؤساء عدة ، وظلوا كذلك مدة مائة وعشرين سنة ، إلى أن ظهر فيهم أبو عبدالله محمد بن تيفاوت اللمتوني ، وكان من رجال الدين والعلم والفضل ، فالتف الناس حوله، وظل يدير شؤونهم ويواصل الحرب ضد أعدائه مدة ثلاث سنوات إلى أن مات .

وبعد ذلك خلفه في الرئاسة عـلى صنهاجة المغرب الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي ، فظل هذا يسوسهم بالحكمة ويواصل الحرب – بكل حزم ونشاط – ضد أعدائه إلى أن دخلت سنة سبع وعشرين وأربعمائة من الهجرة ، فأزمع على الرحيل إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وقبـل ذهابه عين خلفاً له ابنه إبراهيم بن يحيى .

أدى الأمير يحيى مناسك الحج وقفل راجعاً إلى بلاده ، وأثناء عودته حضر في مدينة القيروان درساً دينياً للشيخ أبـي عمران الفاسي ، فتأثر الأمير بوعظه ، رغم أنه كان كقومه يجهل فروض الإسلام تماماً . ثم طلب من الشيخ الواعظ أن يبعث معه إلى بلاده من تلامذته من يفقّـه قومه في دين الله ، فطمع الشيخ الوقور في حسن الثواب مـن الله ، وعرض على طلابه رغبة الأمير ، ولكنهم جميعاً استصعبوا الذهاب إلى الصحراء ، خوفاً من حرارتها اللافحة صيفاً ، وبرودتها القارصة شتاء ، وخلوها من مظاهر التمدن ، والفتنة .

فكتب أبو عمران رسالة سلمها إلى أمير الصحراء ليحملها إلى أحد تلاميذه القدامى بالسوس الأقصى ، واسمه الفقيه أبو محمد واجاج بن زلو اللمطي ، لينتدب بدوره تلميذاً من تلاميذه يصحب الأمير اللمتوني إلى

الصحراء . وكان واجاج هذا من أهل العلم والخير ، تتلمذ على الشيخ أبي عمران في القيروان . ثم ارتحل إلى السوس الأقصى ، وبنى له داراً سماها دار المرابطين لتلامذة العلم خاصة . وكان النـــاس يقدرون فضله ورسوخه في العلم ، ويتبركون به .

عبدالله بن ياسين في الميدان

فلما سلـّم الأمير يحيى الرسالة إلى صاحبها أسرع بجمع تلاميذه . وما أن قرأ عليهم نص الرسالة حتى انبرى التلميذ عبدالله بن ياسين الجزولي، وأعلن موافقته على مصاحبة الأمير إلى الصحراء . وكان عبدالله هـــذا شعلة من الذكاء والنشاط والمعرفة ، وغاية في الورع والاستقامة والتدين.

وما أن رحل الفقيه ابن ياسين مع أمير صنهاجة إلى الصحراء ، حتى شرع في تعليم الناس أمور دينهـــم ، التي لم يكونوا يعرفون منها إلا الشهادتين ، ولكنهم استصعبوا ما يأمرهم باتباعه ، فانفضوا من حوله . وآنذاك قرّ رأي عبدالله والأمير يحيى ونفر قليل ، أن ينعزلوا في جزيرة لعبادة الله ، زهداً في الدنيا، وطلباً للجنة ، التي أعدت للمتقين . وفي الجزيرة التي اختارها ابن ياسين وصحبه للعبادة ، ابتنى مكانـاً في غاية البساطة ، وشرعوا جميعاً في عبادة الله . ولم تمض إلا أشهر قلائل ، حتى تسامع الناس بأمر ابن ياسين وأصحابه . وأخذوا يتوافدون عليه ، حتى اجتمع لديه عدد مهم من الرجال الأشداء، سماهم المرابطين للزومهم رباطه الديني . ومن هؤلاء وغيرهم ألـّف جيشاً قوياً ، وخرج به يحارب قبائل كدالة ولمتونة ومسوفة وغيرهم، حتى أخضع قبائل الصحراء كلها،

وبايعته على طاعة الله ورسوله ، وإقامة شعائر الدين كاملة غير منقوصة .

ولما توفي الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي عيّن عبدالله بن ياسين على صنهاجة أبا زكريا يحيى بن عمر اللمتوني . وهكذا تولى هذا الأمير أمور الحرب . أما عبدالله فتكفل بمهمة الوعظ والإرشاد ، وجمع الزكوات والأعشار . ورغم أن أبا زكريا هذا كان أميراً على قومه ، إلا أنه لم يكن يبرم شيئاً إلا بمشورة ابن ياسين . ولما استقام للأمير الجديد ملك الصحراء غزا بلاد السودان ففتح كثيراً من أقاليمها . ثم غزا أرض سجلماسة بالمغرب وأصلح أحوالها ، وجعل عليها عاملاً من لمتونة ليدير شؤونها ، ثم عاد إلى الصحراء . وفي إحدى غزواته ببلاد السودان توفي.

لما توفي الأمير أبو زكريا تولى مكانه رجل آخر هو أبو بكر بن عمر أخو الأمير المتوفى ، وذلك سنة ثمان وأربعين وأربعمائة من الهجرة . أما ابن ياسين فمات بسبب جروحه الخطيرة التي أصيب بها في إحدى معاركه وذلك سنة 451 هـ . وتابع الأمير أبو زكريا عمله الحربي فاستولى على بلاد السوس ، وبلاد المصامدة ، وسائر بلاد زناتة ، وغيرها من أقاليم المغرب ، وعيّن على الجميع عمالاً يقومون بشؤون الأهالي طبق كتاب الله وسنة رسوله .

وبينما الأمير أبو بكر يستريح في أغمات من حروبه الكثيرة ، إذا برسول يأتيه ويخبره بأن حرباً واقعة في الصحراء بين سكانها ، فعزم على الرحيل إليها ليحسم ما بين المسلمين الإخوة من تقاتل ، بالتي هي أحسن ، لأنه كان رجلاً فاضلاً مسالماً . وقبل سفره عين ابن عمه يوسف بن تاشفين خلفاً له ، ليقوم بممارسة الشؤون ، ومواصلة الحرب.

ـ القبائل البربرية المخالفة للدين . وكان سفر أبي بكر إلى الصحراء
؛ ثلاث وخمسين وأربعمائة من الهجرة .

يوسف بن تاشفين

عرفت سابقاً أن أبا بكر كان قد عينه خلفاً له على الجيوش المرابطية،
ب رحيله إلى الصحراء ، من أجل حسم النزاع ، الذي أدى إلى تقاتل
بائل الشقيقة هناك ، وأثناء غيابه كان يوسف بن تاشفين يحرز انتصاراً
ـد آخر ، في جميع حروبه ضد القبائل التي لم تكن قد دخلت في
اعة المرابطين بعد .

وكان يوسف متحلياً بكثير من السجايا الكريمة والخصال الحميدة،منها
مدل والرحمة والكرم وإيثار المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . كما
ان يقدر أهل العلم والدين ، ويقربهم إلى مجلسه ، ويستمع إلى رأيهم.
بتلك الأخلاق السامية أحبه المرابطون حباً جماً ، فأطاعوه طاعة عمياء
ساروا في ركابه يحققون الانتصارات ويبنون المجد والعظمة .

ولما انتهى الأمير أبو بكر من المهمة التي ذهب من أجلها إلى الصحراء،
اد إلى المغرب ، فألفى يوسف بن تاشفين قد تقوى مركزه ، وعظم
أنه باستيلائه على معظم البلاد . ولما تقابل الرجلان شعر أبو بكر أن
بن تاشفين قابله كأمير مساوٍ له في الرتبة ، لا كنائب من قبله على
لمغرب ، وأظهر معه من اللباقة والسياسة ما أربك تفكيره في الموقف ،
قدم له من الهدايا والتحف ما أخجله وثنى عزمه . وأمام ذلك لم
يجد أبو بكر بداً من التسليم بالأمر الواقع ، وهو أن يترك المغرب لابن

عمه ، ويكتفي هو بإدارة شؤون الصحراء ، التي يفضلها على غيرها .

وهكذا عاد الأمير أبو بكر إلى صحرائه ، وظل أميراً عليها . وفي إحدى غزواته بالسودان استشهد ، وذلك سنة ثمانين وأربعمائة . أما يوسف بن تاشفين فقد صار أميراً مطاعاً للدولة المرابطين في المغرب ، منذ أن غادره أبو بكر ورجع إلى الصحراء . ويعزى نجاح السياسة التي سلكها ابن تاشفين مع الأمير أبي بكر ، إلى زوجته زينب النغزاوية ، كما يرجح أن عظمته كلها مدينة بالفضل إلى هذه المرأة ، التي كانت فريدة زمانها في الجمال والدهاء والفطنة .

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف جيوشه إلى المغرب الأوسط ، فحاربت هناك واستولت على كثير من البقاع ، ولما دخلت سنة 473 هـ ضرب السكة باسمه في المغرب ، وفي السنة نفسها فتح مدناً مغربية أخرى ، كمليلية ، ونكور وسائر بلاد الريف : وفي سنة أربع وسبعين تقدم بجيوشه نحو مدينة وجدة فاستولى عليها . كما استولى على سائر بلاد بني يزنازين ، ثم واصل زحفه إلى مدينة تلمسان وتنس ووهران ، في أرض الجزائر الشقيقة ، فاحتلها جميعاً ، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى مدينة مراكش ، عاصمته .

استنجاد بني عباد بيوسف

أضحى خطر المسيحيين يتفاقم يوماً بعد يوم في البلاد الاسبانية ، فيهدد المسلمين بالويل والثبور ، فما كان من المعتمد بن عباد أمير اشبيلية الطائفي ، إلا أن كاتب ملك المغرب العظيم يوسف بن تاشفين لينجده

ضد عدو الإسلام ، فكان جواب يوسف أنه لا يستطيع تلبية طلبه ، ما دامت مدينتا سبتة وطنجة خارجتين عن طاعته ، لأنهما المجاز الرئيسي للعبور إلى الأندلس . وبعد ذلك بعث الأمير المرابطي قائده صالح بن عمران إلى مدينة طنجة ، فتمكن هذا من الاستيلاء عليها بعد حرب طاحنة .

وجاء ابن تاشفين كتاب آخر من المعتمد بن عباد يستنجده ليعينه على صد عدو المسلمين ، فأجابه يوسف أيضاً بأنه غير قادر على استجابة طلبه ما دامت سبتة خارجة عن حوزته وسلطانه .

وكان الفونس قد وجه جيوشاً عظيمة إلى أقاليم المسلمين ، فأفسدت وخربت وقتلت وسبت ، وهكذا أصيبت أراضي المسلمين بأضرار فادحة ، خصوصاً منها مناطق الأندلس الشرقية ، واستطاع العدو أن يستولي على أمهات المدن : كمدينة سرقسطة ، التي كان يحكمها بنو هود آنذاك ، ومدينة طليطلة التي كانت بأيدي بني ذي النون . وكان احتلال النصارى لهذه المدينة الأخيرة من أكبر العوامل التي حملت المسلمين سواء في الأندلس ، أو في المغرب على إعلان الجهاد المقدس ، ضد الخطر المسيحي في اسبانيا المسلمة .

وآنذاك صمم يوسف بن تاشفين بدافع الحمية الوطنية ، والغيرة الدينية ، على أن يستولي على سبتة مهما كلفه ذلك من تضحيات جسام ، حتى يتفرغ لحرب الأندلس . فأرسل إليها ابنه المعز على رأس جيش كثيف ، فسار إليها براً ، وأعانه بنو عباد بالأساطيل البحرية من جهتهم ، وهكذا تمكن المعز المرابطي من الظفر بسبتة ، وذلك سنة سبع وسبعين وأربعمائة. وبعد هذا النصر ، ركب المعتمد بن عباد البحر وأتى إلى يوسف بنفسه

وطلب إغاثــة المسلمين بالأندلس ، قبل أن يبطش بهم عدوهم البطشة الكبرى . وخاطبه ابن عباد بأمير المسلمين فقط لأن يوسف كان يعترف بالدعوة العباسية .

وكانت سبتة هذه وطنجة تابعتين لبني حمود بالأندلس ، منــذ عهد الدولة الأموية . فلما انقرضت ، وتكوّنت على أنقاضها ممالك الطوائف، استقل بنو حمود هم كذلك بإمارتهم بجنوب اسبانيا ، وبقيت سبتة وطنجة ملحقتين بهم : يعينون عليهما عمالاً يثقون بإخلاصهم لهم . وقـد أخّر يوسف الجواز لإنقاذ اسبانيا المسلمة من براثن العدو، حتى دخلت هاتان المدينتان في حوزته ، لاعتبارهما المجاز الاستراتيجي للعبور منه إلى عدوة الأندلس ، والمأوى الحصين الذي يحمــي ظهور جيشه ، ويلجأ إليــه إذا قدّر وحلت به الهزيمة . ولكن بمجرد استيلائه على المدينتين ، هب لنجدة إخوانه الأندلسيين .

بناء مدينة مراكش

لما عظم ملك يوسف بن تاشفين في البلاد، وطارت بصيته الركبان، حفزته همته العالية إلى بناء مدينة تكون داراً لإدارته وعاصمة لدولته ، ورمزاً لعظمته ومجده . وهكذا أمر ببناء مدينة مراكش* الواقعة جنوب المغرب ، وذلك سنة أربع وخمسين وأربعمائة هـ ، في الموضع الذي اشتراه من قبائل المصامدة ، أصحابه . .

* مراكش بالبربرية معناها : « أسرع في مشيك » وكانت القوافل المـــارة في الموضع الذي بنيت فيه تردد كلمة مراكش ، لان ذلك المكان كان وكراً لقطاع الطرق . فنسبت تلك الكلمة البربرية إلى المدينة وعرفت منذ عهدها الاول بمراكش .

فخطط المساكن الجميلة بالمدينة ، والقصور الفخمة ، والاسواق والدكاكين والمصانع . كما بنى بها مسجداً للصلاة ، شارك الأمير بنفسه في بنائه جنباً إلى جنب مع العمال ، طلباً لثواب الله ، ودليلاً منه على ما يتحلى به من التواضع والدمقراطية . ولم يكن بالموضع ماء أول الأمر ، فحفرت الآبار ، وظهر الماء ، وظلت المدينة بدون سور طيلة حياة يوسف . فلما توفي وخلفه ابنه علي بن يوسف أحاطها بالسور سنة ست وعشرين وخمسمائة . وصرف من أجل بنائه سبعين ألف دينار . كما بنى الجامع الأعظم الذي أنفق عليه مبلغ ستين ألف دينار .

وقد استغرقت مدة بناء المدينة أيام يوسف ، ثمانية أشهر . وكانت هي عاصمة المرابطين ، والموحدين من بعدهم ، الذين زادوا في البنيان من مساجد ومصانع ، ودور العلم ومعاهده . وجاء المرينيون عقبهم فبنوا بها المدينة البيضاء ، واتخذوها هم أيضاً عاصمة لملكهم . وبعد هؤلاء أتى السعديون ، الذين بنوا بها القصور الجميلة ، أشهرها قصر البديع ، الذي ذاع صيته . وكانت مراكش هي عاصمتهم أيضاً . ثم جاء من بعدهم العلويون فجعلت مدينة مكناس عاصمتهم في عهد مولاي اسماعيل . ثم رجعت مراكش عاصمة الدولة ، ففاس ثم الرباط إلى يومنا .

• نقاط التلخيص •

- ينتمي المرابطون إلى قبيلة صنهاجة البربرية ، وموطنهم الأصلي هو الصحراء الكبرى . وسموا بالملثمين لأنهم يضربون على وجوههم خُمُراً ، وبالمرابطين لأنهم تكوّنوا في الرباط الديني بتوجيه من مرشدهم عبدالله بن ياسين .
- انتقل عبدالله بن ياسين هذا إلى الصحراء مع أميرها يحيي وأخذ يعرّف الناس أمور دينهم ، ولكنهم انفضوا من حوله ، فانزوى في مكان مهجور وجعله رباطاً دينيـاً ، وشرع يعبد الله فيه . وسرعان ما انضم اليه عدد كبير من الأنصار،فحارب بهم المخالفين للدين فانتصر .
- لما تولى يوسف بن تاشفين على المرابطين ، قوّى دولته بما حققه من انتصارات في المغرب ، وفي المغرب الأوسط ، حيث استولى فيه على تلمسان ووهران وتنس . وضرب السكة باسمه .
- لما اشتد خطر المسيحيين على الأندلسيين في عهد ملوك الطوائف ، طلب منه ابن عباد — صاحب اشبيلية — أن يسرع بإنجاد المسلمين. فصمم يوسف على الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد .
- لما كثر عدد جيوشه وعظمت دولته أسس مراكش واتخذها عاصمة لملكه الواسع .

أسئلة

1 – ما أصل المرابطين ؟ كيف أسسوا دولتهم في المغرب ؟ ما مميزات هذه الدولة ؟

2 – ما السبب في استنجاد بني عباد بالمرابطين ؟ ما رأيك في سياسة بني عباد ؟

3 – على أي شيء يدل اعتراف يوسف بن تاشفين بالدعوة العباسية ؟

4 – لم لم ينتقل يوسف إلى الاندلس برسم الجهاد ، لما دعاه ابن عباد لذلك أول الامر ؟

5 – متى بنيت مدينة مراكش ؟ علل ما يمكنك من تعليل للأسباب التي حملت المرابطين على بناء مراكش ؟ ما دورها في حياتهم ؟

الدرس الثاني عشر :

المرابطون في الاندلس

●

الاستعداد لدخول الأندلس

عندما شرع النصارى يشنون غاراتهم الماحقة على أراضي المسلمين في اسبانيا ، وسقطت كثير من بقاعهم في أيدي العدو ، كما اضطر كثير من امرائهم إلى دفع الجزية للنصارى ، حتى إن المعتمد بن عباد لم ينج من ذلك – آنذاك اجتمع ملوك الطوائف وأمراؤهم للتـــذاكر في علاج الموقف الخطير. فلما تأكدوا أن لا سبيل لديهم لإنقاذهم، نظراً لضعفهم، قر رأيهم على استدعاء أمير المرابطين العظيم يوسف بن تاشفين ، للقدوم إلى الأندلس لغوثهم . فلما وصــل طلبهم إلى البطل المرابطي ، عن طريق المعتمد صاحب اشبيلية جمع يوسف رؤساء جيشه وخاصة حاشيته وعرض عليهم ما يطلبه سكان الأندلس المسلمون . فوافقوا مع الأمير على إنجاد المسلمين من الخطر النصراني ، باعتبار ذلك واجباً يفرضه الدين . ولكن بعد أن يتنازل أمير اشبيلية المعتمد بن عباد عن حصن الجزيرة للمرابطين،

ليجعلوه ملجأ لهم ، ومستودعاً لمؤنهم وعتادهم .

ووافق المعتمد على تسليم حصن الجزيرة للمرابطين ، رغم معارضة ابنه، الذي كان يخاف أن ينقلب المرابطون عليهم فيقضوا على دويلتهم، غير أن أباه آثر أن يكون القضاء عليهم على يد مسلم من أن يكون ذلك على يد نصراني .

وهكــذا استعد ابن تاشفين استعداداً عظيماً لحرب النصارى . وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائــة من الهجرة ، ركب المرابطون متن السفن البحرية ، وما أن بدأت تمخر عباب الماء حتى رفع اميرهم العظيم يوسف كفيه للسماء ، وقال في إيمــان الصادق وخشوع المؤمن : « اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهل عليّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعّبه حتى لا أجوزه » ، فكان أن سمع الله دعــاءه فسكن البحر ، وأمكن للسفن الشراعية أن تصل إلى شاطىء العدوة بسلام .

نزول المرابطين في الأندلس

وما أن نزل الأمــير المجاهد إلى أرض اسبانيا حتى صلى لله صلاة الشكر ، ثم سار إلى حصن الجزيرة ، فدخله — حسب الاتفاق بينه وبين المعتمد — وكان في استقباله ملوك وأمراء الأندلس وكبار قضاتها وعلية كتابها ، وعــلى رأس الجميع ملك إشبيلية ابن عباد . وأراد هذا أن يترجل ويقبل يد أمير المرابطين إشارة لطاعته.فأبى يوسف ذلك،لأنه لم يكن بعد أميراً على الأندلس،وإنما حضر إليها استجابة لدعوة أهلها من أجل

إنقاذ المسلمين من خطر النصارى ، حتى إذا ما فرغ من مهمته هذه عاد أدراجه إلى المغرب .

وبعد أن أقام البطل المرابطي بالحصن فرقة من جنوده البواسل لحمايتها، توجه مع المعتمد بن عباد إلى اشبيلية ، فمكث بها ثمانية أيام ، كان خلالها دائباً على ترتيب جيشه ، ومنتظراً قدوم جيوش الأمراء الآخرين، حسب اتفاق سابق . وكان ابن عباد قد هيأ للجيوش من المؤن مقداراً عظيماً .

وبعد انقضاء الأيام الثمانية،أمر يوسف بتحرك الجيوش نحو أرطوشة، وكان في المقدمة عشرة آلاف من فرسان المرابطين ، تليهم قوات الأندلس ، على رأسهم المعتمد . أما يوسف وباقي جيشه العظيم ، فكان يسير خلفهم ، بحيث كان ينزل مساء في الموضع الذي يتركه ابن عباد صباحاً . وفي مدينة أرطوشة ، مكثت تلك الجيوش مدة ثلاثة أيام ، في انتظار وصول أمراء آخرين مع جيوشهم ، بناء على الاتفاق المبرم ، بينهم وبين ابن تاشفين .

وطار خبر مجيء المرابطين إلى سمع الفونسو السادس،الذي كان يشدد الحصار على مدينة سرقسطة . فكف عن حصارها، وعجل بالعودة لحماية طليطلة عاصمته ، التي سبق أن أخذها من المسلمين . وهناك عقد اجتماعاً خطيراً ضم كبار الشخصيات الاسبانية . وفيه تداولوا في علاج موقفهم، واتفقوا بالإجماع على الاستعداد وأخذ الأهبة . وشد عضد الفونسو كل من سانشو راميريز (**Sancho Ramirez**) ملك أراجون ، الذي كان يحاصر طرطوشة ، والكونت برنجار ريموند ، الذي كان يستعد لشن غارة على بلنسية ، سعياً وراء احتلالها . كما انضم إلى الفونسو كثير من

الفرسان الفرنسيين ، مدفوعين بدافع الطمع ، لأخذ نصيبهم من غنائم المسلمين ، أكثر مما كانوا مدفوعين بالغيرة الدينية .

واقعة الزلاقة

وعلى مقربة من بلدة بطليوس ، في سهل منبسط تكتنفه الغابات يسمى الزلاقة (Sacralias) ، عسكر الفريقان ، وكان الفاصل بينهما نهر صغير يسمى حجير . وكان كلا الفريقين يضم عشرات الالوف من الجند المدججة بالسلاح . وكانت القوتان متعادلتين ، أو تزيد إحداهما عن الأخرى بقليل . وفي الحين أرسل يوسف بن تاشفين رسالة إلي الفونسو يخيِّره فيها بين ثلاثة أشياء : إما أن يسلم أو يدفع الجزية للمسلمين أو الحرب . فكان جواب الفونسو الملتهب حماساً: الحرب طبعاً . على أنه أراد أن يسلك مع الأمير المرابطي طريق الخديعة ، التي تخدش الشرف ، فبعث إلى بطل المسلمين جوابه بأن يمتنعا عن خوض الحرب غداً ، الذي هو عيد المسلمين ، ويوم السبت ، الذي هو عيد اليهود ، ويوم الأحد الذي هو عيد النصارى ، على أن يكون اللقاء في يوم الاثنين .

قبل يوسف الشهم ، ما عرضه عليه الفونسو ، غير أن المسلمين احتاطوا للمفاجآت ، خصوصاً المعتمد بن عباد ، الذي كان يعرف أن الفونسو لا يرعى للعهود حرمتها . ولهذا السبب بث عيونه ليلاً لمراقبة حركات العدو . وما أن مضى شطر من الليل حتى عاد حراس المراقبة في سرعة خاطفة ، وأخبروا المعتمد بن عباد بأن النصارى آخذون في

الاستعداد للحرب خفية لمباغتة المسلمين غداً يوم الجمعة، طمعاً في الفتك بهم . فتأهب المعتمد بن عباد للقائهم، وطيّر الخبر في الحال إلى الأمير المرابطي العظيم ، فاستعد هذا بدوره ، وبعث إلى المعتمد عشرة آلاف من الفرسان المرابطين لمساندته في لقائه للعدو .

أما الأمير يوسف وباقي جيوشه العظيمة ، فإنهم احتجبوا جميعاً عن أعين العدو وراء أكمة هائلة . وما أن وجد النصارى جيوش الأندلسيين وفرسان المرابطين واقفين لهم بالمرصاد حتى اندهشوا ، لأنهم كانوا يعتقدون أن المسلمين عاكفون على صلواتهم ، ولن يفطنوا لمكيدة مليكهم الفونسو . وقد قاتل المعتمد وجيشه قتال الأبطال ، وتمكنوا مع الفرسان المرابطين من الصمود في وجه العدو ، الذي أعاد الكرة عليهم بعد تراجعه أول الأمر ، وأحاط بهم إحاطة السوار . ولما بدأت مقاومة المعتمد تضعف ، ظن الفونسو أنه سيربح المعركة لا محالة ، معتقداً أن الجيش الإسلامي المحارب الذي أخذت تنهزم فلوله هو كل ما لدى المسلمين من قوة .

وفي ذلك الوقت انقض الأمير يوسف بكامل قواته العظيمة على معسكر العدو فقتل حراسه ، وأحرق خيامه، وغنم مؤنه وعتاده ومتاعه . وأرسل البطل المرابطي فرقاً كثيرة من جيشه الباسل ، لإنجاد الجيش الأندلسي والفرسان المرابطين الشجعان. وكان الفونسو ممتطياً جواده يحمس جيشه ، ويدفع به إلى المعركة . وما أن علم بهجوم يوسف على معسكره واستيلائه عليه بعد إحراقه، حتى أسرع بالتوجه مع قسم كبير من رجاله الأبطال نحو المكان ، فاشتبك في قتال حامي الوطيس مع ابن تاشفين وجيشه العتيد .

وهكذا ظل القتال مستعراً طيلة النهار إلى غروب الشمس ، فرجحت كفة المسلمين،ومال النصارى إلى الفرار من المعركة،بالعشرات والمئات . وأبت شجاعة الفونسو ألا يترك ساحة الوغى وهو حي ، ولكن طائفة من أنصاره أقنعته بوجوب العودة إلى بلاده ، فرضخ لرأيهم مكرهاً ، وعاد وهو مثخن بالجراح.وانتهت المعركة..وبقيت في الميدان جثث ألوف من القتلى والجرحى مطروحة من الجانبين ، ولكن خسائر النصارى كانت أعظم . فأمر الأمير المرابطي العظيم بدفن القتلى من المسلمين ، واحتزاز رؤوس قتلى النصارى . فجمع منها حوالي عشرين ألفاً ، وضعت على شكل إهرامات ، وأمر يوسف المؤذن أن يؤذن فوق بعضها .

وبعث خبر النصر إلى كافة مدن الأندلس والمغرب ، فابتهج الناس ابتهاجاً عظيماً ، وصلوا صلوات الشكر لله .

ورغم أن يوسف أحرز هذا النصر العظيم على أعدائه ، فإنه أخطأ خطأ حربياً له أهميته . ذلك أنه لم يتعقب النصارى المنهزمين حتى يقضي عليهم نهائياً في عقر دارهم ، وبذلك يستأصل شأفتهم ، ويمحق كل خطر منهم يتهدد المسلمين . إن ذلك الخطأ يعطينا درساً فيما تحدثه نشوة الانتصار الأول في النفس من المبالغة ونسيان العواقب . بينما كان الأولى أن يكون النصر الأول خطوة أولى للنصر النهائي الحاسم. ومهما يكن من أمر فإن هذا النصر،قد مدّ في عمر الإسلام بالأندلس أربعة قرون أخرى.

ولم ييأس الفونسو الشجاع مما حل به من هزيمة ، بل أخذ يستعد لخوض حرب جديدة مع المسلمين.ومن حسن طالعه أن يوسف بن تاشفين رجع إلى بلاده حين بلغه خبر نعي ولده أبي بكر في مراكش،والذي كان قد تركه نائباً عنه طيلة غيابه .

ولما عاد يوسف إلى مراكش بقيت قوات عظيمة من المرابطين بالأندلس لتقوم بواجبها الحربي ضد الأعداء بقيادة القائد المرابطي العظيم سير ، فأثخن في أرض البرتغال . واستولى المعتمد الباسل من جهته على عدة مدن نصرانية ، ولكن المسلمين خسروا ثمرة انتصاراتهم كلها بسبب تفرق كلمتهم ، وعداء بعضهم لبعض ، بينما كان عدوهم يتقوى .

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة من الهجرة عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية ، فأثخن في بلاد العدو ، ثم وجه اهتمامه نحو الأقاليم التي يحكمها ملوك الطوائف فاستولى عليها كلها، فقضى بذلك على شغبهم وتناحرهم ، ووحد صفوفهم تحت لوائه الإسلامي الخفاق . وهكذا سد مصدر الخطر الحقيقي الذي كان يقلق راحة المسلمين بالأندلس، وينشر الفوضى بين صفوفهم . وبعد أن ضبط شؤون البلاد عاد إلى بلاده المغربية .

وفاة يوسف ومآل المرابطين

وفي جوازه الرابع للأندلس صحب معه ولديه تميماً أبا الطاهر وعلياً أبا الحسن ، وعاد القواد والرؤساء من المغاربة والأندلسيين للاجتماع ، وأعلن لهم أنه يعين ولده الأصغر علياً ليخلفه في الحكم من بعده ، وأمرهم بأداء الولاء له ، لأن علياً هذا ، كان ذكياً متوفراً على مؤهلات الملك. وقد تم إعلان هذه البيعة سنة ست وتسعين وأربعمائة من الهجرة . وبعدها عاد يوسف الى مراكش ، وظل بها بضعة أعوام ، حتى تزايد ضعفه ، بسبب الشيخوخة . وما أن دخلت سنة خمسمائة حتى وافاه أجله.

فتولى بعده ولده علي ، وعبر كأبيه مرات إلى الأندلس برسم الجهاد، وحقق عدة انتصارات على النصارى ، كان أعظمها المعركة التي حصلت قرب قلعة إقليش الحصينة سنة إثنتين وخمسمائة من الهجرة ، ذلك النصر المبين الذي يعتبر نهاية انتصارات المرابطين ، بل نهاية مجدهم الحربي وعظمتهم ، سواء في الأندلس أو في المغرب،إذ أنهم بعد انتصارهم في معركة إقليش بالأندلس ، مالوا إلى الضعف ، بينما تقوى عليهم عدوهم النصراني من جهة ، وقامت ضدهم الثورات في الأندلس والمغرب من جهة أخرى ، فخرج من أيديهم كل ما كان لهم في بلاد الأندلس. وأخذت تتقلص دولتهم في المغرب شيئاً فشيئاً ، بسبب الضربات القاصمة التي يكيلها لهم الموحدون ، حتى قضوا عليهم نهائياً سنة 541 هـ ، في عهد آخر ملك مرابطي إبراهيم .

• نقاط التلخيص •

- أخذ النصارى يستولون على مدن المسلمين وقراهم في الأندلس. فطلب المعتمد بن عباد من يوسف بن تاشفين باسم الأندلسيين أن يقدم لنجدتهم. فاجتاز إلى الأندلس بعد تسلمه حصن الجزيرة الخضراء.
- في مكان يسمى الزلاقة حصلت المعركة الهائلة بين المرابطين والأندلسيين من جهة، وبين النصارى من جهة أخرى فكتب النصر الحاسم للمسلمين.
- كان ذلك النصر الذي أحرزه المرابطون في الأندلس من أقوى الأسباب التي مدّت في عمر الإسلام بتلك الديار أربعة قرون أخرى.
- لما رأى يوسف أن ملوك الطوائف لم يتعظوا مما حل بهم من نكبات، بسبب فتنهم وهجوم النصارى عليهم، قضى عليهم ووحد البلاد الأندلسية.
- بعد وفاة يوسف بن تاشفين آلت أحوال المرابطين إلى الضعف والانحلال. وزاد في الطين بلّة قيام الموحدين ضدهم. وكانت نهاية دولتهم على أيديهم سنة 541 هـ.

أسئلة

1 – لم اشترط يوسف بن تاشفين على ابن عباد تسليم حصن الجزيرة له قبل جوازه الأول من المغرب الى الاندلس ؟ ما موقف ابن عباد وولده من ذلك ؟

2 – صف نزول المرابطين في اسبانيا لاول مرة وتنقلاتهم قبل خوض المعمعة .

3 – تحدث باسهاب عن معركة الزلاقة ؟ ما الخطأ الحربي الذي ارتكبه يوسف بعد ذلك الانتصار ؟

4 – لم قضى على ملوك الطوائف ووحد بلاد الاندلس ؟ ما رأيك في ذلك ؟

5 – علل أسباب سقوط الدولة المرابطية بعد وفاة يوسف ؟

الدرس الثالث عشر :

الموحدون في المغرب والاندلس

(541 — 668 هـ)

●

محمد بن تومرت يتزود بالعلم

كان أول داع وعامل على قيام دولة الموحدين هو محمد بن تومرت، المنتمي إلى هرغة ، من قبيلة مصمودة ببلاد السوس . وفي أيام الملك المرابطي علي بن يوسف ارتحل محمد إلى المشرق، طلباً للعلم، بعد أن أخذ منهُ الشيء الكثير في معاهد المغرب والأندلس ، والقيروان والقاهرة . ومنهـا انتقل إلى بغداد حيث تتلمذ على يد العلامة الكبير والفيلسوف العظيم أبي حامد الغزالي . وكان هذا العالم الجليل قد ألف كتاباً يسمى « إحياء علوم الدين » ، فما أن اطّلع عليه فقهاء قرطبة ومراكش وفاس والقيروان حتى أنكروا ما جاء فيه ، وكفّروا صاحبه ، وأشاروا على أمير المرابطين عليّ بإصدار أمره بإحراق كتاب الغزالي أينما وجد ، فانصاع الأمير لرأي هؤلاء الفقهاء المتزمتين وأصدر الأمر بإحراق الكتاب.

ولما حضر ابن تومرت حلقة الدروس ، التي يقوم بها فيلسوف الإسلام الغزالي ، لاحظ الشيخ أن تلميذه الجديد ، غريب الزي والسحنة ، فلما عرف منه أنه مغربي ، سأله عما تركه كتابه « إحياء علوم الدين » من الأثر في المغرب . فأخبره بأن الفقهاء أنكروا كتابه وأُحرق بأمر من الأمير المرابطي ، ورموا شخصه بالكفر والإلحاد .

فما أن سمع الشيخ الجليل ذلك حتى استاء غاية الاستياء ، ثم رفع رأسه وكفيه للسماء ، وقال : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ، فطلب منه محمد بن تومرت أن يدعو الله ليكون ذلك على يديه ، بعد عودته إلى المغرب ، فقال الشيخ الوقور : « اللهم اجعله على يد هذا الرجل » . فانطبعت هذه الدعوة في قلب الفتى ، وامتزجت بدمه ، ولازمته طول حياته الدراسية ، وصمم العزم على تحقيق الأمل الذي تمناه له شيخه العظيم .

العمل من أجل تحقيق الغاية

وفي سنة 510 هـ قفل ابن تومرت راجعاً من المشرق في طريقه إلى المغرب ، ولما وصل بجاية بأرض الجزائر الشقيقة أقام بها مدة ، كان خلالها يدعو الناس الى الإقلاع عن الفحشاء والمنكر ، واتباع تعاليم الدين ، كما أمر الله ورسوله . وفي موضع يسمى ملالة ، قريباً من بجاية ، التقى بشاب ذكي الفؤاد ، فطن العقل ، له نشاط كبير ، وبسطة في العلم ، فما أن رآه حتى أعجب به غاية الإعجاب ، وعزم على ان يتخذه رفيقاً وصديقاً ، وهذا الشاب هو عبد المؤمن الكومي . وكان يعتزم الرحيل إلى المشرق لزيادة التحصيل ، فعرض عليه ابن تومرت مصاحبته إلى

المغرب ، ومناه – إن طاوعه – بالحصول على رفيع الدرجات في العلم والشرف . وهكذا تخلى عبد المؤمن عن سفره الى المشرق ، وارتحل مع ابن تومرت إلى المغرب ، يحفزه الأمل في أن ينال في مصاحبته ما يصبو اليه من عز وسؤدد .

عكف ابن تومرت منذ اللحظة الأولى على نشر دعوته بين الناس في إفريقية (تونس) ، والمغرب الأوسط ، وأخيراً بالمغرب الأقصى ، مسقط رأسه ، في المساجد والطرق والميادين العامة . فلاقى من جراء ذلك كثيراً من الأهوال ، تحمّلها كلها بصبر عجيب . وهكذا كوّن أنصاراً وتلاميذ في كل مكان . وكان في مراكش (العاصمة) أكثر عنفاً في دعوته ، يغير المنكر بلسانه ، فإن لم يستطع غيّره بيده ، كأن يكسر الأواني المليئة بالخمر ، أو يحطم آلات الطرب ، باعتبارها – في ذلك الوقت – وسيلة للغناء الماجن ، والرقص الخليع .

وما أن تكاثر المعجبون به ، حتى بدأ يعلن جهراً عن أسماء أكابر المرابطين الذين يشاركون في حياة اللهو والفحش . فضجر أولئك من هذا الداعية الخطير ، وخوفوا أميرهم علياً مغبة دعوته على سلطان المرابطين، ولكن الأمير كان حليماً ، فلم يتسرع في التعرض لابن تومرت بسوء ، وإنما استدعى الفقهاء لعقد اجتماع يناظرون فيه الفتى بمحضره ، ليعرفوا حقيقته عن كثب . فوقع الاجتماع ، وأظهر فيه ابن تومرت من ضروب الفصاحة والبلاغة والحكمة ما نال إعجاب الأمير . ولكنه قرر أخيراً ، بإلحاح من الفقهاء وكبار الحاشية ، أن يبعد الداعية ابن تومرت عن مراكش ، درءاً لخطر دعوته ، فكان الأمر كذلك .

دور العمل الإيجابي

ومن ثم انتقل هذا الفتى الجريء إلي تينملل الواقعة في بلاد السوس، حيث قبائل المصامدة . وهناك بين أهله وعشيرته وبصحبة رفاقه ، الذين كانوا يلازمونه،وفي مقدمتهم عبد المؤمن ، أخذ يواصل دعوته ويحرض على الثورة علناً ضد المرابطين . فلما تكاثر أنصاره، بايعوه بالإمارة تحت شجرة الخرنوب . ثم توافدت عليه القبائل تباعاً معلنة طاعتها له . فكوّن الشاب الأمير من أنصاره جيشاً قوياً ، وأمره بمحاربة المرابطين ، وأطلق على أصحابه اسم الموحدين ، ويعني الاتحاد والإيمان بوحدانية الله .

وشن الموحدون هجومهم الأول على المرابطين سنة 516 هـ، في الوقت الذي كان الأمير المرابطي عليّ غائباً في الأندلس.فلما سمع بذلك أرسل فرقاً مهمة من جيشه التي بالأندلس ، لمساندة المرابطين بالمغرب ، فما أجدى ذلك نفعاً . فقد ولّى المرابطون الادبار في هلع وخوف من قوة الموحدين القوية . ثم جاءت جيوش مرابطية أخرى واشتبكت مع أعدائهم ، فلم تجن إلا الهزيمة في معظم حروبها .

وفاة ابن تومرت وتولية عبد المؤمن

ومرض ابن تومرت واشتد به المرض فأناب عنه في الصلاة وقيادة الجيوش صديقه عبد المؤمن ، الذي ظل يتابع عملياته الحربية بنجاح تام، إلى أن توفي ابن تومرت سنة 524 هـ فاتفقت كلمة الجميع على تعيين عبد المؤمن خلفاً له ، باعتباره أخلص أصدقائه ، وإنابته إياه في الصلاة وقيادة الجيش

ولأن ابن تومرت كان يردد دائماً قوله : ما دام عبد المؤمن حياً فلا خوف على الموحدين ، هــذا فوق ما يتحلى به الأمير الجديد من شيم الأخلاق وغزارة المعرفة . ولما ولوه لقبوه بالخليفة وبأمير المؤمنين ، ووافقت تولية عبد المؤمن على عرش المغرب سنة 525 هـ . وبعد مضي أربع سنوات على توليته أمر بصك النقود باسمه .

نهاية المرابطين على يد عبد المؤمن

وفي سنة 537 هـ توفي أمير المرابطين علي ، فتولى بعده أكبر أولاده تاشفين ، وجاءت الوفود إلى مراكش لإعلان بيعتها من الجهات التي لم يكن الموحدون قد استولوا عليها بعد ، كما بعث إليه ولاته بالأندلس طاعتهم . وقد قاتل تاشفين هذا الموحدين قتال الأبطال . واستطاع في بعض الأحيان أن يبيد فرق الموحدين ، ولكن عبد المؤمن كان أقوى منه شكيمة ، وأصلب منه عوداً ، فقد ظل ثابت الجنان ، لا تثنيه المصائب والأهوال ، واستمر يسدد ضرباته العنيفة ، نحو تاشفين وجيوشه ، إلى أن وقع آخر اشتباك بين الفريقين ، وفيه انهزم المرابطون شر هزيمة.

ففر تاشفين مع فلول جيشه نحو قلعة تلمسان ، ولكن عبد المؤمن لم يترك له وقتاً للراحة ، بل استمر يطارده ، فاضطر أن يتجه نحو وهران. ومنها بعث سراً الى صاحب المرية في الأندلس ، ليعجل بإرسال بعض السفن لنقله ، هو وعائلته الى اسبانيا ، لأنه فقد كل أمل في النصر . وفي جنح الظلام حاول تاشفين أن يتسلل إلى الميناء القريب من وهران، ليركب منه ، فكان في ذلك حتفه ، إذ سقط هو وفرسه من مرتفع إلى البحر ، فمات مع فرسه ، وذلك سنة 539 هـ .

وبعد تاشفين بويع ابنه أبو إسحاق إبراهيم ، آخر ملوك المرابطين ، فكان أن ثار عليه عمه إسحاق ، لأنه كان يطمع في الملك ، فعجلت هذه الثورة من ناحية ، واستمرار ضربات عبد المؤمن للمرابطين، وقتله لأميرهم مع كبار رجالاتهم من ناحية ثانية ، ثم قيام الثورات في الأندلس ضدهم بسبب غطرسة حكامهم — من ناحية ثالثة ، كل هذه العوامل وغيرها عجلت بسقوط الدولة المرابطية ، التي امتاز عهدها الأول — أيام يوسف بن تاشفين خصوصاً — بالعظمة والقوة . وكانت نهايتها سنة 541 هـ . ولم تعش أكثر من تسعين سنة ونيف .

من أجل وحدة الشمال الإفريقي

وفكر عبد المؤمن في إخضاع الشمال الإفريقي ، فما أن نظم شؤون مملكته ، وحارب النصارى في الأندلس وانتصر عليهم حتى تصدى للعمل من أجل تحقيق الفكرة ، واهتبل فرصة ضعف حكامها الذين عجزوا عن طرد النصارى المحتلين لبعض أراضيهم ، فتوجه بجيش لجب نحو إفريقيا الشمالية فاستولى عليها . وكانت إمبراطوريته تمتد من شاطىء المحيط الأطلسي ، إلى برقة . وبذلك حقق وحدة المغرب العربي ، تلك الأمنية العزيزة ، التي نصبو اليها اليوم .

الاستعداد للجهاد الأعظم ووفاته

وفكر عبد المؤمن بعد ذلك في شن هجوم عظيم على بلاد النصارى، الذين ما فتئوا ينغصون الحياة على المسلمين . فأخذ يستعد لذلك استعداداً

هائلاً سنة 557 هـ ، فأنشأ أسطولاً مكوناً من 400 سفينة، وضرب من السهام ما لا يحصى ، وأكثر من أنواع الأسلحة والمعدات والخيل . فلما أتم تجهيزه واستعداده ، خرج من عاصمته (مراكش) ، قاصداً الأندلس لإعلان الجهاد الأعظم ضد النصارى ، مصحوباً بألوف الجيوش . ولكنه ما أن وصل إلى مدينة رباط سلا حتى اعتراه المـرض ، فتوفي بسببه سنة 558 هـ .

بعض أعمال عبد المؤمن الأخرى

ومن أعماله أنه نظّم الشؤون الإدارية في امبراطوريته الشاسعة،وقسّم أراضيها طولاً وعرضاً تقسيماً فلاحياً مضبوطاً ، ليكون خراجها منظماً . فكان أول ملك في المغرب حقق ذلك سنة 555 هـ .

واعتنى بالتعليم غاية الاعتناء ، ومنح رواتب مهمة للعلماء والطلاب ، تشجيعاً لهم . وبنى المساجد ، وحث على الاجتهاد في الأحكام الشرعية، على أساس الكتاب والسنة .

ومن آثاره الباقية : جامع الكتبيين العظيم وبستان المسرّة الذي كان يحتوي على كل ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين،والذي بنى فيه الصهريج العظيم المعروف بصهريج المغارة .

وبعث اليه أهل الأندلس هدية نفيسة ، هي مصحف عثمان بن عفان. وكان الأمويون قد نقلوه من الشرق إلى الأندلس . فاحتفل عبد المؤمن بيوم قدوم تلك الهدية النفيسة احتفالاً رائعاً،وحفظ المصحف في صندوق محلى بالذهب والفضة والأحجار الكريمة .

تولية يوسف ووفاته

وبعد وفاة عبد المؤمن بويع بالخلافة ابنه يوسف . ومن أبرز صفات هذا الأمير أنه كان محباً للعلم والحكمة والفلسفة ، ولهذا السبب جعل ابن الطفيل ، الفيلسوف الشهير وزيراً له ، كما كلف ابن رشد بشرح فلسفة أرسطو ، وبالأخص الجوانب التي تتفق والشريعة الإسلامية .

وارتحل إلى الأندلس برسم الجهاد، فحارب النصارى وانتصر عليهم . وفي سنة 567 هـ بنى جامع اشبيلية العظيم . واجتاز إلى الأندلس للمرة الثانية ، فاشتبك مع النصارى في الحرب ، فجرح جرحاً بليغاً مات بسبب ألمه سنة 580 هـ .

يعقوب المنصور

تولى يعقوب المنصور بعد وفاة والده بالأندلس . ولهذا الأمير أعمال مجيدة في جميع الميادين . فقد قرب اليه العلماء وأجزل لهم العطاء ، واعتنى بالضعفاء والمساكين .

وكان ابن غانية قد خرج عن طاعة الموحدين في الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس ، وشن حملة بحرية على أرض الجزائر ، فحاربه المنصور وانتصر عليه ، واستخلص ما كان بيده من الأراضي .

الجهاد الأعظم والنصر الحاسم

وفي سنة 591 هـ استعد المنصور استعداداً عظيماً لخوض المعركة الفاصلة بينه وبين النصارى ، الذين تفاحش طغيانهم واشتد جورهم على مسلمي الأندلس ، فاجتاز إلى عدوة الأندلس بجيوش جرارة . وفي صباح يوم الخميس من السنة الفارطة نشبت الحرب بين الموحدين والعساكر النصرانية. فتمكن العدو من إحداث البلبلة بين صفوف المسلمين أول الأمر ، ولكن سرعان ما رجحت كفة النصر إلى جانبهم ، فانهزم العدو انهزاماً ماحقاً ، وفرت فلوله ، وأسر من جنوده عدد عظيم وسقط في الميدان منهم ما لا يحصى من القتلى والجرحى .

وارتكب المنصور خطأ سياسياً أيضاً حيث أطلق سراح الأسرى ، وقد ندم على ذلك من بعد ، لأن أولئك الأسرى عادوا لمقاتلــة المسلمين . وهكذا كانت تلك الواقعــة – التي سميت بواقعة الأراك – شبيهة إلى حد بعيد بواقعة الزلاقة ، التي انتصر فيها المرابطون على العدو النصراني في الأندلس .

وتابع المنصور زحفه بعد ذلك ، فاستولى على أكثر المدن التي كانت بأيدي النصارى ، كقلعة رباح ومجريط وصلمنكة وحاصر طليطلة عاصمتهم ، ولم يرفع الحصار عنها إلا عندما قامت ثورة في إفريقية ، فاضطر آنذاك إلى إجابة النصارى لعقد الصلح الذي كانوا يطلبونه .

من آثاره العظيمة

ومن آثاره العظيمة ، ايضاً إحداث عدة مبان في جميع مدن المغرب.

ومن بينها : القصبة وجامعها الأعظم ، ومنارة الكتبية بمراكش والمدرسة الجوقية ، والمسجد الاعظم بسلا ، وبناء مدينة رباط الفتح وإحاطتها بالسور وذلك سنة 593 هـ . وقد اتخذها معسكراً لجيوشه ، كما بنى جامع حسان ومنارته بنفس المدينة .

وفي الأندلس أتم بناء جامع اشبيلية ، وجعل له منارة فأصبح يشبه منارتي الكتبية وجامع حسان . كما اعتنى بالمرضى ، فبنى لهم المرستانات (المستشفيات) . ورتب لهم الجرايات . وأقام العدل بين الناس على أساس الدين ، وكان متقشفاً ورعاً . ومن أعماله التحررية أنه أحرق كتب المذاهب ، ودعا إلى الأخذ مباشرة عن الكتاب والسنة .

صلاح الدين والمنصور يحاربان الصليبيين

وقد طلب صلاح الدين الأيوبي حامي الإسلام في الشرق من المنصور أن يساعده بأساطيله البحرية على الصليبيين فلم يتمكن المنصور من تلبية طلبه ، نظراً لأنه كان يحارب صليبيين آخرين في الأندلس وطدوا هم كذلك العزم على القضاء على المسلمين هناك .

وفاة المنصور وضعف الموحدين

وفي سنة 595 هـ توفي المنصور العظيم ، فتولى بعده ابنه محمد الناصر. وفي عهد هذا الأمير ضعف الموحدون ، وبالأخص بعد انهزامهم الشنيع على أيدي النصارى في الأندلس ، في موقعة تعرف بالعقاب . والسبب

في ذلك أن جيوشهم رغم كثرتها كانت تعوزها قيادة رجل محنك كعبد المؤمن والمنصور ، وقوادهما العظام . وهكذا كانت هذه المعركة الخاسرة إيذاناً بسقوط الدولة الموحدية من جهة ، ودولة الإسلام في الأندلس من جهة أخرى،على الرغم من أن دولة الموحدين عاشت الى 674 هـ .

• نقاط التلخيص •

- ينتمي محمد بن تومرت إلى قبيلة مصمودة . وتعلّم في المغرب والمشرق.
- في المغرب كوّن له أنصاراً عديدين ، وسماهم الموحدين ثم حارب بهم المرابطين .
- بعد وفاة ابن تومـــرت تولى أمر الموحدين عبـــد المؤمن صديقه المخلص . فواصل الحرب ضد المرابطين حتّى قضى عليهم .
- حقق عبد المؤمن وحدة الشمال الإفريقي،حيث امتدت امبراطوريته الواسعة من المحيط الأطلسي إلى برقة ، كما شملت الأندلس . وحقق أيضاً أعمالاً عظيمة أخرى .
- لما تولى يعقوب المنصور شؤون الموحدين ، اجتاز إلى الأندلس فأحرز على النصارى النصر العظيم في الأراك . وله أعمال عظيمـة أخرى في المغرب . وبعد وفاته ضعف الموحدون ، خصوصاً بعد واقعة العقاب ، التي انهزموا فيها بالأندلس .

اسئلة

1 – كيف ظهر محمد بن تومرت ؟ تكلم عن أدوار تكوينه العلمي ، وعمله من أجل تحقيق غايته السياسية ؟ متى توفي ؟

2 – ما الاسباب التي أهلت عبد المؤمن لتولي حكم الموحدين ؟

3 – لقد حقق عبد المؤمن وحدة الشمال الإفريقي . ما رأيك في ذلك ؟ ما أعماله الاخرى ؟

4 – تحدث عن انتصارات يعقوب المنصور في الاندلس ضد النصارى . قارن بين انتصاره العظيم في الاراك ، وبين انتصار يوسف بن تاشفين في الزلاقة .

5 – إلى أي شيء آلت أحوال الموحدين بعد وفاة المنصور ؟ ما رأيك في أسباب سقوطهم ؟

الدرس الرابع عشر :

الحياة الفكرية والفنية في المغرب والاندلس
على عهد المرابطين والموحدين

●

1 — الحياة الفكرية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين:

كان الأساس الذي قامت عليه الدولة المرابطية دينياً محضاً ، فقد قامت هذه الدولة لتعيد الناس إلى جادة الدين ، الذي انحرفوا عنه ، فحاربت — بحزم ونشاط — أصحاب الضلالة والبدع ودعاة الإلحاد ، واستعملت القسوة مع من أصروا على كفرهم وعنادهم ، واستعملت الرحمة والتسامح مع من تابوا وأصلحوا . وكانت التقوى والعدل والتقشف أيضاً من أبرز صفات هـذه الدولة ، وبالاختصار كان المرابطون يمثلون في حكمهم المثل الأعلى للروح الإسلامية . وكان العامل الديني هـو المحرك الأول للمرابطين على شن الحروب في المغرب ، وهو نفسه الـذي دفعهم إلى نجدة إخوانهم في الأندلس ، على العدو عدة مرات ، وإحرازهم عليه انتصارات باهرة كان لها الفضل في إطالة بقاء المسلمين بالأندلس مـدة

أخرى ، تقدر بنحو أربعة قرون .

وقد قوي الاحتكاك بين المغاربة والأندلسيين في عهدهم ، خصوصاً بعد قضائهم على ملوك الطوائف — رؤوس الفتنة — وضمهم الأندلس إلى سلطانهم ، فكان عملهم هذا — في الناحية الفكرية والفنية — بمثابة إعداد الجو المناسب ، وتوفير الصفحات البيض ليكتب فيها بمداد الفخر، ما ستنتجه براعة الأدباء وقريحة العلماء .

وعلى الرغم من أن الطابع المميز لهذه الدولة هو البداوة ، وعلى الرغم من شطط الفقهاء واستغلالهم نفوذهم الروحي بكيفية بعيدة عن حقيقة الإسلام وتسامحه ، فقد رحب المرابطون بكثير من علماء الأندلس وفلاسفتها ، وانتفعوا بهم في بلاطاتهم . حتى إن أبا حامد الغزالي فكر في أن يقدم على يوسف بن تاشفين ، ولكنه عدل عن فكرته لما علم بوفاة الأمير المرابطي العظيم . وفي الوقت الذي نرى فيه ان علياً بن يوسف يأمر بإحراق كتاب الغزالي : « إحياء علوم الدين » بإيعاز من فقهاء الأندلس والمغرب وإفريقية ، بحجة أن ذلك الكتاب يدعو إلى الكفر والإلحاد ، في الوقت الذي نرى أن هذا التعصب الأعمى والفهم المعوج للدين يسيطر على هؤلاء الفقهاء المتزمتين ، نجد ان علياً نفسه قد أمر ببناء الجامعة اليوسفية بمراكش لتقوم بمهمة تدريس العلوم العصرية في ذلك الوقت ، كالطب والهندسة والصيدلة والرياضيات وغيرها ، فأقبل الطلاب على تعلمها بنفس الحماس الذي يدفعهم إلى تعلم العلوم الإسلامية .

وعلى الرغم من أن انتشار تلك العلوم الحديثة كان محدود الأجل إلا أنه كان خطوة مباركة في سبيل رقي البلاد رقياً فكرياً فيما بعد .

الحياة الفنية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين

مهّد المرابطون لنقل الحضارة الأندلسية إلى المغـــرب . وكان من الطبيعي على قوم بدو أن يبهرهم ما شاهـــدوه من حضارة بلغت ذروة الإتقان والكمال عندما حلوا بالأندلس . ومن الطبيعـــي أيضاً أن يكون الجانب المادي وما يكتنفه من زينة وزخرف ، أكثر النواحي الحضارية التي استهوت قلوب المرابطين البدو ، وأثارت إعجابهـــم . ولهذا السبب اهتموا بالناحية المعمارية أكثر من غيرها . فبنوا الجوامع الجميلة ،والقصور الفخمة على الطراز الأندلسي . وجلب الأمير علي بن يوسف لهذا الغرض طائفة من مهرة الصناع والمهندسين الأندلسيين . كما بنوا الحصون والقلاع العسكرية التي تتميز غالباً بطابعها البربري .

ويُعتبر المسجد الأعظم بتلمسان من أجمل المآثر المرابطية التي سلمت من عوادي الزمان . وكان لبناء جامعة مراكش أثرها المحمود في نشر الثقافة بالمغرب ، على أيدي علماء فطاحل ، أتوا من الأندلس وغيرها ، خصيصاً لهذا الغرض . وعلى الرغم من أن مراكش كانت هي عاصمة المغرب والصحراء والأندلس ، فإن الإشعاع الحضاري ، سواء المادي أو الفكري والفني ، كان دائماً مصدره الأندلس ، لأنها كانت متقدمـــة جداً،ولأنها كانت تمثل بحق،الجانبَ الخصب اليانع في حقل الحضارة، بينما كان المغرب يمثل الجانب القاحل . ذلك لأن المرابطين عندما دخلوا إلى المغرب قادمين من الصحراء ، لم يكن لديهـــم إلا نتفاً من بقايا الفن البربري . فلما دخلوا الأندلس ، ورأوا ما بها من حضارة وفخامة وجمال وفن ، مشخصةً في أنواع المباني وأشكال الصناعات والملبوسات ،أخذوا في الاقتباس من ذلك كله . وظل المغرب يتمتع بالفن الأندلسي وحده

زهاء قرن كامل ، قبل أن ينتقل إلى أقطار الشمال الإفريقي .

وقد كان للهجرات الأندلسية المتوالية أثر فعال في تنسيق الفن المغربي الجديد ، وتلطيف حواشيه . كما ازدهر على الخصوص وتبلور في قالبه المغربي على عهد الموحدين .

الحياة الفكرية في المغرب والأندلس على عهد الموحدين

آلت الدولة المرابطية إلى السقوط بسبب ضعفها . وتمت نهايتها على يد عبد المؤمن سنة 541 هـ . وبالرغم من ذهاب سلطان المرابطين العظيم بسرعة خاطفة ، إلا أن الناس لم يشعروا بضياع شيء،لأن حركة التقدم الفكري والإصلاح المادي ظلت مستمـــرة . وفي العهد الموحدي ظهرت نتائج تلك الحركة واضحة المعالم صافية الأديم . وازدهرت الحياة الثقافية ازدهاراً عظيماً،فأصبح لعلوم الفلسفة والطب والرياضيات والتنجيم وغيرها الحظ الأوفر ، إلى جانب علوم الشريعة التي اعتمد فيها على الأخذ عن الكتاب والسنة . فتجدد الاجتهاد،الذي كان الفقهاء المتزمتون — في العهد المرابطي — يقفون حجر عثرة في طريقه .

وفي عهد الموحدين ظهرت شخصية المغرب في عالم الفكر والفن ظهوراً واضحاً . وقد ساعد على إذكاء جذوة الحركة الثقافية ظروف خاصة : منها : حياة الاستقرار ، وانتشار الرخاء ، وتوفر الدولة على القوة ، سواء في الناحية العسكرية أو السياسية،وعلى مالية ضخمة تمكنت بواسطتها من تأسيس كثير من دور العلم المختلفة ، وتشجيع العلماء والطلاب مالياً وأدبياً ، على أداء رسالتهم السامية . ثم هناك العامل الحضاري الذي وسع

من مدارك الناس ، حتى أصبحوا يستسيغون مفاهيم الفلسفة والرياضيات والطب ، ومواطن الإجادة في الأدب والشعر .

ونستطيع أن نشبه التطور الحضاري الذي أصاب المغرب على عهدي المرابطين والموحدين ، بنفس التطور الذي حصل في عهدي الأمويين والعباسيين بالمشرق. فنحن بالملاحظة نجد أن عهدي المرابطين والأمويين يتسمان بالفطرة والبداوة إلى حد بعيد ، لأن المرابطين والأمويين كانوا حديثي العهد ببداوتهم . فقد انتقل المرابطون من الصحراء فجأة وأسسوا دولتهم في المغرب ، وتسلم الأمويون الحكم والسلطان بوسائلهم المعروفة ، ولكن دولتهم أسست على الفطرة والعصبية ، لأنهم أيضاً كانوا حديثي العهد بالانتقال من حياة البداوة .

ولكن الموحدين الذين أعقبوا المرابطين في المغرب ، والعباسيين الذين أتوا بعد الأمويين في المشرق ، ظهر عهدهم بميسم جديد وهو ذلك التطور الهائل الذي شمل جميع مرافق الحياة ، لأن الأسس الحضارية كانت قد تمركزت وآتت أكلها . وهكذا انتشرت المدارس العلمية في المغرب على غرار المدارس الأندلسية ، ورحب الخلفاء الموحدون برجال العلم والأدب ، الوافدين عليهم من المشرق والأندلس ، وأغرقوهم بالعطايا والهبات ، تشجيعاً لهم في مهمتهم السامية . وحصل مثل هذا أيضاً في عهد العباسيين بالمشرق مع بعض الفوارق .

وأكبر دليل على ازدهار الحركة الثقافية في العهد الموحدي هو ظهور كثير من العلماء ، وعدد ضخم من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون . وقد اهتم الموحدون بالترجمة ونقل الكتب فلم يمض وقت طويل حتى برز النبوغ المغربي في الحقل الثقافي ، في سائر العلوم والفنون التي كانت

معروفة آنذاك ، وُوجدت — كما قلنـــا — طوائف من العلماء والأدباء المغاربة ، وهكذا تبلور اتصالنا المستمر بالأندلس إلى حياة مغربية صميمة راقية جداً ، وأصبح ذلك التقدم الفكري يمثل بحق عصرنا الزاهر أو عصرنا الذهبي .

بعض علماء المغرب والأندلس في العهد الموحدي

من العلماء الذين ظهروا سواء في المغرب او الأندلس على عهد الموحدين. وفي اللغة والنحو ، أبـو القاسم البصري ، محمد السبتي ،عبدالله الأوفري، وغيرهم . وكان أبو موسى الجزولي حجة في النحو ، وهو الذي أسس أول مدرسة للدراسة النحوية في المغرب .

وفي الأدب والشعر ، أمثال : محمد بن حسين بن جبو الفـاسي ، وعبدالله بن محمد بن عين التادلي ، وأحمد بن جعفر بن عطية ، وأبـي عقيل وغيرهم .

وفي العلوم الإسلامية : أمثال أبـي إسحاق إبراهيم بن محمد المرادي الفاسي ، وأبـي العباس أحمد بن تومرت الفاسي ، وأبـي الحسن علي بن أحمد المراكشي ، وأبـي الخطاب بن دحية السبتي ، والقاضي عياض ، وإسحق بن إبراهيم الغماري السعيدي ، وعبدالله بن محمد التادلي . وكان المذهب الشائع بين الناس هو المذهب المالكي .

وفي التاريخ ، أمثال : أبـي بكر البيـــدق ، وابن رشيق ، وابن القَطّان ، أحمد اللخمي ، عبد الواحد المراكشي وسواهم .

وفي الجغرافيا ، أمثال الشريف الإدريسي الذي ترجمت كتبه إلى جميع اللغات الأجنبية . وكان لمعلوماته الجغرافية الفضل الأكبر على النهضة الأوروبية .

وفي الفلسفة ، أمثال : ابن رشد ، وابن طفيل ، وأضرابهما . وقد ترجمت كتب فلاسفة المغرب والأندلس إلى سائر اللغات وأصبحت تدرس في جامعات العالم .

وفي الطب والكيمياء ، أمثال : أبي الحسن علي بن يقظان ، وأبي الحسن علي بن موسى بن النقراط ، وأبي بكر يحيى بن محمد السلاوي ، وسعيد الغماري ، وغيرهم .

وفي الهندسة والرياضيات والفلك ، أمثال : أبي علي حسن ، وابن علي المراكشي ، والتبراجي المراكشي ، وعبد المنعم بن محمد المراكشي ، وأبي العباس السبتي ، والحاج يعيش الأحوص ، وأبي بكر محمد بن يوسف ، والليثي السبتي ، وسواهم . وقد ألف معظم هؤلاء كتباً عدة في علومهم وفنونهم المختلفة . وبالرغم من أن آلافاً منها ضاعت فإن ما بقي سالماً ، وما احتفظت به كتب الشرق والغرب يعطينا أسطع دليل على عظمة الحضارة في العهد الموحدي الزاهر .

الحياة الفنية في المغرب والأندلس على عهد الموحدين

اتخذ الفن المعماري في المغرب في العهد الموحدي شكله النهائي . وأصبح له من الروعة والإبداع ، ما هو عليه في الأندلس نفسها ،

خصوصاً في أيام عبد المؤمن ، الذي جلب إلى المغرب طائفة من كبار الصناع الحاذقين والمهندسين البارعين من الأندلس ، . فبنوا به مساجد وسقايات وقناطر، بلغت من الإتقان الهندسي، وروعة الفن حد الإعجاب . ومن المغرب انتقل الفن الأندلسي إلى تونس على يد الحفصيين، حكامها .

وظهر التفوق الفني في العمارة أيام يوسف ، الذي عاش في إشبيلية وتشبع بالثقافة الأندلسية ، حتى أصبح يخص إشبيلية بالحب أكثر من مراكش عاصمته . ولما جاء ابنه يعقوب المنصور ، لم يأل جهداً في العناية بالعمارة ، وإظهارها بمظهر الجمال والإبداع . وكانت إشبيلية والرباط ومراكش مواطن تركيزه الفني الممتاز . ومن آثاره الفنية العظيمة الباقية تلك المنارات الثلاث . أولاها منارة جامع إشبيلية (لِخَرَلْدَة) وثانيها منارة حسان بالرباط ، وثالثها منارة الكتبية بمراكش .

وكانت عناية الموحدين تتناول المغرب والأندلس على السواء، باعتبارهما لديهم وطناً إسلامياً واحداً . وقد شبّه بعض المؤرخين مراكش في أيامهم ببغداد ، وفاس بدمشق ، لما احتوته المدينتان الشهيرتان من قصور فخمة ، وحدائق غنّاء ، ومساجد جميلة ، ومستشفيات ومدارس غاية في الإتقان ، وبنايات عمومية أخرى ، كالحمامات والسقايات والأسواق والطرق ، التي نالت حظها الوافر من العناية والجمال . وقد كان للصناع والمهندسين الأندلسيين ، الذين استقدموا إلى المغرب في مناسبات متعددة أعظم الفضل في نشر الحضارة الأندلسية الزاهرة في الربوع المغربية ، بل إن فضلهم تعدى إلى أقطار الشمال الإفريقي كله وغيرها .

ومما يؤسف له أن معظم مآثر المرابطين والموحدين اندثرت ، ولم يبق منها إلا أطلال ، ولكنها أطلال ناطقة بما بلغه الفن والعظمة في عهدهم الغابر .

ولم يكن الفن ممثلاً في الناحية المعمارية فقط . فقد كان أيضاً يشمل أنواع الملبوسات ، وأشكال الصنائع . فكان للتطريز الأندلسي والنقش والتكفيت روعته ، وأثره الفعال في تطوير المغرب من الناحية الفنية . ومظاهر الحضارة الأندلسية في هذا الميدان ما زالت واضحة في المغرب ، خصوصاً في تطوان وفاس وسلا . فكثير من العادات وأثاث البيوت وأنواع الملبوسات وأساليب الفلاحة وأشكال الصناعة، ذات طابع أندلسي، تبلور في قالب مغربي .

2 — اتصال الفكر المغربي والفكر الأندلسي :

ما رأيك في أمتين عاشتا متحدتين اتحاداً سياسياً ما يقرب من ثلاثة قرون ؟ لا شك أنك تحكم في الحال ، أنهما احتكتا ببعضهما احتكاكاً قوياً ، وتبادلتا المنافع بصورة واسعة، بل إنك ربما حكمت أنهما انصهرتا انصهاراً تاماً ، إذا علمت أن الأمتين هما : الأندلس والمغرب ، وذلك لاعتبارات أخرى غير الزمان . فدين الأمتين هو الإسلام، وأصل المغاربة أو معظمهم وأكثر سكان الأندلس المسلمين عرب ، فلم يشعر مسلمو الأندلس أيام حكم المرابطين والموحدين لهم بتلك الوحشة والنفور اللذين تشعر بهما — عادة — أمة كتب عليها أن تخضع لأجنبي ، لا تربطها به رابطة الدم واللغة والدين .

إن ما حصل من تمازج بين الفكر المغربي والفكر الأندلسي في عهد الموحدين — على الخصوص — بسبب ما ذكرنا آنفاً ، وبسبب كثرة الوافدين من علماء الأندلس وأدبائها وشعرائها الفطاحل على المغرب ، ونشرهم لأنواع الثقافة بين المغاربة ، ثم انتقال طوائف من علماء المغرب

وأدبائه بدورهم إلى الأندلس ، وقيامهم بنفس الدور العظيم — إن ما حصل من ذلك—ليدعو إلى الدهشة والإعجاب، ويتعذر معه اعتبار الفضل في تكوين هذا العالم الأندلسي إلى الثقافة الأندلسية الخالصة ، أو اعتبار الفضل في تكوين هذا العالم المغربي إلى الثقافة المغربية المحض . وإذا كان هناك تمييز في هذا المضمار فهو في عهد المرابطين لا الموحدين .

وقد استمر هذا التمازج بين البلدين الشقيقين كما تعزز بكثرة الهجرات الأندلسية المتوالية ، خصوصاً في القرن السابع الهجري،الذي شهد سقوط معظم المدن الأندلسية في أيدي الإسبان .

• نقاط التلخيص •

- كانت الدولة المرابطية تمثل المبدأ الأسمى للحكم الإسلامي ، وكان العامل الديني هو المحرك لها في كل شيء تقريباً .
- كان الاتصال بين المغاربة والأندلسيين محدوداً في الناحية الفكرية والفنية على عهد المرابطين ، لأسباب أهمها : بداوة المرابطين .
- اعتنى المرابطون بتقليد الجانب المادي من حضارة الأندلس اكثر من غيره ، فبنوا المساجد والقصور ، إلى جانب الحصون والقلاع ذات الطابع البربري .
- يقال إن الاحتكاك كان قوياً جداً في العهد الموحدي بين الأندلسيين والمغاربة ، حتى تعذر معه رد الأشياء إلى اصولها ، خصوصاً في الناحية الفكرية والفنية .
- كان من الأسباب التي قوّت تمازجنا بالأندلسيين اتحادنا معهم في الدين واللغة والدم المشترك إلى جانب عامل الزمان .

أسئلة

1 — ما الدعوة التي قامت على أساسها الدولة المرابطية ؟ لم قضى يوسف على ملوك الطوائف وضم الاندلس الى ملكه ؟

2 — حدد مدى الاحتكاك بين المغاربة والاندلسيين على عهد المرابطين خصوصاً في الناحية الثقافية والفنية ؟ اذكر شواهد على ذلك ؟

3 — ما مبلغ الاتصال المغربي الاندلسي في العهد الموحدي ، في ناحيتي الثقافة والفن ؟

4 — لم كان التمازج في العهد الموحدي أقوى منه في العهد المرابطي ، حتى قيل انه كان من الصعب رد الاصل الى مصدره ؟ علل الاسباب .

الدرس الخامس عشر :

عهد بني مرين

بنو حفص في تونس – بنو عبد الواد في الجزائر

●

عهد بني مرين (668 – 961 هـ)

ينتمي بنو مرين إلى قبيلة زناتة البربرية العظيمة ، فهم كالمغراويين واليفرنيين وغيرهم من القبائل المنتمية إلى زناتة . وكان موطنهم الأول هو الصحراء فيما بين الزّاب وسجلماسة ، أي بين بسكرة بالقطر الجزائري الشقيق، وبين تافيلالت بمغربنا . وكانوا يعيشون أحراراً لم يدينوا بالطاعة لملك من الملوك ، وكانت طوائف منهم ترتاد تخوم المغرب في فصلي الربيع،والصيف،لانتجاع المراعي الخصبة . ولقد كانوا ينتقلون بأولادهم ودوابهم ، حتّى إذا ما حل فصل الشتاء عادوا إلى بلادهم .. وهكذا كانت حياتهم .

وقد استعان المنصور الموحدي بطوائف منهم في حروبه،في الأندلس،

وبالأخص في غزوة الأراك ، التي أبلى فيها المرينيون البلاء الحسن،فكان لهم اليد الطولى والقدح المعلى في تحقيق النصر المبين على الأعداء .

ثم حلت الهزيمة النكراء بالموحدين أيام ضعفهم بالأندلس في الواقعة المشهورة بغزوة العقاب سنة 609هـ ، وخصوصاً بعد أن تفشى عقب تلك الغزوة ذلك الوباء الخطير الذي قضى على حياة ألوف الناس .

وفي سنة 610 هـ دخل بنو مرين إلى المغرب كعادتهم بقيادة أميرهم يومئذ،عبد الحق ، فوجـــدوا الأرض التي اعتادوا ارتيادها خالية من السكان وأغنامهم ، على الرغم من جودة المرعى وطيب التربة ، ووفرة المياه . فاستطابوا العيش فيها بصفة مستديمة ، ومن هناك بدأوا يشنون الغارات على أهالي المغرب ، فرفع الناس بهم شكاتهم إلى الخليفة الموحدي بمراكش يوسف . فجهز هذا جيشاً قوياً وأمره بمحاربة المرينيين . ولكنه انهزم . وفي اشتباك المرينيين الثاني مع الموحدين سقط في المعركة أميرهم عبد الحق ، وولده الأكبر إدريس . فقام بأمرهم بعد ذلك أبو سعيـــد عثمان بن عبد الحق . ولما مات هذا بطعنـــة سنة 638 هـ تولى شؤونهم أبو معروف محمد ، أخو المتوفى . فلما قتل هذا في إحدى المعارك مع الموحدين سنة 642 هـ ، قام بإدارة أمرهم أبو بكر أخو الأمير المتوفى في السنة نفسها .

وكان أبو بكر هذا خاضعاً في الواقع لبني حفص ، أصحاب إفريقية ، ولما استولى على مكناسة،جهز السعيد علي بن المأمون ، الخليفة الموحدي ، جيشاً جراراً ، وتوجه به لمحاوبة المرينيين . غير أن أبا بكر أمير بني مرين ، لما رأى أنه لا قبل لجيشه بمواجهة جحافل الموحدين ، أخـــلى مكناسة،وأسرع في التوجه مع قومه إلى الريف بشمال المغرب، حيث تحصنوا

هناك . ثم بعث أبو بكر الى الخليفة الموحدي يعلن له طاعة بني مرين وولاءهم ، فقبل الموحدون منهم ذلك وتركوهم وشأنهم،شبه مستقلين .

ويعتبر الأمير أبو بكر أول مؤسس لدولة بني مرين، كما كان أول من نادى بنفسه ملكاً على المغرب منهم .

وثار الموحدون في مراكش على السعيد خليفتهم ، فطلب من ملك قشتالة أن يساعده على إخماد الثورة وإرجاع المدينة . فاشترط عليه الملك الإسباني أن يتنازل له عن عشرة حصون أندلسية ،فأجاب الموحدي طلبه ،فجاءته عشرة آلاف من جنود قشتالة ،بناء على الاتفاق.فحارب بها قومه الموحدين، وتمكن من دخول مراكش ، فقتل بها ما يقدر بأربعة آلاف شيخ من شيوخهم . ولكـــن رغم ذلك فإن الثورات ظلت محتدمـة في كل مكان ضده ، ولم يوفق في التغلب عليها أبداً .

ثم عزم الخليفة السعيد على محاربة يغمراسن بن زيان بتلمسان . فأمده الأمير المريني أبو بكر بخمسمائة جندي من رجاله . ولكن الحرب انتهت بقتل الخليفة ، وانهزام جيوشه شر انهزام ، وذلك سنة 629 هـ. وهكذا ظلت إفريقية والمغرب الأوسط بأيدي الحفصيين ، أصحاب تونس . أما الأندلس فكانت الثورات الأهلية بها لا تخمد لها أوار . بينما كان المسيحيون ينقضون على أراضي المسلمين،ويستولون على مدنهم وقراهم ، حتى لم يبق في أيديهم في نهاية الأمر سوى إمارة غرناطة وضواحيها .

ولما عادت النجدة المرينية من الحرب الخاسرة ، وعلم أبو بكـــر بما وقع للموحدين ، قوي أمله من جديد في بسط سلطانه على المغـرب . وهكذا شمر عن ساق الجد ، وحارب الموحدين الضعاف . فكان دائماً ينتصر عليهم . وفي سنة 656 هـ توفي الأمير أبو بكر من أثر مرض ألمّ

به ، فخلفه على الملك ابنه أبو حفص عمر . وكان لهذا عم هو يعقوب ابن عبد الحق ، فحصلت نفرة بينه وبين عمه ، ثم اصطلحا على أن يحتفظ العم ببلاد تازا ونواحيها ، التي كان أخوه أبو بكر قد أقطعه إياها في حياته . وهكذا صار أبو حفص عمر ملكاً على بني مرين في المغرب ، عدا منطقة تازا وضواحيها ، التي بقيت بيد عمه يعقوب .

يعقوب المنصور وأعماله العظيمة

وبعد ذلك اجتمع شيوخ بني مرين وقوادهم عليه يعقوب ، وشجعوه على المطالبة بالملك . فحارب ابن أخيه عمر وهزمه . فاضطر المهزوم أن يتنازل لعمه عن ملك المغرب ، على أن يحتفظ بمكناسة ونواحيها . ولكنه لم يمكث بها أياماً حتى اغتاله أحد أقربائه . وهكذا خلا الجو ليعقوب ، وأصبح هو الملك المطاع لبني مرين.وقد تصدى لمحاربة الموحدين من أول وهلة ، فألحق بهم الهزائم المتوالية ، واستولى على معظم المغرب . وفي سنة 668 ه استطاع أن يستولي على مراكش عاصمة الموحدين ، ويقضي على ملكهم نهائياً ، بعد أن دام الصراع بينهم وبين المرينيين زهاء ست وخمسين سنة .

وكان يعقوب عالماً ، كفؤاً في الحرب والسياسة . وهو الذي بنى مدينة فاس الجديدة سنة 674 ه واتخذها عاصمة لدولته. ومن أعماله الخالدة أنه أسس بالمغرب كثيراً من المدارس العلمية ، والمستشفيات ، لإيواء المرضى والعجزة ، وأجرى عليهم النفقات .

أما أعماله الحربية خارج المغرب ، فإنه انتقل إلى الأندلس برسم

الجهاد أربع مرات ، تلبية لاستصراخ الأندلسيين إيا ، وقد حقق النصر على الإسبان في جميع حروبه هناك . وكان من شروطه التي اشترطها على النصارى المغلوبين في الأندلس ، أن يعيدوا إليه كتب المسلمين التي كانوا قد استولوا عليها ، فجاءته منها أحمال كثيرة ، تحتوي على كتب القرآن والتفسير والفقه واللغة ، فأخذها وفرقها على طلاب العلم في فاس.

ومما يبرهن على عظمة هذا الملك وقوته ايضاً ، أن الفونس العاشر المسمى بالحكيم ، طلب منه أن يعينه على ابنه الخارج عليه سانجة ؛ فلبى طلبه . وحقق للملك الإسبان رغبته،ثم رجا الفونس من ملك المغرب المنصور أن يسلفه قدراً من المال ليصلح به أحوال مملكته ، فأمده يعقوب بمال قدره مائة ألف دينار ، ودفع له الفونس تاجه الموروث كرهينة مقابل ذلك .

وفاة المنصور وتولية خلفه من بعده

وفي سنة 685 ﻫ توفي يعقوب المنصور العظيم إثر مرض ، وكان موته في قصره بالجزيرة الخضراء ، ثم حمل إلى المغرب ، ودفن بمسجد شالة . وقد تولى الملك بعده ابنه يوسف ، ومن أعماله أنه جعل المولد النبوي عيداً رسمياً في المغرب . وجرت له حروب في الأندلس ضد النصارى انتصر فيها ، ثم انهزم في معركة بحرية ، وانتصر في أخرى، وتمكن من الاستيلاء على بوغاز جبل طارق . وكاد ينتصر في حروبه ضد عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان ولكنه قتل غدراً على يد أحد عبيده سنة 706 ﻫ . وهكذا نجت تلمسان من السقوط في يد بني مرين.

وبعد يوسف تولى أمر البلاد حفيده عامر بن عبدالله . ومن أعمال هذا انه عقد صلحاً مع أصحاب تلمسان من بني زيان،لينصرف إلى سبتة، التي كان ابن الأحمر قد استولى عليها . وفي سنة 708 ه بنى مدينة تطوان لتكون مقراً لجيوشه التي تحارب سبتة . واستقر هو في طنجة إلى أن مات فيها في نفس السنة المتقدمة .

وبعد هذا تولي أخوه المسمى سليمان ، ويمتاز عصره برغد العيش ، واستتباب الأمن ، وبناء الدور والقصور . فلما توفي سنة 710 ه ، تولى بعده عثمان بن يعقوب . ومن أعماله أنه أنشأ الأساطيل البحرية . وفي أيامه تقدم بطرس الأول ، ملك قشتالة للقضاء على ملك بني الأحمر في غرناطة ، فحاصر المدينة ، ولم يستطع الملك المريني أن ينجد إخوانه الأندلسيين لاشتغاله بالحرب مع بني زيان أصحاب تلمسان.ولكن رجال حامية المجاهدين من بني مرين، المستقرين في الأندلس كفوه مؤونة ذلك ، إذ تقدموا نحو العدو وانتصروا عليه ، رغم قلتهم . وفي سنة 731 ه توفي الملك عثمان ، فخلفه ابنه أبو الحسن .

أبو الحسن المريني وأعماله

تولى ملك بني مرين بعد وفاة عثمان ابنهُ أبو الحسن المشهور بالسلطان الأكحل لسمرة لونه . ومن صفاته أنه كان شجاعاً عالماً ورعاً . ومن أعماله في المغرب أنه بنى كثيراً من مدارس العلم،وخصص لها الجرايات . وما زالت آثاره العمرانية ماثلة إلى يومنا هذا . وقد قضى عمره كله في الجهاد سعياً وراء توحيد الشمال الإفريقي ، كما كان على عهد الموحدين،

ودفاعاً عن دويلة بني الأحمر في الأندلس . وفعلاً تمكن من الاستيلاء على المغرب الأوسط والمغرب الأدنى ، ووحدهما مع المغرب . كما تمكن من إحراز النصر على النصارى في معركة بحرية جرت بين أساطيله وأساطيلهم في البوغاز .

ثم اتحد القشتاليون والبرتغاليون واشتبكوا مع أبي الحسن في معركة بحرية ، فتم لهم النصر على الملك المريني ، وذلك سنة 741 هـ . ثم جرت معركة بحرية هائلة أخرى بين أساطيل أبي الحسن وأساطيل الإسبان والإيطاليين فكتب لهم النصر العظيم عليه أيضاً . وعقب ذلك اشتدت مضايقة القشتاليين لسكان الجزيرة الخضراء ، فطلبوا الأمان على أساس أن يرحلوا عن المدينة . فلبى ملك الإسبان عرضهم ، وساعدهم على الجواز إلى عدوة المغرب ، وذلك سنة 743 هـ . وبانهزام أبي الحسن ذلك الانهزام الشنيع ، واستيلاء العدو على الجزيرة الخضراء ، ثم على قلعة بني سعيد التي هي ثغر غرناطة ، أصبحت إمارة بني الأحمر محاصرة بالنصارى ومهددة بالسقوط في أيديهم .

نهاية أبي الحسن وتولية أبي عنان

بعد ذلك توجه أبو الحسن إلى تونس لإخماد ما بها من ثورات . وقبل أن يسافر ترك ابنه أبا عنان نائباً عنه في تلمسان . ولكن أبا الحسن لم يوفق في حركته الحربية ضد التونسيين . وسمع ابنه بذلك فترك تلمسان وتوجه إلى المغرب ، خوفاً من أن تقوم به ثورات ضد المرينيين أيضاً . وما أن خرج من تلمسان حتى قامت بها ثورة ضد الملك المريني . وعاد

الناس من جديد إلى طاعة بني زيان .

وفي المغرب أعلن أبو عنان نفسه ملكاً عليه خلفاً لأبيه ، وذلك إثر إشاعة مضمونها : أن والده قد مات في معركة بتونس . وسمع أبو الحسن بذلك ، فركب البحر مع رجاله في عدد من سفنه ، تقدر بنحو 600 قطعة . ولكن الأسطول غرق بما فيه ، ونجا هو بأعجوبة ، على خشبة ، وتمكن من الوصول إلى أرض الجزائر الشقيقة . وهناك اجتمع حوله كثير من الأعراب ، فحارب بهم بني زيان أصحاب تلمسان . ولكنه أصيب بالهزيمة . ثم انتقل إلى المغرب ، فلم يرض ابنه أبو عنان أن يتخلى له عن العرش ، وحارب أباه . وفي سنة 752 هـ توفي أبو الحسن فصفا الجو لابنه . وهكذا انتهت حياة هذا البطل الفذ ، الذي كان شغوفاً بالعلم ، مجاهداً في سبيل وحدة المغرب العربي وحماية بقايا مسلمي الأندلس. ويقال إن حوالي 400 عالم كانوا معه في أسطوله غرقوا كلهم في البحر. وهذا يدل على تقدم العلم ووفرة العلماء في عهده .

ومن آثاره الباقية مدرسة طالعة سلا ، ومدرسة مراكش ، التي اشتهرت بمدرسة ابن يوسف ، ومدرسة مكناس التي صرف من أجل بنائها أموالاً عظيمة جداً . وكانت لهذا الملك العظيم صلات صداقة وأخوة مع ملوك الشرق ، خصوصاً مع ملك مصر الناصر محمد بن قلاون ، الذي أهداه هدايا مغربية عظيمة جداً .

أعمال أبي عنان

ومن آثار أبي عنان الباقية إلى يومنا : المدرسة البوعنانية بفاس ، التي

تعتبر من أجمل مدارس بني مرين فناً وجمالاً . وقد جعل بباب المدرسة ساعة عجيبة ذات أجراس كثيرة . وما زالت بقاياها ماثلة للعيان ، إذ كان هذا الملك مولعاً ولعاً شديداً بالعلم ومؤسساته ، وكان يمتلك خزانة عظيمة من الكتب ، ولم يكن يضن بها على أحد من الراغبين في الاطلاع عليها . وفرق كثيراً منها على الطلاب ، الذين خصص لهم نفقات دائمة .

ومن أعماله الحربية أنه حارب بني زيان واستعاد المغرب الأوسط ، كما أنه تقدم في المغرب الأدنى ، ولكن بحذر ، خوفاً من أن يقع فيما وقع فيه والده هناك . وهكذا سعى أبو عنان إلى استرجاع وحدة الشمال الإفريقي ، تحقيقاً للأمنية الغالية التي عمل من أجلها معظم ملوك المغرب.

وفاته ومآل دولة بني مرين

ولما أصيب أبو عنان بمرض ، دخل عليه وزيره الخائن الحسن بن عمر الغودودي ، متظاهراً أنه جاء لزيارته ، فلما اختلى بالملك المريض قتله خنقاً ، وذلك سنة 759 هـ .

وبموت هذا الملك انتهت عظمة بني مرين ، وتلاشت أمبراطوريتهم وتمزقت وحدتهم ، إذ بعد ذلك طغى نفوذ الوزراء ، واستبدوا بالملوك المرينيين الضعاف ، الذين تعاقبوا في أيامهم ، فعجلوا بسقوط دولتهم، وآل الأمر في النهاية إلى الوطاسيين أبناء عمومتهم .

بنو حفص في تونس

بنو حفص أصحاب المغرب الأدنى ، هم فرع من المصامدة ، الذين ينتمي إليهم عبد المؤمن الخليفة الموحدي ، وكانت هذه الدولة الحفصية تابعة للموحدين . وعندما مالوا إلى الضعف ، طمع بنو حفص في السيطرة على المغرب ، باعتبارهم أحق الناس ، من ناحية قرابتهم بالخليفة. وكان أميرهم آنذاك هو أبو زكريا يحيي الهنتاني ، وسرعان ما أعلن هذا نفسه أميراً للمؤمنين ، خلفاً للموحدين ، وذلك سنة 624 هـ .

وعندما ظهر بنو مرين على مسرح السياسة وظفروا بملك المغرب ، كانوا يدعون لأبي زكريا الحفصي ، سياسة منهم ، فكان الحفصيون مقابل ذلك يمدونهم بالمساعدات المالية والأدبية . وظلت الحالة على ما هي عليه ، حتى تولى ملك المغرب يعقوب المنصور ، فقطع نهائياً دعوة بني حفص . ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع السياسي والحربي بين دولة بني مرين ودولة بني حفص ، ولكن الغلبة والظهور كانا دائماً لبني مرين ، خصوصاً في عهدي أبي الحسن المريني وولده أبي عنان .

بنو عبد الواد في الجزائر

بنو زيان أصحاب الجزائر هم المعروفون ببني عبد الواد . وكانت هذه الدولة تدين بالطاعة إلى بني حفص ، أصحاب تونس . وكان كل من بني عبد الواد وبني مرين ، يسعى للقضاء على الآخر والسيطرة على الشمال الإفريقي ، إلا أن بني عبد الواد كانوا يعملون لحساب دولة

بني حفص . وكانت الغلبة في هذا الصراع دائماً للمرينيين . ففي أيام يعقوب تقدمت الجيوش المرينية إلى بني عبد الواد ، فتغلبت عليهم ، واستولت على عاصمتهم تلمسان ، ولكن دولتهم سرعان ما عادت إلى الظهور .

وفي أيام أبي الحسن المريني تقدمت جيوش بني مرين إلى تلمسان، فقضوا على دولتها ، كما قضوا على دولة بني حفص . وبذلك تحققت وحدة الشمال الإفريقي على يد بني مرين . ولكن الجزائر وتونس ثارتا على بني مرين ، وأعادت كل منهما دولتها . وفي عهد أبي عنان بن أبي الحسن توجهت الجيوش المرينية إلى إخضاع بني عبد الواد وبني حفص ، فنجحت في مهمتها . ولكن الدولتين عادتا إلى الظهور من جديد ، بعد أن دب الضعف في صفوف بني مرين .

• نقاط التلخيص •

- بنو مرين ينتمون إلى قبيلة زناتة العظيمة . وانتقلوا من الصحراء موطنهم الأول إلى المغرب وسكنوه بصفة مستديمة بعد واقعة العقاب، التي اندحر فيها الموحدون بالأندلس .

- كان الموحدون يعتمدون قبل ذلك على مساعدة المرينيين في حروبهم ضد نصارى الأندلس ، مما كان له بعض الفضل فيما أحرزوه من انتصارات على أعدائهم هناك .

- تمت نهاية الموحدين على يد يعقوب المنصور السلطان المريني سنة 668 هـ ، الذي انتقل إلى الأندلس أربع مرات للدفاع عن مسلمي الأندلس . وانتصر على النصارى في جميع حروبه،حتى اضطرهم إلى طلب المهادنة ، واشترط عليهم شروطاً في صالح المسلمين فنفذوها .

- على يد السلطان المريني أبي الحسن تحققت وحدة الشمال الإفريقي من جديد ، كما حارب النصارى دفاعاً عن مسلمي الأندلس . وبعد موته صفا الجو لابنه أبي عنان فسار هذا على سيرة أبيه في تحقيق الأعمال العظيمة ، وبموته تلاشت وحدة الشمال الإفريقي مرة أخرى . واشتد خطر المسيحيين على مسلمي الأندلس ، نتيجة لضعفهم .

- كان بنو حفص — حكام تونس — وبنو عبد الواد — حكام الجزائر — ينازعون المغرب من أجل تحقيق وحدة الشمال الإفريقي، ولكن الغلبة كانت دائماً لملوك المغرب المرينيين .

أسئلة

1 – ما موطن بني مرين الاصلي ؟ كيف استقروا في المغرب ؟ في أي سنة ؟

2 – كيف تولى يعقوب المنصور ملك بلاد المغرب ؟ أذكر أعماله العظيمة في الناحية المدنية والحربية .

3 – ما أعظم عمل سياسي حققه أبو الحسن المريني في الشمال الإفريقي ؟ ما رأيك في ذلك ؟ كيف انتهت أيام أبـي الحسن ؟

4 – كيف تولى أبو عنان ملك بني مرين ؟ أذكر أهم أعماله في المغرب والاندلس .

5 – ما علاقة بني مرين ببني حفص وبني عبد الواد ؟ على أي شيء كان تنافس هـذه الدول الشقيقة ؟ ما رأيك في ذلك؟

الدرس السادس عشر :

بنو الاحمر في غرناطة

سقوط مملكتهم ونهاية دولة الإسلام بالأندلس

●

بنو الأحمر في غرناطة

بعد أن مني الموحدون بتلك الهزيمة النكراء في وقعة العقاب ، عاد الأندلسيون من جديد إلى فرقتهم وتناحرهم من أجل الملك والسيادة ، وعملوا متحدين على التخلص من حكم الموحدين ، بل وحاربوهم ،ونكلوا بشيوخهم وقادتهم وأنصارهم ، وهكذا عادت الأندلس إلى ما يشبه العهد الطائفي . ولكن في هذه المرة لم يكن العدو الإسباني مشغولاً بالحروب الداخلية كما كان من قبل ، بل كان متحد الكلمة ، قوي الشكيمة ، ثابت العزيمة على محاربة المسلمين ، والقضاء عليهم ، وتطهير اسبانيا من آثارهم .

وفي الوقت الذي كان عدو المسلمين يعيث في أرضهم فساداً ، ويستولي

في كل يوم على عدد من حصونهم ومدنهم ،كانت الفتنة شديدة بينهم ، ولم يحسوا باستفحال الخطر عليهم إلا بعد سقوط قرطبة وإشبيلية، قاعدتي الأندلس المسلمة . وكان يتزعم هذه الفتنة في الأندلس رجلان هما : محمد بن يوسف بن هود الجُذَامي ، ونصر المعروف بالشيخ ابن الأحمر ، الذي قام ينازع ابن هود على رئاسة الأندلس الجريح . وكان كل من هذين الرجلين — خصوصاً ابن الأحمر — يستنجد بالعدو ليظهره على منافسه .

وهكذا تمكن ابن الأحمر في نهاية الأمر من القضاء على ابن هود ، وما أن صفا له الجو في الأندلس ، حتى بادر بمصالحة ملك الإسبان ، على أساس ان يتنازل له عن أراضي الأندلس التي سقطت في يده ، والتي لم تسقط بعد ، وانتقل هو بفلول المسلمين وحطامهم إلى مدينة غرناطة وضواحيها ، الممتدة الى البحر ، وكوّن له بها دولة بني الأحمر. وفي غرناطة ابتنى لنفسه قصراً فخماً لسكناه ، وهذا القصر هو المعروف بالحمراء ، ثم عهد بأمر الدولة إلى ابنه محمد ، المعروف بالفقيه لطلبه العلم ، وأوصاه أن يطلب النجدة من بني مرين ، كلما ضيق الإسبان الخناق عليه .

استنجاد بني الأحمر ببني مرين

وما أن بدأ العدو يشن هجماته الشديدة على أطراف مملكته ، حتى بادر إلى طلب النجدة من بني مرين ، عملاً بوصية والده ، وهكذا حضر وفده إلى يعقوب المنصور ، ورغّبه في الجواز إلى الأندلس من

أجل إنقاذ المسلمين هناك مما هم فيه من ضيق وحرج . ولم يتوانَ الملك المغربي لحظة ، إذ استعد في الحال استعداداً عظيماً ، براً وبحراً ، وآمر ابنه أبا زيان بالتوجه إلى عدوة الأندلس على رأس الجيوش المرينية والأساطيل البحرية ، فنزل بنو مرين بطريف سنة 673 هـ ، ثم اشتبكوا مع العدو الإسباني في معارك دموية ، تم للمرينيين فيها النصر المبين على عدوهم ، فأثخنوا في جنوده وغنموا سلاحه وأمواله ، وخربوا دياره ، ثم قفلوا راجعين بقيادة بطلهم أبي زيان بن يعقوب المنصور إلى الجزيرة الخضراء .

أما الأسبان فإنهم لم يذعنوا للسلم، على الرغم مما أصابهم من انكسار شنيع وخيبة أمل . فما أن رجعوا إلى ديارهم حتى شرعوا في الاستعداد الهائل لاستئناف الحرب ضد المسلمين، طمعاً في القضاء عليهم بالأندلس . وما أن علم يعقوب بذلك حتى وطّد العزم على أخذ الأهبة اللازمة ، والعبور بنفسه إلى الأندلس ، لمنازلة العدو هناك . وخوفاً من أن يطعنه من الخلف يغمراسن بن زيان ، صاحب تلمسان، بعث اليه يعقوب بوفد لعرض الصلح بينهما ، تحقيقاً لوحدة المسلمين ، وتعاوناً على محاربة العدو الإسباني بالأندلس. فلبى يغمراسن طلب يعقوب، وبذلك برهن هذا على همته العالية ، وأدى للإسلام والمسلمين أعظم خدمة .

الجواز الأول ليعقوب المنصور إلى الأندلس :

في سنة 674 هـ عبر يعقوب المنصور البوغاز ونزل مع جيوشه الجرارة بعدوة الأندلس لأول مرة ، وتسلم بعض الثغور الساحلية بناء على اتفاق بينه وبين ابن الأحمر . وكان سبب عبوره بنفسه أنه سمع باستعداد العدو

لشن هجوم عظيم على المسلمين ، لأخذ الثأر مما حل بهم من الهزائم المتكررة على يد المرينيين . وهناك وقعت معركة حامية الوطيس بين المسلمين وعدوهم ، فكانت العاقبة السيئة على النصارى ، حيث إنهم انهزموا شر هزيمة على يد ملك المغرب . فسقطت في الميدان آلاف من الجنود ، أمر يعقوب بقطع رؤوسها وتصفيفها على شكل مآذن . وأذن عليها المؤذنون صلاتي الظهر والعصر ، على غرار ما فعله يوسف بن تاشفين ، عقب انتصاره العظيم في معركة الزلاقة ، وسقط في المعمعة أيضاً قائد الجيوش الإسبانية ، فبعث المنصور برأسه إلى ابن الأحمر ، كبشرى بالانتصار . ويقال بأن محمداً الفقيه ، خضّب رأس الزعيم الإسباني بأنواع الطيب ، ووضعه في صندوق بولغ في إتقانه ، ثم بعث به إلى ملك الإسبان ،راجياً من عمله هذا الظفر برضى الإسبانيين ، واتخاذهم أصدقاء وعوناً على بني مرين . ثم عاد يعقوب إلى المغرب مسقط رأسه الذي غاب عنه في الأندلس مدة ستة أشهر .

جوازه الثاني إلى الأندلس :

في سنة 676 هـ عبر يعقوب المنصور البوغاز مع جيوشه،ونزل بأرض الأندلس ، برسم الجهاد ، فحل بطريف ، ثم بالجزيرة الخضراء، ومنها إلى رُندة ، ومن هذه توجه إلى إشبيلية ، التي كان بها يومئذ ملك الجلالقة ابن أذفونش ، فخرجت عساكر النصارى من المدينة لملاقاة المسلمين في حشودها العظيمة . فنشبت معركة هائلة بين الفريقين ، أبليا فيها معاً البلاء الحسن . ولكن خاتمتها انتهت بانتصار المسلمين على عدوهم انتصاراً حاسماً . وتتبعت جيوش المنصور فلول العدو في مسارح الأرض، وفي غمرة مياه وادي الكبير ، ففتكوا بخلق لا يحصى منهم .

وهكذا أصبح ميدان القتال طافحاً بالجثث ، معظمها من النصارى ، ومياه وادي الكبير مختلطة بدم القتلى . وبات المسلمون ليلتهم يثخنون ويأسرون ويسبون ويضرمون النيران في زروع العدو وحصونه بضواحي إشبيلية ، حتى لا يستفيد منها في المستقبل . أما النصارى فقد ظلوا طول ليلتهم ينفخون في الأبواق ، داخل المدينة ويحرسون أسوارها خوفاً من اقتحام المسلمين لها .

ولم يحاصر يعقوب المدينة حصاراً طويلاً ، بل ارتحل عنها إلى نواحٍ أخرى ، فدخل حصون قطنيانة ، وجليانة والقليعة ، ثم قفل راجعاً إلى الجزيرة الخضراء ، وبعد أن استراح بها مدة ، خرج غازياً مدينة شريس وغيرها ، كما بعث ابنه الأمير يوسف في عسكر كثيف للإغارة على إشبيلية وحصونها ، فحقق الابن وأبوه النصر على العدو .

وبعد ذلك توجه يعقوب بنفسه إلى قرطبة لغزوها ، وكانت يومئذ مركزاً مهماً من مراكز العدو ، واستنفر لهذه الغاية ابن الأحمر ، فلبى الدعوة ، فحوصرت قرطبة من لدن يعقوب وابن الاحمر حصاراً شديداً بعد أن انهزم العدو في الحرب انهزاماً ذريعاً . فلما أيقن النصارى أنهم على وشك الهلاك ناشدوا السلطان المنصور أن يعقد الصلح معهم ، ولكن يعقوب رفض أن يتم ذلك على يده ، وهو ليس إلا ضيفاً في البلاد ومجاهداً في سبيل الله ، وأحالهم على ابن الأحمر باعتباره رب البيت . وهكذا عقد الصلح بين المسلمين والنصارى بعد أن أقسموا بصلبانهم أنهم سيحترمون المعاهده . ثم عاد السلطان المغربي إلى بلاده مسقط رأسه سنة 677 هـ .

الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر

عندما اجتاز يعقوب المنصور إلى الأندلس جوازه الثـاني لم يستقبله ابن الأحمر حتى خاطبه السلطان المريني في ذلك وألح عليـه ، فشاركه في العمليات الحربية ، وجاءه ابن شقيلولة بعد ذلك إلى المنصور وعرض عليه أخذ مدينة مالقة منه ، وإذا رفض فإنه يسلمها إلى النصارى دون ابن الأحمر خصمه ، وأمام ذلك لم يجد يعقوب بداً من قبول المدينة ، خوفاً على المسلمين ، فكان هذا أيضاً من الأسباب التي زادت في ثورة ابن الأحمر ضد السلطان المنصور ، وساءت العلاقة بين السلطانين المسلمين.

ولجأ ابن الأحمر – بدافع الخوف – إلى ملك الإسبان لينصره على السلطان المريني ، فسر العدو بهذه الفرصة ، وخان العهد الذي كان قد قطعه على نفسه باسم الصليب للمحافظة عليه ، وهو ألا يثير الحرب ضد المسلمين . وهكذا أغار على الجزيرة الخضراء ، التي كانت بيد المرينيين، وساعـده على ذلك ابن الأحمر ، الذي استولى على مالقة التابعة لبني مرين أيضاً .

ولم يكتف ابن الأحمر بذلك،بل راسل هو وصديقه الإسباني صاحب تلمسان يغمراسن ليهـاجم من جانبه يعقوب المنصور . وهكذا اتفق الجميع على محاربة المرينيين ، الذين أوقفوا حياتهم على الجهاد في سبيل الله ، دفاعاً عن حومة الإسلام . ولكن يقعوب تغلب على يغمراسن ، واستعد استعداداً عظيماً لمقاتلة العدو الإسباني في عقر داره . ولما رأى ابن الأحمر ان الجزيرة الخضراء على وشك السقوط في يد النصارى . وسمع أيضاً بتأهب السلطان المريني لفك الحصار عنها،ندم أشد الندم ، وأمر أسطوله

بمساعدة المرينيين في عملهم الحربي ، تكفيراً لخطيئته . ونشبت معركة بحرية بين أساطيل المسلمين وأساطيل النصارى ، فتم الظهور فيها للمسلمين وفك الحصار عن الجزيرة . وصفح يعقوب عن ابن الأحمر كعادته .

الجواز الثالث ليعقوب :

وفي سنة 681 ه قدم هراندة ، الملك الإسباني مع رجال حاشيته إلى المغرب ، واستقبل السلطان يعقوب ، وطلب منه مساعدته حربياً ومالياً على ابنه سانجه ، الخارج عليه . فاجتاز معه إلى الأندلس بجيوش بني مرين الشجاعة ، وانتصر له على ابنه وأمده بما يحتاج من المال .

جوازه الرابع :

وفي سنة 684 ه يمم يعقوب المنصور وجهه شطر عدوة الأندلس برسم الجهاد ، فلما انتصر على سانجه وجيوشه استعطفه هذا الملك الإسباني لقبول صلح معه . فأجابه السلطان لذلك عملاً بقول الله : « فإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ، وذلك بعد أن اشترط عليه شروطاً كلها في صالح المسلمين .

استصراخ أهل الأندلس بسلطان المغرب

ثم توقف الغزو المريني بالأندلس مدة من الزمان ، منذ عهد السلطان يوسف . وفي عهد أبي سعيد جاءت وفود أهل الأندلس إلى السلطان مستصرخين به لإنقاذهم من هجمات بطرس ملك اسبانيا،الذي صمم عزمه

على القضاء على المسلمين ، والاستيلاء على عاصمتهم غرناطة ، وذلك سنة 718 هـ . ولكن السلطان لم يتمكن من القيام بواجب الجهاد كعادة بني مرين . غير أن شيخ الغزاة المريني أبا العلاء كفاه مؤنة ذلك ، فهجم على العدو برجاله القليلين وهزمه . وفي تلك الموقعة قتـل الملك بطرس وطائفة من قواده العظام .

وفي عهد أبـي الحسن المريني تقدم بنو الأحمر بشكاتهم لعاهل المغرب بما يعانيه مسلمو الأندلس من العنت والإغارة من جانب النصارى ، فأمر السلطان جيوشه بالجواز إلى الأندلس للقيام بواجب الجهـاد . وتمكنت جيوش المسلمين من استخلاص جبل طارق من يد العدو،وانتصرت عليه في كثير من المعارك الأخرى .

استئساد العدو واقتراب الساعة

وفي سنة 742 هـ استولى العدو على الجزيرة الخضراء ، وصمم العزم على دخول غرناطة والقضاء على دولة الإسلام،وتمكن من الإستيلاء على قلعة بني سعيد التي تعتبر المنفذ البحري لغرناطة .

وفي سنة 770 هـ استرد بنو الأحمر الجزيرة الخضراء بمساعدة عبد العزيز ملك بني مرين،الذي أمدهم بما يحتاجونه من المؤن والعتاد،ثم أخلى المسلمون الجزيرة وهدموها حتى لا يطمع العدو فيها مرة أخرى .

وفي سنة 818 هـ . استولى البرتغال عـلى سبتة ، وفي سنة 869 هـ استولوا على طنجة ، بسبب ضعف بني مرين ، فكان سقوطهما نذيراً بسقوط غرناطة ، وزوال ظل الإسلام بديار الأندلس العزيزة .

سقوط غرناطة ونهاية دولة الإسلام بالأندلس

ظل العدو يسالم دولة بني الأحمر تارة ، وينقض عليها تارة أخرى. وفي سنة 880 هـ قامت فتنة كبرى بين أبي عبدالله وأخيه أبي الحسن على الرئاسة والملك ، جرّت في أذيالها على المسلمين الخراب والدمار ، وأخيراً تنازل أبو الحسن لأخيه عما أراد. وفي إحدى المعارك مع النصارى ألقي القبض على أبي عبدالله ابن أخ الملك أبي عبدالله ، ثم فك العدو سراحه ومنّاه ووعده بالتأييد إذا هو قام بمحاربة عمه السلطان أبي عبدالله.

وهكذا حصلت فتنة جديدة بين العم وابن الأخ ، فكان ذلك من أعظم الأسباب التي ساعدت العدو على التعجيل بتحقيق أمله. وتمكن ابن الأخ من الدخول إلى غرناطة ، بسبب تواطؤ بعض رجالها ومساعدة العدو الإسباني ، وذلك في الوقت الذي كان عمه غائباً عن المدينة ، يحارب أعداء الإسلام ، وفي تلك الأثناء تقدم الإسبان إلى مالقة واستولوا عليها ، بعد دفاع أهلها دفاع الأبطال ، وذلك سنة 892 هـ.

ثم قلب العدو ظهر المجن لأبي عبدالله المتولي على عرش غرناطة ، فحاربه حرباً شديدة ، وحاصر غرناطة شهوراً ، حتى هلك خلق كثير من المسلمين بسبب الجوع ، وفي أثناء الحصار كان العدو يعيث فساداً في أعمال المدينة ، وأمام ذلك لم يجد السلطان أبوعبدالله وأهل البلد بداً من قبول الرضوخ لملك قشتالة ، بشروط تهم المسلمين ، فقبلها الإسبان ووافق عليها بابا رومة ، ووضع عليها طابعه حسب رغبة الأندلسيين زيادة في الحيطة من الغدر الذي ألفوه من النصارى الإسبان.

وهكذا دخل الإسبان غرناطة ، وعملوا على ترحيل أبي عبدالله الى المغرب آخر ملوك بني الأحمر في الأندلس ، وذلك سنة 897 . .

وبذلك انتهى مجد الإسلام وعز العرب في تلك الديار العزيزة والفردوس المفقود .

نقاط التلخيص

- عادت الأندلس من جديد إلى ما يشبه العهد الطائفي،عقب واقعة العقاب التي انهزم فيها الموحدون بسبب ضعفهم ، والتي كانت السبب في انهيار سلطانهم ، سواء بالمغرب أو بالأندلس .
- أستنجد ابن الأحمر ، صاحب غرناطة بيعقوب المنصور المريـني فجاز هذا إلى الأندلس بنفسه أربع مرات.وحارب العدو المستأسد على المسلمين ، وانتصر عليه ، حتى أرغمه على طلب المهادنة .
- حصلت فتنة بين يعقوب المنصور وبين ابن الأحمر . ومن أسبابها: خوف هذا الأخير من قوة المرينيين ، وقبول سلطانهـم يعقوب لمدينة مالقة ، التي دفعها اليه ابن شقيلولة عدو ابن الأحمر. وكان يطمع ان تكون له لا للمرينيين .
- لما ازداد تخوف ابن الأحمر من قوة المرينيين طلب من النصارى أن يأخذوا بيده ضد المرينيين ، واستولى هو على مالقة المرينية ، بينما تقدم النصارى إلى الجزيرة الخضراء . ثم تاب ابن الأحمر فعفا عنه المرينيون ، كعادتهم مع هذه الأسرة الأندلسية .
- في سنة 880 هـ قامت الفتن بين آل بني الأحمر على الملك ، فتقدم النصارى واحتلوا عاصمتهم غرناطة ، ونفوا سلطانهم أبا عبدالله إلى المغرب ، فآواه المغاربة وأكرموه .

أسئلة

1 — متى أحس مسلمو الاندلس بسعي النصارى في القضاء عليهم نهائياً ؟ صف ذلك .

2 — كم مرة جاز المرينيون إلى الاندلس بقيادة سلطانهم العظيم يعقوب المنصور ؟

3 — تكلم عن أسباب الفتنة بين المنصور المريني ، وبين ابن الاحمر . ما رأيك في ذلك ؟

4 — لم يستطع السلطان أبوسعيد المريني أن يستجيب لاستصراخ الاندلسيين به.من كفاه مؤنة ذلك؟

5 — عدد ما تعرفه من الاسباب التي أدت إلى سقوط غرناطة في يد العدو . متى حصل ذلك ؟

الدرس السابع عشر :

هجوم الاسبانيين والبرتغاليين

على شواطىء المغرب ـ كفاح المغاربة ضد هجماتهم ـ الوطاسيون

(869 — 961 هـ)

●

بعد أن كان المغرب في عهد دولة المرابطين والموحدين ، وفي الفترة الأولى من دولة بني مرين ، عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، قوي الشكيمة ، واسع الرقعة ، أصبح منذ أواخر بني مرين يضعف وتسوء أحواله ، ويتقلص ظله ؛ إلى أن صارت رقعته لا تتعدى بلاد المغرب الأقصى . وظل أمره كما هو منذ ذلك الوقت إلى نهاية دولة بني وطاس، أعقاب بني مرين ، بعد ان كان حكمه يشمل — في أغلب الأحيان — الشمال الإفريقي كله إلى حدود مصر تقريباً ، وبــلاد الأندلس . بل وحتى في عهد دوله الصغيرة ، كدولة الأدارسة ودولة بني مغراوة ، كان نفوذه يشمل أجزاء مهمة من القطر الجزائري الشقيق .

لقـــد ضعفت دولة المغرب في ذلك العصر ، ولم يعد لها تلك القوة

المعنوية والمادية اللازمتين لتوطيد الأمن ، وتوفير الحياة الكريمة للناس في ظل الاتحاد والأخوة والوئام ، فلا جيش منظم هناك ، ولا مال كاف بالخزينة ، ولا شؤون مضبوطة ، ولا أمن مستقر ولا رخص في المعيشة. ولا علم أو فن ، بل هناك فوضى شاملة في جميع مظاهر الحياة . وتبدلت أحوال المغاربة في ذلك العصر تبدلاً مزرياً يبعث على الأسف ، وأصبحت عقولهم تؤمن بما يردده المشعوذون من آن لآخر من دعوات خرافية ، لعبت دورها الخطير في إفساد الأذهان ، وتحطيم العزائم ، وحمل النفوس على الاستسلام . وكان الناس في إيمانهم بذلك الاعتقاد السخيف تابعين ومقلدين لبعض سلاطينهم ، الذين اتخذوا من أولئك المشعوذين أولياء ، يأتمرون بأوامرهم ويتحركون وفق رغبتهم .

وليت الأمر وقف بالمغاربة عند هذا الحد ، بل عظم الخطب وتفاحش البلاء ، عندما بدأ الأعداء ، الأجانب من الاسبان والبرتغال ، يشنون غاراتهم المتوالية على المغرب ، ويعيثون في أرضه فساداً ، ويحتلون ثغور شواطئه ، كتمهيد لاحتلاله كله ، لابتزاز خيراته الوفيرة ، وإذلال قومه الأحرار .

ولقد ابتدأ ذلك الاعتداء الاسباني البرتغالي على التراب المغربي قبل سقوط غرناطة، وتفاحش بعد السقوط . وكانت دولتا الإسبان والبرتغال، قد قويت شوكتها ، وعظمت مكانتها براً وبحراً ، وشرعتا – خصوصاً البرتغال – في إرسال أساطيلها البحرية إلى آفاق المعمورة، كي تحتل ما يروقها من البقاع ، في إفريقيا وآسيا . وذلك وفق تقسيم بابا رومة للعالم بين الدولتين ، ذلك التقسيم الذي شمل المغرب في جملته . هذا في الوقت الذي كان المغاربة فيه يرفاون في بحبوحة الفوضى والتأخر ،

حكومةً وشعباً .

وهكذا استولى البرتغال على ثغر سبتة سنة 818 هـ ، في العهد المريني ، أي قبل سقوط غرناطة بست وسبعين سنة ، وذلك بسبب حيلة استعملوها. وهي أنهم أنزلوا بمرساها عدداً من الصناديق ، على اعتبار أنها بضائع ، بينما كانت تحتوي على حوالي أربعة آلاف جندي . فانقض هذا الجيش على السكان الآمنين بغتة ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، واحتلوا المدينة . وكانت مرساها من قبل بيد بعض التجار البرتغاليين يتحكمون فيها كما شاءوا .

وفي سنة 867 هـ انتزع الإسبان جبل طارق من أيدي بني الأحمر ، على أساس بعض الشروط الخادعة . وكان بنو الأحمر قد أخذوه من المغرب ، كما أخذوا جميع ما كان له من أراضي الأندلس ، منتهزين فرصة ضعفه . وظلوا يحكمون الجبل أكثر من خمسين ومائتي سنة ، إلى أن انتزعه منهم الإسبان .

وفي سنة 869 هـ احتل البرتغال مدينة طنجة . وقد أتوا اليها من سبتة ، وظلت بأيديهم مدة طويلة من الزمان ، ثم قدموها هدية إلى ملك الانجليز ، بمناسبة المصاهرة ، التي تمت بين الأسرتين الملكيتين البرتغالية والإنجليزية .

وفي سنة 874 هـ استولوا على آنفى ، التي سميت فيما بعد بالدار البيضاء . وظلت بأيديهم مدة تقدر بأربعين سنة . وفي سنة 876 هـ احتلوا آصيلا ، وألقوا القبض فيها على الأمير محمد بن السلطان محمد الشيخ الوطاسي ، كما قبضوا على أسرته وطائفة من الوجهاء . وظل محمد هذا في الأسر

عند البرتغال مدة سبع سنين إلى أن افتكّه والده بمال جسيم. ومنذ ذلك الوقت عرف الأمير الأسير بالبرتغالي.

ورغم وقوف الوطاسيين وقوف الأسد الهصور في وجه البرتغال الغاصبين، فإن مقاومتهم إياهم اقتصرت على ثغور الشمال، التي احتلها العدو كلها، حتى لم يبق بأيدي المسلمين منها إلا ثغر كتامة، بينما تركت الثغور الجنوبية عارية عن أي دفاع منظم. وهكذا انتهز العدو الفرصة فاستولى على الثغور المراكشية والسوسية، كالبريجة (الجديدة)، وعلى آسفي سنة 910 هـ، وآزمور سنة 918 هـ وحصن فونتي (أكادير)، من قبل سنة 875 هـ. وكان الإسبان قد استولوا على العرائش بالشمال في عهد محمد البرتغالي ابن السلطان محمد الشيخ.

وكان انشغال الوطاسيين عن الدفاع عن الجنوب، وبالأخص عن الأصقاع السوسية، من الأسباب التي ساعدت على ظهور الدولة السعدية فيها سنة 915 هـ. وفي سنة 910 هـ كان قد استولى الإسبان على بجاية، وعلى وهران سنة 914 هـ، وعلى تلمسان سنة 923 هـ. وفي نفس السنة بنوا في شمال المغرب حجر باديس الذي ما زال بأيديهم حتى الآن. وقد دام الصراع بين المغاربة والبرتغاليين زهاء 264 سنة.

وفي الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يستولون على ثغور المغرب، كان الإسبان يستولون على ثغور المغربين الأوسط والأدنى، واستطاعوا أن يحتلوا بهما مدناً هامة. ولكن الترك طردوهم منها جميعاً. وهكذا كان عصر بني وطاس في المغرب عهد ضعف وتأخر، شهد المغاربة فيه احداثاً جساماً.

كفاح المغاربة ضد هجمات الإسبان والبرتغاليين

قلنا من قبل بأن الوطاسيين وقفوا في وجه الأعـــداء من البرتغـــاليين والإسبان وقوف الأسد الهصور ، بالرغم من ضعفهم وتأخرهم . ولكن دفاعهـــم عن الوطن ، لم يجـــد فتيلاً . وغاية ما استطاعوه ، هو إشغال العدو وإيقافه عند حده ، أي محاصرته في الثغور المغربية الكثيرة ، التي احتلها . وفي خضم تلك الفوضى والضعف قامت جماعات متعددة من أبناء المغرب ، للذود عن حياض البلاد ، وتقديم أنفسها وأموالها بسخاء في سبيلها ، مدفوعة في ذلك كله ، بصوت الواجب الديني، ونداء الوطن الغالي .

ومن هذه الجماعات : جماعة الأشراف العلميـــين أبناء راشد الذين أسسوا مدينة شفشاون سنة 876 هـ، لحماية المسلمين بواسطتها من اعتداءات نصارى سبتة ، الذين كانوا دائمي الإغارة على أهل المناطق المجاورة لهم.

ثم جماعة الأندلسيين بقيادة بطلهم أبي الحسن المنظري . وكانوا قد هاجروا من الأندلس ، بسبب ضغط الإسبان وعسفهم . ونزلوا بوادي مرتيل في عهد السلطان الوطاسي محمد الشيخ . ثم طلبوا من عاهل المغرب أن يمنحهم أرضاً يبنون عليها مدينة لهم، فأعطاهم المكان الذي به حصن تطوان القديم . فبنوا ما تخرب منه ، وزادوا فيه ، حتى أصبح مدينة على غرار مدن الأندلس .

ومن هؤلاء أيضاً جماعة أهل زمور ، الذين أوقفوا همتهم على محاربة العدو البرتغالي ، الذي احتل ثغورهم ، خصوصاً مع محتلي الجديدة .

وهكذا ساعدت هذه الجماعات المخلصة ، وغيرها الدولة الوطاسية الضعيفة ، على مكافحة أعداء الدين والوطن . ولكن تلك الجهود المبذولة ، لم تخلص البلاد مما هي فيه من خطر ، بل لم تستطع زحزحة العدو من الأقاليم التي احتلها ، وكل ما فعلته أنها أوقفت التيار الاستعماري الأجنبي من التوغل داخل الوطن .

الوطاسيون

بنو وطاس وبنو مرين أبناء عمومة واحدة . إلا أن بني وطاس ليسوا من بني عبد الحق . وعندما دخل بنو مرين المغرب اختار الوطاسيون بلاد الريف* بشمال المغرب مكاناً لاستقرارهم . وكانوا يتطلعون إلى الرئاسة دائماً . وحاول بعضهم عدة مرات الخروج على بني عبد الحق لتحقيق أمنيتهم ، إلا أنهم أخلدوا للطاعة ورضوا بما نالوه من المركز والجاه في عهد الدولة المرينية . فكان فيهم العمال والقواد والوزراء . وانتفع المرينيون من بني عبد الحق بهم ، حيث أعانوهم على تسيير دفة الدولة .

إلا أن عبد الحق سلطان المرينين لما رأى ما ناله وزيره الوطاسي يحي بن أبي زكريا بن يحي من الشهرة واتساع النفوذ ، خاف أن ينقلب عليه ويسلبه عرشه ، فتصيد الفرصة ، وعمد إلى قتله ، وقتل

---

* بلاد الريف هذه التي نكرر ذكرها لا تعني عندنا سكان البادية فقط وإنما تعني السكان البرابرة الذين يقطنون الشمال الشرقي من المغرب وإلى هؤلاء ينتمي بطل الريف المشهور ، وفي ذلك الريف الاشم قامت حركته التحريرية .

أخويه ، أبي بكر وأبي شامة ، وعمهما فارس بن زيان ، وقريبهم محمد بن علي . ولما سمع بذلك اخوان آخران للوزير المقتول : محمد الشيخ ومحمد الحلو اختفيا ، ثم فرا إلى الصحراء نجاة بنفسيهما ، ثم منها دخلا آصيلا ، وهناك كونا لهما أنصاراً كثيرين . وكان دخول الأخوين إلى آصيلا ، قبل استيلاء البرتغال عليها .

ولما سمع السلطان عبد الحق أن أهل فاس ينقمون عليه فعلته بالوطاسيين، وأنهم يعطفون على حركة الوطاسيين التي قامت في آصيلا ضد دولته ، لم يشأ أن يعين وزيراً وعمالاً على الأقاليم من الأهالي المسلمين ، بل عينهم من اليهود، تشفياً منهم . فكانت النتيجة ، أن حاكم فاس اليهودي، أهان – مرة – امرأة مسلمة شريفة ، وأشبعها ضرباً مبرحاً ، على مرأى ومسمع من الناس ، فلما علم السكان كلهم بذلك غضبوا أشد الغضب ، وثاروا ثورة عارمة على اليهود ، وساموهم سوء العذاب ، ثم رشحوا عليهم للمُلْك رجلاً اسمه عبدالله الحفيد .

وكان السلطان عبد الحق ووزيره اليهودي هارون غائبين عن المدينة، فلما بلغ مسامعهما قيام الثورة بفاس العاصمة ، نصح اليهودي السلطان بأن لا يدخلا فاسا ، بل يذهبا إلى مكناسة ، وهناك يعدان الجيوش اللازمة، لقمع الثورة ، وتأديب المحرضين عليها . غير أن اليهودي ما أن أتم كلامه ، حتى قذفه بعض الجنود بالرماح ، فأردوة قتيلاً ، وقالوا للسلطان : تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اختيار اليوم على نفسك ، فلما وصل به الجنود إلى فاس ، وقدموه إلى السلطان الجديد الحفيد ، أركبه هذا على بغل مبردع ، وانتزع منه شارة الملك ، وأمر بالطواف به في شوارع المدينة .

وهكذا طاف الجنود بالسلطان المخلوع في الأحياء الرئيسية بفاس على مشهد من جماهير غفيرة ، ثم قتل ، وبموته انتهت دولة بني عبد الحق المريني ، وحل محلها دولة بني وطاس .

وفي سنة 875 هـ عزل الحفيد من السلطنة على يد أبي الحجاج يوسف الوطاسي ، وبقي هذا يحكم المغرب من فاس عاصمته .

ولما كثر انصار محمد الشيخ بآصيلا ، وقويت شوكته ، وصار علية القوم في فاس ، يكاتبونه سراً ، ويعلنون له المبايعة ، ويحرضونه على احتلال مدينتهم ، آنذاك قصدها بجيوشه الكثيرة ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وذلك سنة 876 هـ . وهكذا أصبح محمد الشيخ ملكاً مطلقاً على المغرب بلا منازع . وفي عهد هـذا الملك حصلت في المغرب أحداث عظيمة جرها في أذياله الاستعمار البرتغالي والإسباني ، وفي عهده أيضاً سقطت غرناطة في أيدي الإسبان ، آخر معقل من معـاقل الإسلام في الأندلس .

وقـد كان هذا السلطان من المكافحين العظام ضد أعداء الوطن ، وانتصر عليهم في كثير من المعـارك ، ولكنه لم يستطع أن يغير من من الواقع شيئاً . ولما توفي سنة (910 هـ) ، تولى من بعده ابنه محمد الملقب بالبرتغالي ، وكان نصارى سبتة وطنجة وآصيلا قد احتلوا معظم بـلاد الهبط ، وضايقوا السكان المسلمين هناك مضايقة شديدة ، حتى لم يبق في أيدي الناس إلا ثغر كتامة .

هذا بالرغم من أن السلطان البرتغالي المتولي ، بذل قصارى جهوده في محاربة الأعداء . بينما ظلت بلاد الجنوب عارية عن دفاع الوطاسيين ،

فقام الأشراف السعديون بمهمة الـدفاع المقدس عن الوطن ، كسائر المجاهدين الآخرين .

نهاية الوطاسين وظهور السعديين

وكان ظهور السعديين سنة 915 هـ ؛ وأول سلطان منهم هو أبو العباس الأعرج الذي عظم أمره في الجنوب بما أحرزه من الانتصارات الباهرة على أعداء الوطن المحتلين لثغور السوس . ثم دخلت مراكش في حوزته سنة 930 هـ تقريباً . وحاربه محمد البرتغالي الوطاسي بلا طائل . ولمـا توفي البرتغالي ، وتولى بعـده أخوه أبو حسون ، قام ابن أخيه أبو العباس أحمـد ضده ، واستطاع أن يلقي القبض عليه ، ويتولى السلطنة بدلـه .

ثم حصلت وقعـة حربية عظيمة بين السلطان الوطاسي أبـي العباس أحمد ، وبـين السلطان السعدي أبـي العباس الأعرج قرب مراكش ، وبعدهـا توصل الطرفان إلى صلح واتفاق على اقتسام المغرب بينهما ، وهكذا أصبح للسعديين من تادلا إلى السوس ، وللوطاسيين من تادلا إلى المغرب الأوسط . ودام السلم زهاء سنتين بين الدولتـين ، ثم تجددت الحرب بينهما ، وتمكن السلطان السعدي محمد الشيخ أن يستولي على فاس سنة 956 هـ ويأسر السلطان الوطاسي بها ، كما ألقى القبض عـلى سائر الوطاسيين ، وبعث بهم مصفدين إلى مراكش ، إلا أن أبا حسون المخلوع استطاع الفرار والاحتماء بأتراك الجزائر .

وفي سنة 960 توفي السلطان الوطاسي أبو العباس في أسره بمراكش ،

فأصبح السعديون هم الحاكمين في البلاد . ثم أقنع أبو حسون الأتراك بمساعدته ، وهكذا جاء معه جيش كثيف من الترك بقيادة باشا صالح التركماني ، ودخل فاساً ، ثم رحل الجيش التركي عن المدينة بعد أن دفع لهم أبو حسون المال المتفق عليه .

وفي سنة 961 هـ عاد السلطان السعدي محمد الشيخ إلى فاس فحارب أبا حسون الوطاسي ، وحاصر المدينة ، إلى أن دخلها ، وظفر بالسلطان الوطاسي وقتله ، وبذلك انقرضت الدولة الوطـاسية ، أو بقايا الدولة المرينية ، وأصبح للدولة السعدية وحدها السلطان على المغرب كله .

- الوطاسيون ينحدرون من نفس الأرومة التي ينحدر منها المرينيون، وكانت الدولة المرينية تتخذ منهم الوزراء والعمال . ولكنها فتكت بهم أخيراً ، ونجا بعض الوطاسيين ، وتمكنوا من تأسيس دولتهم على أنقاض الدولة المرينية .

- ضعف المغرب في أواخر بني مرين ، وفي عهد الوطاسيين، وعمت الفوضى البلاد ، وساءت أحوال الناس ، وتمكن الغزاة الأجانب من احتلال معظم الثغور .

- في تلك الفترة العصيبة تألفت من الشعب فرق جهادية قامت بالدفاع عن الوطن ، ولكن رغم الجهود المبذولة سواء من الجانب الشعبي أو الحكومي ، فإنها لم تستطع زحزحة الغزاة من الأماكن المحتلة .

- من ضمن فرق الجهاد التي تألفت في مختلف أجزاء المغرب جماعة الأشراف العلميين الذين أسسوا شفشاون،وجماعة الأندلسيين بزعامة سيدي المنظري بتطوان ، وجماعة الأشراف السعديين في الجنوب . ولهذه الأخيرة أهمية سياسية عظمى .

- قام الأشراف السعديون في الجنوب بدورهم في الجهاد والدفاع عن الوطن المهدد،وحققوا انتصارات على العدو . ثم سعوا إلى تقويض دولة الوطاسيين ، وتكوين دولتهم ، فنجحوا في مسعاهم .

اسئلة

1 – كيف أسس الوطاسيون ملكهم في المغرب ؟

2 – صف باختصار أحوال المغرب في عهدهم .

3 – قام كل من الشعب والحكومة الوطاسية بالدفاع عن الوطن ضد الغزاة الاجانب . فما دور كل منهما بالضبط ؟

4 – تكلم عن الدور الحربي الذي قام به المجاهدون من الاشراف العلميين ، والاندلسيين ضد أولئك الغزاة .

5 – كيف انتهت ايام الوطاسيين ؟ ما رأيك في ذلك ؟

الدرس الثامن عشر :

المغرب في عهد السعديين

واقعة وادي المخازن ـ المنصور الذهبي

(961 ـ 1009 هـ)

●

تنحدر الدولة السعدية من سلالة علي بن أبي طالب . فهي على هذا دولة شريفة ثانية بعد الأدارسة ، بخلاف ما ادعاه خصومهم من أنهم ينتسبون إلى بني سعد بن بكر بن هوازن . كما أن الدهماء نسبتهم إلى السعد ، لأن الأمة سعدت في أيامهم . وقد ظهر السعديون في الميدان في أواخر الوطاسيين . فعندما بقيت ناحية الجنوب وثغور السوس عارية عن كل دفاع . واستولى الأجانب على معظمها آنذاك اتفقت كلمة سكان تلك الناحية على اختيار أبي عبدالله محمد القائم بأمر الله،ليتولى رئاستهم واستنفارهم للجهاد ضد البرتغاليين الغزاة . فكان هذا أول مؤسس للدولة السعدية ، واتخذ درعة عاصمته . وكان هذا يتصف بكثير من الصفات الكريمة ، كشرف الأرومة ، والشجاعة والتدين والعلم . ويقال بأنه كان

أشهر أمير مر في المغرب . ومن أقواله الحكيمة : « ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل ، فإن طول الأمل ، وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح ، لأن الرعية تصلح بطول أمله » . ولكنه كان يغضب بسرعة ويبطش بدون رحمة أو شفقة .

وكان بدء جهاده ضد الأعداء سنة 915 هـ ، وحالفه النجاح في حروبه ضدهم ، وفي سنة 923 هـ توفي ، فخلفه ابنه أبو العباس أحمد الأعرج ، وصار هذا على منوال والده في متابعة الحرب ضد البرتغال. والعمل على طردهم من تراب المغرب . وتمكن هذا الأمير البطل من تحقيق جزء من أمله .. وهكذا طهرت سواحل السوس كلها من الأعداء المستعمرين . وفي سنة 930 هـ بايعته مدينة مراكش فدخلها ، وجعلها عاصمة دولته بدل درعة .

وانزعج الوطاسيون من انتصارات السعديين ودخولهم مراكش فهبوا لمحاربتهم،ولكن هيهات أن ينتصر الخروف الضعيف على الذئب القوي .

وكان للأمير الموحدي أخ يسمى محمداً الشيخ اتخذه وزيراً له ليساعده على القيام بأعباء الدولة . فكان أن حدثت عداوة بينهما أدت الى تغلب محمد الشيخ على أخيه الأمير فألقى عليه القبض وسجنه ، وذلك سنة 946 هـ وتولى هو الإمارة مكانه ، ولقب نفسه بالمهدي .

وقد قام محمد الشيخ هذا بأعمال حربية مجيدة أيام توليته منها: استيلاؤه على حصن فونتي ، وعلى آسفي وآزمور وغيره . وهو الذي قضى نهائياً على دولة الوطاسيين سنة 961 هـ ، فاستقر له الملك في طول البلاد وعرضها . وقد كان وجود الأتراك في الجزائر الشقيقة ، التي احتلوها سنة 952 هـ ، وكذا تردد أساطيلهم البحرية قريباً من شواطىء المغرب

أمراً يشغل باله ، ويقلق راحته ، فكان دائم التحوط واليقظة منهم . وكان الأتراك يطمعون فعلاً في امتلاك المغرب ، بعد أن امتدت امبراطوريتهم العظيمة إلى حدود المغرب ، من جهة الجزائر . وكان في خلاف مستمر مع الأتراك حكام الجزائر. وكانت نفسه تواقة إلى الاستيلاء على المغربين : الأوسط والأدنى، وطرد الترك عنهما .

وفي سنة 957 هـ تقدمت جيوشه إلى المغرب الأوسط ، فحاربت الأتراك وحاصر تلمسان مدة تسعة أشهر . وأخيراً سقطت في يده ، وطرد الترك منها ، فمد سلطانه إلى وادي شلف . وفي تلك المعارك قتل ولده المسمى الحران . غير أن الأتراك عاودوا الكر عليه، وأخرجوه من تلمسان .

ومن أعماله الأخرى ، أنه ثبّت دعائم الدولة السعدية، وأدخل عليها كثيراً من مظاهر الحضارة والتأنق ، واستخلص الضرائب من المبيعات والمشتريات ، وغيرها . وصرف ما تجمع لديه من أموالها في سبيل المصلحة العامة ، وتطوير البلاد من كافة النواحي . وكان يردد دائماً: « لا بد لي أن أغزو مصر وأخرج الترك منها » .

وفي سنة 964 هـ توفي محمد الشيخ ، وكانت وفاته على يد جماعة من الأتراك ، كانت قد جاءت اليه ، وتظاهرت له أنها فرت من سلطانها سليمان العثماني . فاغتر السلطان المغربي بهؤلاء الأتراك ، وأضافهم إلى حاشيته ، فتربصوا به الفرصة وقتلوه، وذهبوا برأسه إلى السلطان التركي. وكان قد خلف أولاداً كثيرين ، تولى الملك منهم : عبدالله الغالب ، وعبد الملك المعتصم ، وأحمد المنصور .

وبعد وفاة السلطان محمد الشيخ تولى من بعده ابنه عبدالله الغالب بالله.

وأبرز ما يتصف به هذا الملك : الشجاعة والاستقامة والعدل ، ومراعاة المصلحة العامة ، والصبر الطويل ، الذي كان ينقص والده . ومن أعماله الحربية ، أنه في سنة 969 ه قام بضرب حصار شديد على البريجة (الجديدة) التي شيدها البرتغال، وكاد أن يستولي عليها، لولا أنه أضطر لرفع الحصار عنها بسبب خوفه من هجوم الأتراك على البلاد . وكان قد استفحل خطرهم . ولم يجد السلطان المغربي أمام ذلك بدأ من عقد صلح مع البرتغال، كما أنه سمح للإسبان باحتلال حجر باديس، التي كانت من قبل بيد الأتراك .

وكان الأتراك قد عاودوا الزحف على فاس ، قبل ذلك بقيادة حسن بن خير الدين باشا ، بعد ولاية هذا السلطان بسنة ، ولكنهم انهرموا شر هزيمة على يد جنوده البواسل . هذا بالرغم من أن المغرب كان ما زالت به الفتن الداخلية قائمة تمنعه من حياة الاستقرار والتقدم، بينما كانت تركيا من جهة ، والبرتغال من جهة أخرى يتحينان الفرصة المواتية للاستيلاء عليه . فكانت خطة سلطان المغرب مقاومتهما باستمرار . وظل كذلك إلى أن توفي سنة 981 ه .

ومن أعمال السلطان الغالب بالله الأخرى ، أنه بنى جامع المواسين والمرستان بمراكش، وغيرهما من الأعمال . وكان أخوا السلطان المتوفى ، أبو مروان عبد الملك ، وأبو العباس أحمد قد فرا منه يوم توليته، ولجأا إلى الجزائر للاحتماء بالأتراك ، خوفاً من بطشه . فلما توفي ، تولى على عرش المغرب من بعده ابنه أبو عبدالله المتوكل على الله . فاستاء عماه الفاران من ذلك . وهكذا سافر عبد الملك إلى الآستانة بتركيا ، وطلب من السلطان التركي سليم الثاني إمداده بالجيوش ، ليستخلص ملك أبيه

من يد ابن أخيه . فلم يجبه إلى طلبه ، نظراً لأنه كان مشغولاً بإعداد العدة لمحاربة الإسبان وإخراجهم من تونس ، التي استولوا عليها .

ولما وجه السلطان سليم الثاني حملته العسكرية إلى تونس ، ذهب عبد الملك مع الحملة ، وشارك في الحرب مع الجيش التركي ، وأبلى فيها البلاء الحسن.وحين تم النصر للأتراك على الإسبان واستردوا منهم تونس، كان عبد الملك أول من طير خبر ذلك النصر إلى السلطان التركي ، فجازاه سليم الثاني على ذلك بأن أمر جيوشه التركية التي بالجزائر بالسير مع عبد الملك ، إلى المغرب ومساعدته على بلوغ هدفه .

وهكذا قدم عبد الملك إلى فاس مع جيوش عظيمة من الترك،وخرج ابن أخيه المتوكل على الله بجيوشه للحرب ، ولكنها انشقت عليه ، وانضمت إلى عمه عبد الملك ، وآنذاك لم يجد المتوكل بداً من الفرار . أما عبد الملك فإنه دخل فاس وبايعه الناس ، وذلك سنة 983 ه ، وبذلك استقر له الملك في المغرب،وأصبح يلقب بالسلطان المعتصم بالله .

وقد نال هذا خبرة واسعة في شؤون الجيش والإدارة والسياسة في الجزائر ، باحتكاكه مع الأتراك . فما أن تولى أمر المغرب ، حتى عكف على تنظيم الجيش تنظيماً جديداً ، على غرار الجيوش التركية ، فقلدهم في أسلحتهم وتكتيكهم الحربي ، بل وفي زيهم أيضاً ، وفي كثير من العادات والمراسيم ، التي تخالف تقاليد المغرب ، مما كان السبب في تضايق المغاربة من عمله هذا .

ولما فر المتوكل ، قصد مراكش وطاف في قبائل السوس ، وكون منهم جيشاً تقدم به إلى مراكش فنشبت معارك طاحنة بينه وبين جيوش

عمه ، فانهزم فيها هزيمة نكراء ، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه للمرة الثانية ، ويلتجىء إلى جبل درن ، ومن هناك سار إلى مرسى باديس، ثم إلى سبتة ، فطنجة . وهناك تمكن من مقابلة ملك البرتغال سبستيان، وطلب منه أن ينجده بجيوشه ضد عمه ، فوافقه الملك البرتغالي على ذلك، لأنه رآها فرصة ينفذ بها إلى المغرب،الذي كان دائماً يحلم بالسيطرة عليه.

وهكذا جيّش ملك البرتغال جيوشاً عظيمة تقدر بنحو ثمانين ألفاً من الرجال تقريباً ، مدججين بالبنادق والمدافع وسائر وسائل القتال الحديثة، في ذلك الوقت ، وتقدموا مع المتوكل نحو القصر الكبير .

فما أن علم السلطان عبد الملك بتقدم الجيوش البرتغالية ، حتّى استعد استعداداً عظيماً من جانبه ، وترك العدو يتوغل داخل البلاد عمداً .

واقعة وادي المخازن

وفي يوم الإثنين من سنة 986 هـ ، تقابل الجيشان المغربي والبرتغالي، قريباً من القصر الكبير ، على وادي « المخازن » ، وقبل نشوب المعركة بعث عبد الملك فرقة من جيشه،لهدم القنطرة الوحيدة ، التّي على النهر، كي يتعذر على العـــدو الفرار إذا ما انهزم . ثم خاض الطرفان معمعة هائلة ، دوى فيها الرصاص وقنابل المدافع ، ثم التحما ، فعملت السيوف والخناجر عملها في الرقاب ، واختلط الحابل بالنابل ، وتلونت مياه النهر بدماء القتلى والجرحى ، ولم يمض وقت طويل حتّى لاحت بشائر النصر للمغاربة الأبطال ، وحلت الهزيمـــة بالبرتغاليين ، وتفرقوا أيدي سبأ . واتجهت فلول المنهزمين نحو القنطرة ، للنجاة بأنفسهم ، فوجدوها مهدمة

فألقوا بأنفسهم في النهر .

وكان الوقت وقت الحصاد ، فترك الفلاحون والفلاحات حقولهم ، وهرعوا إلى المعركة بفؤوسهم ومناجلهم وخاضوا المعركة ضد الأعداء فوجدوا في حصد رؤوسهم لذة أعظم من حصد سنابل القمح والشعير .

وهكذا انتهت هذه الواقعة بفناء الجيوش البرتغالية ، وموت ملكها سبستيان ، والمتوكل المستنجد به ، وانتشل الناس جثة الخائن من النهر ، وسُلخت ، وحشي جلده تبناً ، وطيف به في الأحياء ، جزاء على خيانته للدين والوطن . وفي نفس اليوم والمعركة على أشدها فاضت روح سلطان المغاربة العظيم عبد الملك ، لأنه كان مريضاً جداً من قبل ، ولكن همته العالية وغيرته الوطنية وإخلاصه للمسؤولية الملقاة على عاتقه ، أبت إلا أن يحمل في محفة إلى ميدان القتال ، ليشاهد المعركة بنفسه ، ويتحمل ما قد يصيب المغاربة أبناء وطنه من نصر أو هزيمة . غير ان المنية عاجلته والقتال مستمر .

ومن فطنة أخي الملك المتوفى أبي العباس أحمد أنه لم يفش خبر موت السلطان في تلك اللحظة الحاسمة ، بل ظل يتردد على خبائه ، ويصدر الأوامر إلى القواد والجنود ، على أنها من عاهلهم المريض ، لا منه ، ولم يطلع الناس على وفاة سلطانهم إلا بعد انتهاء الواقعة بالنصر المبين .

وكانت تلك الواقعة نهاية لعظمة البرتغال ، ولم تستعد دولتهم مجدها الغابر من تاريخها إلى يومنا هذا . وبعد وفاة الملك العظيم عبد الملك ، اتفقت كلمة الجميع على تولية أخيه الشهم أبي العباس أحمد .

أيام أبي العباس أحمد المنصور

تولى أبو العباس أحمد الملقب بالمنصور عقب وفاة أخيه عبد الملك ، فتوج هذا السلطان الجديد أيامه البيض بانتصارات أخرى ضد البرتغال، وكان لذلك صدى في نفوس أهل الهبط ، الذين تشجعوا ، وضاعفوا نشاطهم ضد النصارى ، حتى تمكنوا من إخراجهم من آصيلا سنة 996هـ.

ومن صفات المنصور الطيبة ، أنه كان مثال الشجاعة والإقدام ، وحسن التبصر وسعة الخبرة والانصاف ، وكان على جانب كبير من الفضل والعلم والأدب، وقد ألف كتاباً في السياسة بنفسه ولقب بالمنصور بعد توليته بمدة . وفي زمانه توطد الأمن وكثر العمران ، وازدهرت العلوم والآداب . ومن حسناته ، أنه كون مجلساً ديمقراطياً سماه (الديوان) ومهمته أن يجتمع أفراده المختارون من رجال العلم والسياسة ، ليتناقشوا في مصالح الأمة ، برأي حر ، في يوم الأربعاء من كل أسبوع .

واهتم بتنظيم الجيش ، ولكنه أضاف اليه تقاليده المغربية ، إلى جانب الأساليب التركية المعاصرة، فخالف بذلك عمل أخيه ، الذي كان جيشه ذا نظام تركي محض . وهكذا أرضى المغاربة ، الذين كرهوا أن تلغى تقاليدهم الخاصة نهائياً .

وتاقت نفس المنصور العالية إلى مد سلطانه . فبعد أن استتب له الأمن في المغرب ، بعث بعساكره إلى الصحراء ، فاستولى عليها سنة 1000 هـ . ومن بلاد السودان كانت تنقل اليه أحمال عظيمة من الذهب. وكان بدار السكة حوالي 1400 مطرقة تطرق الدنانير الذهبية . ولهذا السبب لقب بالمنصور الذهبي .

ويقال إن قصر البديع الذي بناه في مراكش كان أعظم قصر بُني في عهد السعديين ، لما احتواه من روعة الهندسة وجمال الفن ، كما بنى المنصور الحصون المتعددة،التي ما زال بعضها قائماً في فاس والعرائش إلى اليوم.

وكانت مادة السكر موجودة في المغرب في العهد السعدي بكثرة ، حتى فاضت عن حاجة البلاد . وأخــذ المنصور يصدرها إلى الخارج . فكان يدفع السكر إلى إيطاليا ، فتدفع له ما يعادل القيمة رخاماً . كما أحدث عدة مصانع لهذه المادة في البلاد .

وفاته وضعف السعديين من بعده

وفي سنة 1012 ه توفي المنصور العظيم ، فأدى موته إلى انتثار عقد الدولة السعدية ، إذ مال الملوك الذين تعاقبوا بعده إلى التناحر من أجل العرش . فعمت الفوضى ، وقامت الفتن والثورات . واستمرت الحالة على ما هي عليه ، إلى أن قضى عليهم أخوالهم الشبانيون سنة 1069 ه فلما تأسست الدولة العلوية دخل مولاي رشيد إلى مراكش وقضى عليهم فيها سنة 1079 ه .

نقاط التلخيص

- تكونت الدولة السعدية على أيدي الشعب ، وكان الهدف الأول من ذلك ، هو الدفاع عن المغرب ، ثم تحولت – بعد انتصارها على البرتغال – إلى محاربة الوطاسيين ، وقضت عليهم ، وملكت المغرب من بعدهم.

- كان كل من الأتراك والبرتغاليين يهددون هذه الدولة، ويتربصون الفرصة لاحتلال المغرب ، ولكن آمالهم كانت تخيب دائماً .

- حدثت معركة وادي المخازن قرب القصر الكبير ، وفيها انتصر المغاربة انتصاراً باهراً على البرتغاليين ، وقضوا بذلك على عظمتهم الحربية والسياسية إلى يومنا . وفيها مات ثلاثة ملوك: ملك البرتغال سبستيان ، والملك المخلوع المتوكل ، وسلطان المغرب، الذي مات بسبب مرض كان قد أصيب به .

- بعد أن استتب الأمن للمنصور الذهبي في البلاد استولى بجيوشه المنظمة على الصحراء والسودان ، الذي كان يجلب منه أحمال الذهب ، ولهذا لقب بالذهبي .

- في سنة 1012 هـ توفي أحمد المنصور، وبعده تعاقب ملوك ضعاف، كثر التناحر بينهم من أجل الملك والسلطان . فأدى ذلك إلى تمكن العلويين من القضاء عليهم سنة 1069 هـ .

اسئلة

1 – كيف تكونت الدولة السعدية ؟ من أول مؤسسيها ؟

2 – ما الاخطار الخارجية التي كانت تهدد هذه الدولة ؟

3 – صف معركة وادي المخازن؟

4 – بم تستدل على عبقرية أحمد المنصور الحربية والسياسية ؟ لم لقب بالذهبي ؟

5 – متى توفي أحمد المنصور ؟ إلى أي شيء آلت هذه الدولة ؟

الدرس التاسع عشر :

الحياة الثقافية في عهد المرينيين والسعديين

•

الحياة الثقافية في عهد المرينيين

لقد سمى البعض عصر بني مرين بعصر العلم ، وهو بحق كذلك ، ففي الفترة الأولى من حياة الدولة المرينية ، أيام قوتها وعظمتها ، أي قبل قيام الفتن وانتشار الفوضى في العهد الوطاسي وقبله بقليل ، بلغت الحركة الفكرية من القوة والازدهار أعلى مراتب التقدم ، خصوصاً في عهد يوسف وأبي سعيد وأبي الحسن . وقد ساعد على ذلك الازدهار والتقدم عوامل شتى ، منها : أولاً هجرة العلماء الأندلسيين بكثرة إلى مدن المغرب ، بعد أن بدأت مدنهم وقراهم في الأندلس تسقط في أيدي الإسبان ، الواحدة تلو الأخرى يوماً بعد يوم .

ثانياً: التشجيع الأدبي والمادي الذي كان سلاطين المغرب المرينيون يخصون به العلماء والأدباء ، وان كثيراً من هؤلاء السلاطين كانوا يتمتعون

بقسط وافر من الثقافة والمعرفة ، وكانوا يعتنون غاية الاعتناء ، ببناء المدارس وخزائن الكتب المجاورة لها . خصوصاً بالقرويين ، وتحبيس الكتب على الطلاب للانتفاع بها في تثقيف عقولهم .

ثالثاً : أدت كثرة الأموال والخيرات إلى ترف الناس وميلهم إلى التأنق في المأكل والملبس والمسكن . وصرفت الدولة قسطاً عظيماً من هذه الأموال في بناء كثير من المدارس ، في العاصمة فاس ، وفي سائر أجزاء الوطن. وتفننت وأبدعت في هندسة تلك المدارس وتجميلها ، الشيء الذي تطلب نفقات باهظة . ومن شاهد مدرستي العطارين ، التي أسسها السلطان أبو سعيد ، والمدرسة العنانية ، التي بناها السلطان أبو عنان، وكلاهما بفاس- من شاهد تينك المدرستين يقف مبهوتاً أمامها من روعة الفن والإتقان الهندسي ، مما يدل على عظم الإمكانيات التي كانت تملكها الدولة ، ومبلغ عنايتها بمرافق الثقافة .

رابعاً : لقد نتج عن الأمن المستتب داخل البلاد وخارجها في عهد المرينيين الزاهر رواج الثقافة وتقدمها ، فضلاً عن رواج التجارة والصناعة والزراعة وتقدمها . ومما يدل على اتساع أفق العلم في العصر المريني هو وجود كثرة من العلماء . ولعلك تذكر في درس سابق، أن عدد العلماء الذين غرقوا في أسطول أبي الحسن يبلغ 400 عالم . وهؤلاء العلماء الذين صحبوا السلطان في سفره ، لا شك أنهم مختارون من الطبقة العالية ، ناهيك بمن بقي منهم في المغرب ، في مرتبة إخوانهم الغارقين أو أقل منهم قليلاً أو كثيراً .

وأخص ما يتميز به العصر المريني في عالم الفكر والثقافة ، أنه كان يعمل على تعريب المغاربة تعريباً واسعاً ، شمل الحواضر والبوادي .

وشيدت المدارس الكثيرة لهذه الغاية . كما أنه كان يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً مرناً . ولهذا السبب كانت العلوم الرئيسية التي ظهرت في عهد بني مرين هي علوم الشريعة، ثم اللغة والأدب والشعر ، ثم علوم الفلك والرياضيات والكيمياء والطب والتاريخ والجغرافية . أما الفلسفة فلم يكن لها حظ مرموق بين هذه العلوم .

ويلاحظ أيضاً أن الشعب المغربي في عهد المرينيين كان مدفوعاً من تلقاء نفسه إلى الاهتمام بالحركة الفكرية ، والإقبال عليها إقبال الظمآن، في الحواضر والبوادي على السواء . وكان نشاط الشعب في هذا المضمار يفوق نشاط الدولة ، التي لا ينكر فضلها هي الأخرى في العمل على الازدهار الفكري في البلاد .

وقد حرص بنو مرين على أن يوثقوا علاقاتهم بالشرق الإسلامي ، كما وثقوه بالأندلس ، فترتب على ذلك انتقال كثير من علماء الأندلس وأدبائهم وشعرائهم من الشرق إلى المغرب ، فانتفع المغاربة بعلومهم وفنونهم انتفاعاً كبيراً . ومن هؤلاء العلماء : ابن الخطيب وابن خلدون وابن مرزوق .

ومن العلماء والأدباء والشعراء الذين ظهروا في العصر المريني الطويل في العلوم الشرعية : أبو القاسم عبد العزيز ، وأبو الحسن الصغير ، والورياغلي . ولهم كتب في فنهم . ومن كبار النحاة ابن آجروم المشهور والمكودي وابن هانىء السبتي . ومن أشهر الشعراء مالك ابن المرحل . ومن المؤرخين : أبو الحسن الجنائي وابن زرع وابن خلدون ، الذي اشتهر كمؤرخ وعالم اجتماعي، وانتفع بكتبه الشرق والغرب على السواء . ومن الجغرافيين : ابن بطوطة الرحالة المشهور . ومن علماء الفلك

والرياضيات : الجاديري وابن البناء . ومن الأطباء والكيميائيين : أبو الحسن المراكشي وأبو العباس الجزنائي . واشتهر في الحديث والتفسير : ابن رشيد السبتي الذي له مؤلفات منها « شفاء الغليل » . وفي التصوف اشتهر زروق ، وابن الحاج ، ولهما مؤلفات أيضاً .

وهكذا عمل بنو مرين على ربط حلقة الماضي بحلقة الحاضر في عالم الحضارة ، خصوصاً في الجانب الفكري . ورغم أن عملهم كان امتداداً للماضي ، إلا أن عصرهم كانت له الصدارة في الازدهار الفكري والطابع القومي إلى حد بعيد . وما زالت مدارس بني مرين وخزائن كتبهم باقية إلى يومنا ، تشهد بعظمتهم ، وبلوغهم غاية المجد في الحضارة والعمران والعلم والأدب والفن .

الحياة الثقافية في عهد السعديين

وصلت الحركة الثقافية في عهد الدولة المرينية إلى أوج عظمتها . ولكن ما أن مالت إلى الضعف في أواخر عهدها ، وفي أيام الوطاسيين حتى توقفت تلك الحركة المباركة توقفاً خطيراً ، وفقدت الحلقة التي تربط الماضي المجيد بحاضر تلك الفترة المضطربة ، التي لم يذق فيها المغرب طعم السلم والراحة . ولولا أن تداركها الله بقيام دولة عظيمة جديدة ، هي الدولة السعدية ، لانقطعت صلتنا بالثقافة الزاهرة القديمة ، وأصبح يفصلنا عنها ، اليوم ، هوة سحيقة غامضة .

ما أن قامت الدولة السعدية حتى أولت عنايتها الكبرى لشؤون الثقافة في البلاد ، فتجددت حركة العلم والأدب ، واحتل رجالها مكانتهم

المرموقة في المجتمع المغربي ، ونشطوا في تأليف الكتب في شتى العلوم والفنون والآداب ، خصوصاً في عهد الملك العظيم ، المنصور الذهبي ، الذي يعتبر بحق فريد عصره ، فيما أولاه من العناية ، بتشجيع العلم والأدب . ولكن يجب أن نثبت هنا ملاحظة هامة ، وهي أن هذا النشاط الثقافي ، الذي أستؤنف من جديد في العهد السعدي ، لم يستطع التقدم إلى الأمام في حرية وانطلاق ، بسبب قيود التأخر ، الذي كان قد أصابه من قبل .

ومن أسباب ذلك الازدهار العلمي والأدبي ، وجود كثير من نوابغ الفكر الأندلسي في المغرب ، الذين هاجروا إليه ، واتخذوه موطناً ثانياً لهم بعد ضياع فردوسهم ، ومضايقة الإسبان لهم في دينهم وعروبتهم وثقافتهم . وكان من بين هؤلاء النوابغ علماء فطاحل،في الطب والفلسفة والحساب والحيوان والنبات،او على أيديهم نبغ كثير من المغاربة الاقحاح.

ولزاوية الدلائين التي تأسست في نواحي تادلة فضل عظيم في الدور العلمي الذي لعبته في عهد هذه الدولة ، خصوصاً في أواخرها ، حيث كانت مصدراً للإشعاع الفكري في مختلف فروعه ، وحيث حافظت بأمانة على ثقافة المغرب في ثوبها القشيب ، خلال فترة الاضطرابات السياسية ، التي سادت البلاد في آخر أيام الدولة السعدية ، ونشأة الدولة العلوية . وإلى جانب الدور الثقافي العظيم الذي قامت به هذه الزاوية ، قامت بدور سياسي أيضاً ، حيث عملت على تأسيس سلطان لها في المغرب . واشتبكت من أجل ذلك في حروب شديدة ، انتهت بتغلبها على السعديين،واستيلائها على فاس ، ومكناسة ونواحي تادلة . وأسست دولتها الدلائية ، واضطر السعديون إلى عقد الصلح ، وتقسيم البلاد مع

الدلائين ، وهكذا أصبح المغرب مقسماً بين دولتين : سعدية ودلائية .

وكان الانتـاج الفكري في المغرب على ذلك العهد متنوعاً ، ينبع من الثقافة العربية الاصيلة ، ومن بوادر الثقافة الأوروبية ، التي انتقلت إلى المغرب بسبب تردد علماء المغرب على الدول الأوروبية . ومن هذا وذاك تكوّنت ثقافة مغربية صميمة مع توالي الأيام .

ومن العلوم التي كانت سائدة في ذلك العصر الزاهر، العلوم الشرعية، كالفقه والحَديث والتفسير وغيرها . والذي يلاحظ على التأليف في هذه العلوم ، أنه أصبح عبارة عن مختصرات، واقتصر في الاعتماد عليها وحدها وأهملت الكتب المطولة الوافية بالغرض ، التي كانت منتشرة في العهد المريني . وأشهر الرجال الذين نبغوا في تلك العلوم في العهد السعدي : الحـاج الشُطَيبي ، المتوفى سنة 960 صاحب كتاب : « اللُّباب في تفسير الكتاب » ، وابن القـاضي صاحب : « الفتح النبيل في أسماء العدد في التنزيل » وعبدالله بن طاهر الشريف صاحب: « الدُّر الأزهر في مُناسبات الآيات والسُّور » المتوفى سنة 1045 هـ ، وعبد الواحد الأنصاري السِّجلماسي المتوفى سنة 1054 هـ وهو صاحب كتاب: « تفسير القرآن ، وغيرهم من الفطاحل .

وانتشرت العلوم الأدبية أيضاً انتشاراً واسعاً . وكان المنصور الذهبي نفسه متضلعاً فيها . ومن بين أدباء ذلك العصر والمؤلفين في المادة : علي ابن عبد الواحد ، صاحب ديوان خُطب ، وعبـد الرحمن التَّمَنَارتي صاحب ديوان شعر ، والنابغة الهَوْزَالي صاحب شرح ديوان المتنبي ، وعبـد العزيز الفشتالي صاحب مقدمة لديوان المتنـبي وشرح مقصورة

المكودي ، وغير هؤلاء من النابهين .

وازدهر علم التاريخ بصفة خاصة ازدهاراً فريداً،فكثرت فيه المؤلفات وتعدد المشتغلون به . ولولا عناية أولئك المؤرخين بما كتبوه عن الدولة السعدية ، لكان من الصعب علينا اليوم أن نحيط تماماً بماجريات الأمور في عهدها ، كما هو الشأن فيما يتعلق بتاريخ الوطاسيين ، الذين يكتنف فترتهم كثير من الغموض ، لعدم وجود من أرّخ لعهدهم . ومن بين المؤرخين العظام الذين عاشوا في عهد هذه الدولة : العلامة المقّري ، صاحب كتاب « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » ، وكتاب « أزهار الرياض » ، وعبد العزيز الفشتالي،وأبي العباس ابن القاضي، ومحمد بن علي النّسب وغيرهم .

ومما يدل على تقدير المنصور الذهبي للعلم وأهله ، أنه بذل ألوف الدنانير الذهبية ، لافتكاك أسر العالم ابن القاضي ، السالف الذكر . كما بذل اهتماماً كبيراً أيضاً بعلوم الرياضيات من فلك وهندسة وحساب . وفي الطب نبغ كثير من المغاربة كما نبغوا في غيره ، ونالت هذه المادة العناية الفائقة من الدولة ، ومن رجالها الأفذاذ : الوزير أبو القاسم ، وأحمد المُريد ، وابن سعيد المرغيثي ، وسواهم .

هذا إلى جانب التقدم الرائع في الفنون،وبالأخص فني العمارة والموسيقى. ويتجلى ذلك الفن المعماري العظيم في القصور السعدية ، خصوصاً قصر البديع ، الذي فاق قصري « الزهراء والزاهرة » في الأندلس وغيرهما من قصور بغداد . وما زالت مقابر ملوك هذه الدولة في مراكش تشهد بروعة ذلك الفن وجماله .

وبلغ فن الموسيقى مبلغاً عظيماً من الرقي ،حيث حوفظ على الأطباع الأندلسية الرائعة ، كما أضيفت بعض آلات الطـــرب واخترعت أطباع جديدة تطبع الاستهلال . هذا إلى جانب الازدهار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي كان سائداً آنذاك .

• نقاط التلخيص •

- سمى البعض عصر بني مرين بعصر العلم ، وهو بحق كذلك ، خصوصاً في الفترة الأولى من عهدهم ، وأسباب ذلك كثيرة ، منها : هجرة العلماء الأندلسيين إلى المغرب ، والتشجيع الأدبي والمادي من لدن السلاطين ، وكثرة الأموال والخيرات، واستتباب الأمن .

- أبرز ما يتصف به عصر بني مرين ، أنه كان عربياً محضاً ، وان الشعب المغربي كان مندفعاً تلقائياً إلى الأخذ بأسباب العلم والثقافة ، إلى جانب تشجيع الدولة .

- من أبرز العلوم التي كانت رائجة في ذلك العصر : العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية والجغرافية والرياضية والطب وغيرها ، ونشط التأليف فيها جميعاً .

- كانت فترة الوطاسيين فترة خطيرة ، توقفت فيها حركة الثقافة توقفاً تاماً ، فلما جاء السعديون عملوا على تنشيطها وازدهارها من جديد ، ونشط التأليف في شتى الفنون نشاطاً كبيراً .

- من أسباب التقدم الفكري في العهد السعدي : هجرة كثير من نوابغ الفكر الأندلسي ، خصوصاً بعد سقوط فردوسهم بالأندلس وحركة الزاوية الدلائية العلمية ، والاحتكاك بالأوروبيين على نطاق واسع ، وغيره .

اسئلة

1 – في أي فترة من عهد بني مرين كانت الدولة مزدهرة في عالم الثقافة ؟ ما أسباب ذلك ؟

2 – ما أبرز ما يتصف به عصر بني مرين في عالم الفكر ؟ قارن بينهم وبين أمويي الشرق من تلك الناحية ؟

3 – أذكر بعض المعارف التي كانت رائجة آنذاك ، ورجالها .

4 – عدد أسباب الازدهار الفكري في عهد السعديين . ما دور الدلائين في ذلك ؟

5 – ما العلوم التي كانت مزدهرة في عهدهم ؟ قارن بين المرينيين والسعديين في المميزات البارزة حول التقدم الفكري؟

الدرس العشرون :

الدولة العلوية

عصر النشوء والاستقرار – المولى رشيد – المولى إسماعيل

●

ظهور العلويين في المغرب (1079 هـ إلى اليوم)

ينتسب العلويون الحاليون إلى جدهم عليّ الشريف ، الذي ينحدر من سلالة علي بن أبي طالب . وقدم أجدادهم إلى المغرب من «يَنْبُع» بالحجاز ، واستقروا بسجلماسة بتافيلالت . ومن هناك تهيأوا لإقامة دولتهم ، التي تعتبر الدولة الثالثة في المغرب من حيث نسبها الشريف . فالأدارسة والسعديون والعلويون كلهم أشراف .

وكانت لعلي هذا صداقة متينة مع أبي حسون السملالي ، أمير البلاد السوسية ، كما كانت له عداوة شديدة مع أهل تبوعصامت ، الذين يقطنون في حصن قوي البنيان ، ولما اعتدى عليه أهل تبوعصامت استعان عليهم بصديقه السملالي ، بينما قام أعداؤه بالاستنجاد بالدلائين أصحاب

فاس ومكناسة ونواحيها بما في ذلك تادلا . ثم سلك أهل تبوعصامت خطة جديدة في محاربة الشريف،وهي أنهم مالوا إلى أبي حسون السملالي وأطاعوه فيما أراد ، ثم عملوا على إفساد العلاقة القائمة بينه وبين علي الشريف ، وهكذا دأبوا ، إلى أن حققوا مرادهم ، وتحكمت العداوة بين الصديقين بالأمس .

وغضب لذلك محمد ولد علي الشريف ، وانتهز الفرصة وغزا ليلاً حصن تبوعصامت ، على حين غفلة من أهله ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً، وما أن علم الأمير أبو حسون بذلك ، حتى استشاط غضباً ، وكلف عامله بسجلماسة أن يحتال على إلقاء القبض على علي الشريف ، ويبعث به إليه ، فنفذ العامل الأمر ، ولم يفتك سراح الشريف إلا بعد أن دفع ولده محمد مالاً جسيماً إلى الأمير السملالي . وهكذا عاد علي الشريف إلى مسقط رأسه بسجلماسة وذلك سنة 1047 هـ .

ثم كثر أنصار محمد بن علي الشريف من أهل السوس،وكان معظمهم يحنقون على عُمَّال أبي حسون ، لشدة ظلمهم لهم . فحارب محمد بأنصاره أولئك العمال،بدون هوادة ، حتى طردهم من مراكزهم . وعقب ذلك بايعه السوسيون ، وذلك سنة 1050 هـ ، في حياة والده . وتصدى منذ ذلك التاريخ إلى مواصلة الحرب ضد أبي حسون ورجاله، فنشبت بين الطرفين حروب مهولة ، تم النصر فيها لمحمد ، بينما حلت الهزيمة النكراء بالسملاليين ، فثبت قدمه بذلك النصر المبين ، وقويت عزيمته ، فتعقب السملاليين ، واستولى على ما كانوا يستولون عليه من البلاد ، من أعمال السوس ودرعة .

ثم اصطدم مع جماعة الدلائين،التي كانت مسيطرة على فاس ومكناسة

ونواحيها،إلى مدينة سلا . وكان البادىء بالحرب هم الدلائون . فانهزم محمد بن علي الشريف،وأخضع الدلائون سجلماسة.ثم وقع صلح بينه وبينهم، على أن يحتفظ بالصحراء إلى بني عياش ، بينما يظل باقي المغـــرب في أيدي الدلائين .

ثم وقعت حرب أخرى بين محمد والدلائين تمكن فيها من الاستيلاء على فاس والقضاء على الدلائين ، وذلك سنة 1060 ﻫ . ثم استولى بعد ذلك على مدينة وجدة ، وقام بالإغارة على تلمسان ، التي يحتلها الترك، فأصاب أهلها وحماتهم من الأتراك بشر عظيم .

وفي سنة 1069 ﻫ توفي علي الشريف ، فجدد الناس بيعتهـــم لابنه محمد ، وآنذاك فرّ منه أخوه مولاي رشيد إلى الجبال .

عصر الاستقرار والعظمة

دور مولاي رشيد (1079 — 1082 ﻫ)

لما فرّ مولاي رشيد من أخيه الأمير محمد ، أخذ يتنقل في جنبات المغرب.من مدينة إلى أخرى إلى أن وصل أرض بني يزناسين . وهناك نزل ضيفاً على رجل فاضل . وبينما هو ذات يوم يتجول في أحياء بني يزناسين ، إذا به يرى يهودياً راكباً جواداً ، في حلة الملوك وأبهتهم ، فسأل عنه : من يكون هذا ؟ فقيل له : أنه ابن مشعـــل اليهودي ، أغنى رجل في البلد . وفي تلك اللحظة طرأت عليه فكرة غريبة ، وهي أن يحتال على هذا اليهودي حتى يقتله ، ويسلب أمواله ، ليؤسس بها

جيشاً يحارب به أخاه محمداً ويستولي على عرش المغرب مكانه .

وفعلاً عمد إلى اليهودي المثري ، ونفذ فيه أمره . وهكذا أصبحت لديه أموال طائلة، فرّق كثيراً منها على أنصاره . ولم يمض زمن طويل حتى كثر عدد أنصاره،فكوّن منهم جيشاً عرمرماً . ولما طرقت أخباره مسامع أخيه الأمير محمد خاف هذا على عرشه ، فأعد جيشاً كثيفاً ، واتجه به لمحاربة أخيه رشيد . وفي بسيط آنكـاد بشمال المغرب ، التقى الجمعان ، وخاضا معارك دموية عنيفة . وأصابت أول رصاصة أطلقت الأمير محمداً فأردته قتيلاً .

وعقب ذلك بويع مولاي رشيد ملكاً على المغرب خلفاً لأخيه المتوفى، وذلك سنة 1075 هـ . فكان هذا بحق المؤسس العظيم للدولة العلويـة . ونهض من أول وهلة لإخضاع الجهات التي لم تدخل بعد في حكمه . فاستولى على فاس وغيرها ، وقضى على الدلائين . وفي سنة 1079 هـ دخل مراكش ، وقضى على أسرة الشبانات ، التي كانت تحكم في تلك الجهات ، والتي كانت القاضية على آخر ملوك السعديين كما استولت بعدهم على مدينة مراكش العاصمة السعدية .

وكان مولاي رشيد يمتاز بخصال كريمة كالشجاعة والعزم والمعرفة .

ومن أعماله الهامة : أنه ثبت دعائم الأمن في البلاد ، خصوصاً بعد توحيدها . وكوّن جيشاً من قبائل شراقة (القبائل الواقعـة في شرق المغرب) . وبنى قنطرة مهمة على وادي اسبو خارج فاس سنة 1079هـ ثم ضرب السكة باسمه ، وبنى بفاس مدرسة الشراطين ، التي تعتبر من أجلّ أعماله في ميدان العلم .

وفاته وتولية مولاي اسماعيل امبراطور المغرب (1082 — 1139 هـ)

وفي سنة 1082 هـ توفي مولاي رشيد بمراكش، بسبب ارتطامه بشجرة في بستان المسرة ، أثناء جموح الفرس الذي كان يركبه . مات هـذا البطل وله من العمر اثنتان وسبعون سنة .

وبعد مولاي رشيد تولى الملك أخوه مولاي إسماعيل ، وكان هـذا من قبل نائباً عن أخيه الأمير في مكناسة ، فلما أعلنت الوفاة بايعته جميع جهات المغرب إلا مدينة مراكش . لأن أهلها كانوا قد بايعوا ابن أخيه المسمى أبا العباس أحمد ، والتفوا حوله . وكان عمر مولاي إسماعيل يوم توليته ستة وعشرين ، وما أن تمت بيعته حتى نهض لمحاربة ابن أخيه بمراكش ، فتغلب عليه ودخل المدينة عنوة سنة 1083 هـ . وعفا عن أهلها .

وكانت مكناسة أحب بلد إلي قلبه ، ولذا اتخذها عاصمة لدولته ، وبنى بها القصور الفخمة والدور الأنيقة ، والمساجد الجميلة ، والمصانع المختلفة ، ومستودعات الأسلحة والمؤن ، ومهد طرقها ، وأحاطها بالبساتين اليانعة . وكان يصبو الى أن يجعل مكناسة تضاهي أجمل مدن فرنسا . واستعان في بنائه للمدينة بآلاف الأسرى من النصارى ، الذين قبض عليهم في حروبه المتعددة ضدهم .

وكانت مكناسة قبل الإسلام عبارة عن حصن منيع شيده البربر . فلما جاء الموحدون حاصروه مدة سبع سنين ، ولما استولوا عليه خربوه، تشفياً من أهله الذين ظلوا يقاومونهم تلك المـدة الطويلة ، وبعد ذلك بنى الموحدون مكناسة جديدة ، ولـما جاء بنو مرين اعتنوا بالبناء في المدينة ، فشيدوا بها عدة مساجد ودوراً للعلم وغيرها .

ومن أعمال مولاي إسماعيل الحربية : أنه أرسل جيوشه لاستعادة المغرب الأوسط إلى حكمه كما كان الشأن في عهد الدول المغربية السابقة ، وهناك تقابل الجيشان : المغربي والتركي ، ولكنهما لم يشتبكا في حرب ، بل تصالحا ، وذلك سنة 1089 هـ . وفي هـــذه السنة نفسها فتك المجاهدون الريفيون بكثير من النصارى المحتلين لطنجـــة ، واستولوا على بعض مراكزها .

وفي سنة 1092 هـ استعـــاد المجاهدون مدينة المعمورة (المهدية) من أيدي الإسبان ، حسب أوامر السلطان ، بعد ما مكثوا بها مدة اثنتين وسبعين سنة تقريباً ، أي منذ عهد السلطان المعروف بالشيخ ابن المنصور. وسمع ذات مرة بأن الأتراك دخلوا التراب المغربي من الجزائر واستولوا على بني يزناسين ، فأسرع لمحاربتهم،ولكنه لما وصل إلى عين المكان ، وجد الترك قد رحلوا عنه .

وفي سنة 1095 هـ استعاد المجاهدون مدينة طنجة ، التي كانت بأيدي الانجليز في ذلك الوقت،والتي لم يخرجوا منها إلا بعد أن هدموا معظمها، حقداً وغضباً على المغاربة ، الذين نغصوا عليهم الحياة في تلك المدينـة الجميلة الوادعــــة . وفي سنة 1102 هـ حاصر المجاهدون مدينة العرائش حصاراً شديداً ، إلى أن سقطت في أيديهم ، وكان الاسبان قد تمكنوا منها زمناً طويلاً ، منذ عهد السلطان الشيخ ابن المنصور . وفي نفس السنة توجه المجاهدون إلى آصيلا وتغلبوا على محتليها من الأجانب واستولوا على المدينة .

ثم باشر المجاهدون مع فرق جيش السلطـــان محاصرة سبتة محاصرة شديدة ، مدة طويلة من الزمان ، ولكنها لم تفتح . وغضب السلطان

بسبب ذلك على قواد جيشه المحارب .

كان المغاربة يلبسون نعالاً سوداء حداداً على ضياع أجزاء من التراب الوطني ، خصوصاً ثغوره الساحلية . فلما استعادها البطل اسماعيل ، حتى لم يبق في أيدي الأجانب من تلك الثغور إلا سبتة ، استبدلوا النعال السوداء علامة الحزن بنعال صفر علامة الفرح والسرور ،لما حققه ملكهم من انتصار على أعداء الوطن .

وما زال المغاربة يلبسون النعال الصفر إلى يومنا . وإن دل هذا العمل من جانب الشعب على شيء فإنما يدل على قوة الشعور الوطني ، الذي كان يتأجج في نفسه في ذلك الوقت .

وبعد هذه الأعمال الجليلة ، وجّه السلطان اهتمامه الكبير إلى احتلال الصحراء وبلاد السودان ، فتم له ما أراد . ووصل في السودان إلى تخوم النيل . وهكذا شملت امبراطوريته الواسعة : المغرب والصحراء وممالك السودان. وبسبب من سياسته وما أحرزه من الانتصارات العظيمة في حروبه هابته معظم الدول الأوروبية،وعقدت معه صلات ودية بغية تبادل المنافع ، خصوصاً فرنسا ، التي كانت علاقة المغرب بها قوية ، حتى سعى المولى إسماعيل في عقد قرانه بابنة ملكها لويس الرابع عشر ، ولكن المسعى لم يتحقق .

ومن أعماله أيضاً أنه كوّن جيشاً منظماً من قبائل المغرب وأطلق عليه اسم جيش الوداية . ثم كوّن جيشاً عظيماً آخر من العبيد السود ، وسماهم عبيد البخاري . وقد وصل تعداد هذا الجيش الأخير في نهاية الأمر إلى خمسين ومائة ألف مقاتل . وهؤلاء العبيد هم من بقايا السود الذين جلبهم المنصور الذهبي . وسموا بعبيد البخاري لأن السلطان إسماعيل

في اجتماعه الأول بهؤلاء العبيد طلب منهم أن يعاهدوه على كتاب صحيح البخاري ، الذي أحضر معه نسخة منه ، بأن يكونوا له أمناء مطيعين، لا يحيدون قيد أنملة عما في الصحيح المذكور ، وأن يصحبوه معهم في حلّهم وترحالهم ، حتى يكون لهم تذكرةً ، لما عاهدوه عليه .

وقد ساعد هذا الجيش القوي على استتباب الأمن في البلاد مساعدة فعالة . ووزع السلطان فرقاً منه على قرى المغرب وطرقه الهامة لمراقبتها، وقمع من تسوّل له نفسه شقّ عصا الطاعة . وفي هذا الصدد جرّد إسماعيل جميع القبائل المغربية من أسلحتها ، ولم يستثن منها إلا أهل الريف ، لأنهم عرفوا دائماً بإخلاصهم للعرش وملازمة الجهاد من أجل الدين والوطن ضد الأعداء .

وهكذا ضبط مولاي إسماعيل الأمن في ربوع امبراطوريته الواسعة ، وطهّر ثغورها التي كانت بأيدي الأجانب المغتصبين . ولم يبق في حوزتهم إلى الآن إلا سبتة التي نرجو لها الخلاص إن شاء الله .

هذا إلى جانب ما شيده في طول البلاد وعرضها من المصانع والحصون والأبراج ، وما بناه من المدارس العديدة ، عنايةً منه بالشؤون الحربية والعلمية ، وما بذله من عناية فائقة في تخطيط البساتين ، وجلب المياه اليها في نظام متقن يفوق كل تقدير .

وفاة إسماعيل ومآل الأمر من بعده

وفي سنة 1139 هـ توفي السلطان العظيم مولاي إسماعيل بعد أن قضى في الحكم مدة 57 سنة ، لم يكدر عليه خلالها إلا ثورتان خطيرتان قامتا

ضده : ثورة ابن محرز، وثورة ابنه محمد العالم . ومن أخطائه السياسية، أنه قسّم البلاد بين بعض أبنائه سنة 1111 هـ ، فكان ذلك من أقوى الأسباب في ضعف الدولة العلوية ، إذ تقاتل الإخوة على الملك ، فجرّ ذلك على الشعب المغربي ويلات عظيمة ، ثم تفاحش خطر قواد جيش العبيد فبدأوا يولون ويعزلون ويقتلون من شاءوا من الملوك وموظفي الدولة. وانتهى أمر هؤلاء العبيد أيضاً بأن تفرقوا في البلاد شذرمذر . ولم يستعد مكانة الدولة العلوية وأمر هذا الجيش من جديـد إلا السلطان مولاي محمد بن عبدالله .

نقاط التلخيص

- ينتسب العلويون الحاليون إلى جدهم الأدنى علي الشريف، المنحدر من علي بن أبي طالب. وقد استقروا في سجلماسة بتافيلالت وأسسوا بها إمارتهم الأولى، التي كانت غايتها مبدئياً الجهاد ضد الغزاة الأجانب.
- أسس مولاي رشيد دولته العلوية في بلاد الريف بسواعد أبنائه، وبالأموال التي جمعها هناك. وهو الذي قضى على الزاوية الدلائية منافسته السياسية، ولكنه أبقى على علمائها ليستفيد منهم الشعب، كما قضى على إمارة الشبانات بمراكش، أخوال السعديين. وبذلك صفا له ملك المغرب.
- في سنة 1082 هـ توفي مولاي رشيد، فتولى من بعده أخوه مولاي إسماعيل، فحرر هذا جميع ثغور المغرب من المحتلين الأجانب، باستثناء سبتة. ففرح الشعب واستبدل النعال السود علامة الحزن بنعال صفر علامة الابتهاج.
- كوّن مولاي إسماعيل جيوشاً عظيمة منظمة من المغاربة العرب والبربر، ومن العبيد السود، الذين بلغ تعدادهم وحدهم 150 ألفاً. وبواسطة تلك الجيوش وطد اسماعيل أمن البلاد، واستعاد الصحراء، والسودان، الذي توغل فيه كثيراً.
- في سبيل الأمن أيضاً جرّد جميع القبائل المغربية من سلاحها، ولم يستثن إلا قبائل الريف، تقديراً لها على جهادها في سبيل التحرير، وشدة تعلقها بالعرش العلوي.

أسئلة

1 – من أين ينحدر العلويون ؟ أين استقروا في المغرب ؟ كيف تكونت إمارتهم الاولى ؟ ما السبب في تكوينها ؟

2 – كيف أقام مولاي رشيد دولته العلوية ؟ أين ؟ ما رأيك في حربه ضد أخيه ؟

3 – تحدث عن أهم أعمال مولاي إسماعيل الحربية والسياسية. ما أهمية جيش العبيد الذي أنشأه؟

4 – على أي شيء يدل استبدال المغاربة للنعال السوداء بنعال صفر ، في أيامه ؟

5 – لم استثنى قبائل الريف من تجريدهم من السلاح ؟ ما دور هذه القبائل الحربي في عهدي رشيد وإسماعيل ؟

6 – إلى أي شيء آلت حال البلاد بعد موت إسماعيل . ما علة ذلك ؟

الدرس الحادي والعشرون :

عصر الازدهار

المولى محمد بن عبدالله وحركته الاصلاحية

تولية مولاي محمد وصفاته (1171 — 1204 هـ)

مال المغرب — كما قلنا — بعد وفاة بطله العظيم مولاي إسماعيل إلى أسوأ الحالات من الفوضى والاضطراب، حتى سئم الناس الهرج والمرج، ولم تهدأ العاصفة ويتحسن الجو إلا بعد أن تقلد أمور المسلمين مولاي محمد بن عبدالله . وما أن بويع هذا الملك الشهم سنة 1171 هـ حتى أسرع بالضرب على أيدي المفسدين ، فضبط أمن البلاد ، ووحد صفوف الأمة .

ومن صفات مولاي محمد هذا أنه كان قوي الحزم ، واسع السياسة شغوفاً بالإصلاح ، ميالاً إلى السلم ، كما أنه كان عالماً متضلعاً في كثير من فروع العلم، محباً لمجالسة العلماء ، مشجعاً للطلاب بالمال والكتب

على الدراسة والتحصيل . وقـــد ألف بنفسه عدة كتب ، ولم يتعلم إلا بعد أن كبر . ولما تولى أمر البلاد ترك نهائياً دراسة الأدب والتاريخ ، بعد أن أصاب منها حظاً وافراً ، وعكف بعد ذلك على دراسة الحديث الشريف . وقد ضبط لدراسته أوقاتاً خاصة لم يكن يتخلف عنها أبداً .

نشاطه في الميدان الحربي

وكان يقوم بجولات عبر مدن المغرب ، خصوصاً ثغوره الساحلية ، وذلك من أجل استتباب الأمن ، وتحصين مرافق البلاد بمـــا يلزم من وسائل الدفاع ، كبناء الحصون والأبراج ، وإقامة المدافع الضخمة عليها ، وشراء المراكب البحرية ومعداتها اللازمـــة من الدول الأوروبية ، التي كان معجباً كل الإعجاب بتقدمهـــا وحضارتها ، خصوصاً في الميادين الحربية والسياسية والاقتصادية . كما شيد في موانىء المغرب عدة مصانع لبناء السفن ، خصوصاً في مدينتي العرائش وسلا . وقد بلغ أسطوله البحري حوالي ستين قطعة بين كبيرة وصغيرة ، وبلغ عدد بحارتها حوالي ستة آلاف جندي . وهكذا عمل على إحياء الأسطول المغربي القديم ، أيام عظمته . أما جيوشه البرية فقد كانت في غاية التنظيم ومزودة بأحدث أسلحة ذلك العصر .

وقد استطاع بقوته الحربية أن يطرد البرتغاليين المحتلين لمدينة الجديدة وأن يستعيدهـــا إلى باقي الوطن سنة 1182 هـ . بعد أن ظلت في أيدي العدو منذ عهد السلطان الغالب بالله السعدي . وبذلك سجل آخر انتصار للدولة المغربية على دولة البرتغال . ولم يبقَ في يد المحتلين الأجانب من

أرض الوطن سوى سبتة ومليلية . اللتين كانتا بيـد الإسبان وما زالتا إلى يومنا .

وحصل ذات مرة أن المراكب المغربية ألقت القبض على عدة مراكب فرنسية في فترات مختلفة ، وساقتها إلى الموانىء المغربية . فما كان من الفرنسيين إلا أن هـاجموا بمراكبهم البحريـة ثغر سلا في أواخر سنة 1178 هـ ، وقذفوه بوابل من القنابل فردت المدفعية المغربية الحارسة للشواطىء بالمثل ، وأمام ذلك اضطرت المراكب الفرنسية أن تنسحب ، بعد أن أحدثت بالمدينة عدة تخريبات . وفي سنة 1179 هـ ، هـاجموا بمراكبهم العرائش ورموها بالقنابل من البحر ، ثم أنزلوا إلى برها ألف جندي ، في قوارب ، وأحرقوا بمرساها سفينة كبيرة ، كان المغاربة قد استولوا عليها من قبل ، كما أحرقوا بالميناء مراكب أخرى ، ولكن المسلمين هجموا عليهم على حين غفلة ، وتمكنوا من اغتنام أحد عشر قارباً ، بينما فر الباقي ، كما أسروا من جيش العدو مئات الجنود ، لم يطلق سراحهم إلا بعد ان دفعت دولتهم مالاً كثيراً من أجلهم .

وفي سنة 1184 هـ ، قام بضرب حصار شديد على مدينة مليلية ، وأمطرها بوابل من قنابل مدافعه ، فبعث إليه ملك الإسبان يذكره بمعاهدة السلام ، التي كانت قد عقدت بينهما منذ زمان، فكان جواب السلطان: بأن تلك المعاهدة خاصة بالبحر ، ولا يدخل البر ضمنها ، ومليلية واقعة في التراب المغربي ، فلا مهادنة عليها . ثم مال الجانبان إلى الصلح ، بعد أن أطلع الإسبان السلطان على النص العربي للاتفاق على غير حقيقته، إذ كان الأصل « بحراً لا براً » فحذفوا « لا » ووضعوا مكانها « و » فصارت عبارة النص : « بحراً وبراً » .

اهتمامه بالناحية الاقتصادية

لقد اهتم هذا الملك العظيم بالناحية الاقتصادية في البلاد اهتماماً بالغاً، فأكثر من الاتصال بالدول الأوروبية من أجل الاستفادة منها اقتصادياً وسياسياً . وشجع التجار المغاربة على توثيق العلاقات التجارية مع مختلف الدول الأجنبية . وهكذا .. كانت البضائع الأوروبية تحمل الى الموانىء المغربية بدون انقطاع . وقد بنى ثغر الصويرة سنة 1178 هـ ، كي يقوم مقام ثغر أكادير الذي كان يتعرض لهجمات الثوار من آن لآخر . كما أصلح مرسى الدار البيضاء وغيرها . وأعفى التجار الأجانب المقيمين بالثغور من كثير من الضرائب ، حتى ينشطوا في حركتهم التجارية التي تعود بالنفع العميم على المغرب .

وكان المغرب يأخذ ضرائب جمركية على ما يرد إليه من البضائع الأوروبية ، وكانت المراكب الأجنبية تعود إلى بلادها مُحَمّلةً بأنواع من البضائع المغربية . وكثيراً ما كانت البضائع المجلوبة إلى المغرب من أوروبا أسلحة وذخائر حربية أيضاً .

علاقاته السياسية بالدول الأوروبية

كانت علاقة هذا الملك بالدول الأجنبية علاقة قوية جداً ، لأنه كما قلنا سابقاً ، كان معجباً بالتقدم الأوروبي ، وفي الميدان الحربي والسياسي والاقتصادي على الخصوص . وكان سعى من وراء تلك العلاقة أن يؤمن المغرب من شر الدول الأوروبية من جهة ، وأن يستفيد منها من جهة أخرى .

ومن هذه الاتصالات السياسية ، أنه بعث بكتاب الى ملك الإسبان يطلب منه فيه أن يحسن معاملة الأسرى المسلمين . فما أن عرف الملك الإسباني فحوى الكتاب حتى طار فرحاً وسروراً ، وأسرع في الحال بإطلاق سراح ما لديه من أسرى المسلمين ، ووعده بإطلاق سراح الباقي منهم في أقرب فرصـــة . وبعث إلى سلطان المغرب وفداً من القسس والضباط ، مع هدية سنية ، وكتاب يتضمن عبارات الود والصفاء .

وفي سنة 1179 هـ بعث مولاي محمد إلى فرنسا وفداً مغربياً لعقـــد الصلح مع الفرنسيين ، وقبض مال أسراهم الذين ألقي القبض عليهـــم أثناء هجومهم على العرائش . وكلف السلطان وفده أن ينتهـــز الفرصة فيشتري المراكب البحرية ولوازم الحرب . فقام الوفد بمهمته أحسن قيام.

وفي سنة 1181 هـ،عُقد اتفاق سياسي وتجاري بين المغرب والدانمرك وبموجبه تدفع الدانمرك للمغرب خمسة وعشرين مدفعـــاً في كل سنة ، ومبلغ ستة آلاف وخمسمائة ريال . ومثل هذا الاتفاق عقد مـــع السويد . إلا أن المال الذي كان عليه أن يدفعه هو عشرون ألف ريال فقط ، في كل سنة . وهكذا سار في اتفاقاته مع الدول الأخرى ، كانجلترا وفرنسا .

وفي سنة 1182 هـ بعث إلى ملك الإسبان رسالة طلب منه فيها للمرة الثانية أن يطلق ما بقي تحت يديه من أسرى المسلمـــين . فأجابه الملك الإسباني بأنه لم يبق عنده أسير مغربي ، ولكن الذين بقوا عنده هم أسرى جزائريون . فعزّ على مولاي محمد أن يظل المسلمون في الأسر، سواء كانوا مغاربة أو غيرهم ، لأن المسلمـــين كلهم إخوة سواسية . وهكذا توسط بين باي الجزائر،وملك الإسبان في شأن الأسرى الجزائريين،

حتى أطلق سراحهم جميعاً .

وقد أنفق أموالاً باهظة في سبيل افتكاك الأسرى المسلمين بدون تمييز ، حتى لم يبق أسير مسلم في البلاد الأوروبية . وقد بلغ عدد الأسرى الذين أطلق سراحهم خمسين ألف أسير مسلم تقريباً . وكان هذا الملك أول من اعترف رسمياً باستقلال الولايات المتحدة .

علاقاته بالدول الإسلامية

لقد نهج هذا الملك العظيم نحو الدول الإسلامية سياسة خاصة تتسم بربط أوثق العلاقات ووشائج الأخوة التي أوجبها ديننا الحنيف بين المسلمين ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

ففي سنة 1179 هـ بعث إلى السلطان التركي مصطفى العثماني وفداً مغربياً يحمل معه هدية عظيمة، هي عبارة عن مجموعة من الخيول المغربية الجيدة مع سروجها المذهبة والمرصعة بالأحجار الكريمة . فأدخلت هذه الهدية على السلطان التركي سروراً لا مزيد عليه . وبعث بدوره إلى سلطان المغرب هدية نفيسة هي عبارة عن مركب بحري موسوق بآلات الحرب من مدافع ومهاريس وبارود ولوازم بحرية .

وفي سنة 1180 هـ أرسل مولاي محمد إلى السلطان التركي مصطفى العثماني وفداً آخر مصحوباً بهدية مهمة تقديراً لهدية الأتراك الحربية .

وفي سنة 1181 هـ عاد ذلك الوفد إلى المغرب بهدية أعظم من الأولى، هي عبارة عن مركب مشحون بالمدافع ولوازم البحرية، وثلاثين مهندساً

وفنياً تركياً للعمل في الجهاز العسكري المغربي ، فرست المراكب بثغر العرائش،ووزع أولئك الفنيون الأتراك على مختلف المدن ليعمل كل منهم في دائرة اختصاصه .

وفي 1182 هـ زف السلطان محمد ابنته إلى الشريف سرور أمير مكة، وبعث مع العروس أخاها الأكبر مولاي علي ، وهديـة ذات بال إلى سلطان طرابلس ، وأخرى إلى سلطـان مصر والشام ، وأموالاً طائلة لتفريقها في المشرق على الشرفاء والعلماء في مكة على الخصوص . وبلغ جهاز ابنته مائة ألف دينار من الجواهر والذهب .

وفي سنة 1199 هـ أسر الجزائريون سيدة اسبانية من الأسر العظيمة ، ورجاه ملك الإسبان أن يتوسط في القضيـة لفك أسر المرأة بأي ثمن يطلب في شأنها . فاتصل في الحال سلطان المغرب بباي الجزائر التركي، كتابة ورجاه أن يطلق سراح تلك السيدة ، مقابل الثمن الذي يرتضيه، ولكن حاكم الجزائر أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في الموضوع ، لأن الأسيرة من سبي العسكر ، وليس في مقدوره أن يرغمهم عـلى فدائها . فما كان من مولاي محمد إلا أن راسل السلطان التركي وهـو عبد الحميد آنذاك،في نفس الموضوع ، فكتب سلطان الترك إلى حاكمه بالجزائر ، يوبخه على رد شفاعـة سلطان المغرب العظيم ، وأمره بأن يطلق في الحال تلك المرأة ، ويسلمهـا إلى مولاي محمد بدون قيد أو شرط ، وان يطلب منه الاعتذار على رفضه السابق .

ومما قاله السلطان التركي في رسالته إلى صاحب الجزائر : إن الواجب عليكم أن تبادروا بإطلاق سراح تلك المرأة وتسلموها إلى سلطان المغرب بدون أي مال ، حتى ولو كانت ألف امرأة أسيرة لا امرأة واحدة ،

وقـال أيضاً في الرسالة : أو ما رأيتم عدد الأسرى من الأتراك ومن سائر المسلمين ممّن افتكهم سلطان المغرب من الأسر ، من كثير من الدول الأجنبية . حتى لم يبق في بلاد النصارى مسلم أسير واحد ؟ . وهكذا سلمت المرأة الإسبانية إلى مولاي محمد واعتذر له حاكم الجزائر التركي عما فرط منه . فسلمها سلطان المغرب بدوره إلى ملك اسبانيا ، بدون مقابل ، تعزيزاً للسلام وتدعيماً لروابط الصداقة السياسية . وقد أمد ذات مرة الدولة التركية بستة ملايين دينار ذهبي إعانة لها في حربها ضد روسيا .

وهكذا سار هـذا الملك العظيم في سياسته الأخوية مع كافة الدول الإسلامية ، خصوصاً مع الأتراك باعتبارهم المتزعمين للعـالم الإسلامي آنذاك ، فكان بذلك يعمل بحق في سبيل توحيد صفوف المسلمين ، أو على الأصح في سبيل تحقيق فكرة الجامعة الإسلامية ، التي عمل من أجلها قادة الإسلام في الشرق ، قديماً وحديثاً .

أعماله العظيمة الأخرى

وبالإضافة إلى ما قام به هذا المصلح الكبير من الأعمال الحربية والسياسية والاقتصادية، داخل البلاد وخارجها ، حتى اتسم عصره بالقوة والسلام والازدهار في كافة النواحي – بالإضافة إلى ذلك كله فقد أولى ميادين أخرى اهتمامـاً بالغاً . ففي الناحية الدينية والعلمية والعمرانية بنى عدة مساجد ومدارس في كافة مدن المغرب ، وأصلح برامج التعليم ، وشجع العلماء على تأليف كتب دراسية تسير وفق المنهاج المقرر الذي وضعه

واعتنى مادياً وأدبياً بتحسين أحوال القضاة وأئمة المساجد والعلماء والطلاب ، وأنشأ خزائن الكتب ، وشجع المهتمين بالعلم على الاطلاع والتحصيل مما في تلك الخزائن من الكتب النفيسة . وما زالت آثاره العمرانية ماثلة للعيان إلى يومنا هذا في كل المدن المغربية ، ومنها مدينة الصويرة ، وما تحتوي عليه من المنشآت العسكرية والمدارس ، وكذا مسجد السنة بالرباط وسواها .

وقد ساعده على تحقيق تلك الإصلاحات العظيمة، والمشاريع الحيوية ، وجود الأموال الوفيرة التي كانت خزينة الدولة ملأى بها ، والتي كان مصدرها الجمارك المفروضة على المراكب الأجنبية وبضائعها وضرائب أخرى سنها في البلاد على المنتوجات الوطنية لصالح الأمة .

وفاته :

وفي سنة 1204 هـ اختطفته يد المنون بمدينة الرباط . وبموته طويت صفحة من أعز صفحات المجد والعظمة في تاريخ المغرب .

• نقاط التلخيص •

- بعد وفاة مولاي إسماعيل عاد المغـــرب إلى أسوأ الأحوال . ولم يستعد هدوءه وقوته إلا بعد أن تولى أمره مولاي محمد بن عبدالله .

- في الناحية الحربية قام هذا الملك بجولات عبر مدن المغرب وقراه، من أجل استتباب الأمن ، وتحصين ثغوره بالمدافـــع لصد هجوم الأعداء . كما كوّن جيشاً قوياً ، وأسطولاً بحرياً عصرياً للغرض نفسه .

- في الناحية التجارية والاقتصادية ، أنشأ عدة علاقات مـع مختلف الدول الأوروبية ، عادت بالنفـــع على المغرب ماديآً وأدبياً . وكان المغرب في عهده أول من اعترف باستقلال اميركا من بين الدول .

- بالغ في العناية بالمعرفة ، فأصلح برامج التعلـــيم ، وشجع العلماء على تأليف الكتب . وبنى عدة مدارس وخزائن للكتب . وأباح لطلاب العلم الاطلاع والاستفادة مما حوته من المؤلفات النفيسة .

- كانت علاقاته بالدول الإسلامية تكتسي أهمية خاصة، خصوصاً مع تركيا التي كانت تمثل العالم الإسلامي والعربي في المجال الدولي آنذاك . وقد ساعد السلطان المغربي هذه الدولة مالياً في حربها مع روسيا ، إلى جانب مساعدتها سياسياً .

اسئلة

1 – تحدث عن أعمال مولاي محمد بن عبدالله الحربية واستعداداته العسكرية .

2 – ما مبلغ الاهتمام الذي أولاه للاقتصاد ؟ ما الذي ساعده على ازدهاره ؟

3 – كيف كانت علاقاته السياسية مع الدول الاوروبية ؟ ما رأيك في سياسته تلك ؟

4 – بم امتازت علاقاته مع الدول الإسلامية ؟

5 – تكلم عن مدى التقدم العلمي في عهده .

الدرس الثاني والعشرون :

المغرب والمطامع الاجنبية

المولى الحسن وأعماله الإصلاحية

(1290 – 1311 هـ)

●

مبايعة مولاي الحسن وصفاته

في سنة 1290 هـ اعتلى مولاي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن أريكة الملك ، في وقت كانت فيه أحوال المغرب قد ساءت كثيراً، من جراء الفوضى والاضطراب والضعف الذي ساد البلاد طولاً وعرضاً . أضف إلى ذلك وجود الأطماع الأجنبية في الأفق المغربي ، نتيجة لتسابق الدول الأوروبية من أجل الاستئثار بخيرات المغرب الوفيرة ، ومزاحمة أهله في العيش .

وكان هذا السلطان العظيم يتحلى بصفات عالية : كقوة الشخصية والشجاعة والحزم والتبصر السياسي والدين والورع والعلم والكرم والتسامح

واليقظة والتفاني بل التضحية براحته ثم بحياته من أجل مصلحة المغرب والمغاربة. فكانت توليته على الأمة – في تلك الظروف الصعبة – برداً وسلاماً ، بل معجزة بعثها الله اليها لإنقاذها ، ولو إلي حين،من الوقوع في قبضة الاستعمار ومذلة الخنوع لسلطانه الغاشم .

أعماله وإصلاحاته

توطيده للأمن وتقويته للجهاز الدفاعي :

كان أول عمل قام به هذا الملك الهمام أنه أخذ يطوف أنحاء المغرب من أقصاه إلى أقصاه، ويضرب على أيدي أولئك المفسدين ومثيري الفتن والقلاقل ، مستعملاً القوة والعنف مع من طغى منهم وتجبر ، ولم يرض أن يذعن إلى الخلود والسكينة،ومفضلاً التسامح والكرم مع من تاب وأصلح، وعاد إلى التمسك بحبل الطاعة . وهكذا أحل الأمن بالبلاد ، فاطمأن الناس على حياتهم وأموالهم وأحبوا أميرهم المنقذ حباً جماً . وإلى جانب هذا العمل الجبار كان يبني الحصون والأبراج ، وينصب فوقها المدافع الضخمة والمهاريس ، ويشحن المخازن بالقنابل والبارود ولوازم الحرب، وخصوصاً في الثغور الساحلية التي هي أكثر تعرضاً لخطر الغزو الأجنبي . وأقام بتلك المراكز عدة فرق من الجيش ، وأمرها بالتشديد في الحراسة واليقظة . ولهذه الغاية اشترى كثيراً من المدافع وأسلحة الحرب الأخرى، من عدة دول أوروبية ، كألمانيا وانجلترا ، كما استعان في بناء جهازه الدفاعي العسكري ببعض الخبراء الألمانيين والإنجليز . وكان من عادة السلطان أن يستعرض جيوشه للتأكد من استعدادها .

واهتم اهتماماً زائداً بتنظيم جيشه ، وزوده بالأسلحة النارية المعاصرة لذلك الوقت ، المجلوبة من الخارج والمصنوعة في المغرب . كما استعان على تنظيمه بضباط أوروبيين مع بعض أفراد بعثاته الذين عادوا إلى المغرب بعد أن استكملوا ثقافتهم العسكرية . وقد شيد أيضاً داراً للسلاح، خصوصاً في فاس ، وكلف بعض الفنيين الإيطاليين بإدارتها ، فكانت تمد الجيش بما يحتاجه من البارود وغيره .

كما اشترى من إيطاليا باخرة تجارية سماها : « بشير الإسلام بخوافق الأعلام » . وكان المأمول أن تكون هذه الباخرة نواة لإحياء الأسطول المغربي القديم ، أيام دوله العظيمة ، خصوصاً في عهد دولتي الموحدين والمرينيين ، ولكن الجهل المطبق والأحداث السياسية المتعاقبة ، وسوء التبصر ، حالت دون تحقيق تلك الأمنية العزيزة آنذاك .

إيفاده البعثات إلى الخارج

وفي سنة 1291 هـ أوفد السلطان مولاي الحسن إلي أوروبا بعض البعثات ، وجعل على رأس كل بعثة رجلاً من رجال العلم والصلاح ، لصيانة أفرادها . وقد خصص لذلك اعتمادات مالية مهمة . ولما أنهى المبعوثون ثقافتهم في مختلف الفنون العسكرية عادوا إلي وطنهم ، غير أنهم ويا للأسف ، لم يلقوا التشجيع المنتظر من طرف الدولة ، ليعمل كل فرد في دائرة اختصاصه ، فتتقدم البلاد . ذلك لأن المغاربة كانوا في ذلك الوقت غارقين في الجهل والتأخر،حكومة وشعباً . وهكذا عمل السلطان برأي تلك الطبقة المتزمتة من حكامه وفقهائه ، حيث نصحوه

بألا يوظف أولئك المبعوثين العائدين من الديار الأوروبية ، بدعوى أنهم أصبحوا متشبعين بالروح الأوروبية النصرانية .

وفي نفس السنة التي أوفد المغرب فيها بعثاته إلى أوروبا ، أوفدت اليابان أيضاً عدة بعثات ، غير أن المغرب أهمل أفراده المبعوثين ولم ينتفع بخبرتهم إلا قليلاً جداً ، بينما استفادت اليابان من شبابها العائد من أوروبا ، والحامل لمختلف الثقافات الحديثة ، فتقدمت البلاد اليابانية تقدماً مطرداً ، حتى بلغت أوج الحضارة والرقي ، بينما تأخر المغرب .

أعماله المدنية في شتى الميادين

لقد أولى مولاي الحسن اهتماماً بالغاً للشؤون الإسلامية ،فنظم الأوقاف ، واختار القضاة النزهاء ، وحسّن أحوالهم وأحوال أئمة المساجد ،وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية بكل دقة ، وأنشأ عدة مدارس وكتاتيب لدراسة الدين والعلم ،خصوصاً القرآن الكريم والعلوم الدينية ، لأن الدولة كانت ذات طابع ديني محض ، إلا أن رجال الدين بالغوا في التعصب الأعمى ، حتى حادوا بعض الشيء عن روح التحرر الذي هو ميزة الإسلام . وهكذا أصبح لأولئك الرجال النفوذ والرأي ، حتى كانوا سبباً في منع إدخال الأساليب الأوروبية التقدمية إلى البلاد .

وأصلح مولاي الحسن برامج الدراسة لجامعة القرويين وغيرها ،وشجع العلماء على تأليف الكتب المناسبة لذلك . وكان أيضاً مولعاً بالموسيقى ، ومدركاً لفائدتها في تهذيب الخلق ، وترقية الذوق ، فشجعها كل التشجيع ، كما فعل والده من قبله مولاي محمد بن عبد الرحمن .

وقد أسس بالبلاد بعض المرستانات (المستشفيات) لتقوم بواجبها في مجال الصحة العمومية ، وضرب عملة وطنية جديدة تحمل اسمه ، وهي الريال الحسني المعروف ، والنصف ريال والربع ريال وغيره .

وفي الميدان الاقتصادي وجه أيضاً عناية فائقة ، فشجع التبادل التجاري مع الدول الأجنبية . واقترحت عليه بعض الدول الأوروبية أن يعمل على إدخال الأساليب التقدمية الحديثة في بلاده ، كالتلفون والتلغراف والسكك الحديدية ، وإصلاح الطرق، وتنظيم الجهاز العسكري والاقتصادي تنظيماً عصرياً ، واستخراج المعادن من باطن الأرض ، غير أنه كان يتخوف من أن يكون ذلك سبباً في التدخل الأجنبي في شؤون المغرب الداخلية إذا هو أسند تلك الأعمال إلى مهندسين أوروبيين وكان يأمل أن تتهيأ في المستقبل طائفة من المهندسين المغاربة فيتولون القيام بهذه المشاريع الإنشائية في البلاد . وكان يذكي تخوف السلطان من الأوروبيين رجال حكومته المتزمتون . وهكذا حرم المغرب من هذه الفرصة .

المطامع الأجنبية

علاقاته الخارجية بالدول الأجنبية :

لكي ندرك حقيقة الأخطار الأجنبية التي واجهها السلطان مولاي الحسن العظيم ، ينبغي لنا أن نرجع قليلاً الى الوراء ، إلى عهد مولاي عبد الرحمن على الخصوص ، حتى نتتبع حلقة المشكل المغربي من جهة ، ولنقدر الدور الجبار الذي قام به هذا البطل في سبيل تخليص البلاد من الوقوع في الهاوية ، من جهة أخرى . ففي عهد مولاي عبد الرحمن

كثرت الثورات الداخلية ، وتجسّد المشكل السياسي المغربي الأوروبي ، حتى أدى الأمر في النهاية إلى نشوب حرب بين المغرب وفرنسا . خسر المغرب فيها خسراناً مبيناً ، بسبب ضعفه وسوء قيادته ، وهي المعروفة بحرب إيسلي ،وهو واد قريب من وجدة .

وكان المحرك لتلك الحرب،أنه بعد استيلاء فرنسا على القطر الجزائري الشقيق ، وطردها لحكامه الأتراك سنة 1259 هـ ، استمر الجزائريون يحاربون جيوشها ستّ عشرة سنة ، بقيادة أميرهم البطل الحاج عبد القادر محي الدين الجزائري ، الذي كان يعتبر نفسه تابعاً لملك المغرب . وكان المغرب يساند المجاهدين الجزائريين بالمال والسلاح ، وبالرجال أحياناً على دأبه في مساندتهم ومساندة كافة العرب والمسلمين ، فحاولت فرنسا أن تقنع دولة المغرب بالعدول عن عملها العدواني ضدها،فلم تفلح، فنتج عن ذلك نشوب حرب إيسلي التي انهزم فيها المغرب : وتمكنت الجيوش الفرنسية من الاستيلاء على مدينة وجدة ، ولم تنسحب عنها إلا بعد أن دفع المغرب غرامة مالية كبيرة للدولة الفرنسية .

وفي عهد السلطان نفسه أي مولاي عبد الرحمن تقدم أهل أنجره بدافع الغيرة الوطنية الى بيوت الحراسة الإسبانية التي على حدود سبتة ، فهدموها واحتقروا الشعار الإسباني . ومات مولاي عبد الرحمن سنة 1270 هـ وخلفه ابنه مولاي محمد والمفاوضات جارية بين الدولتين المغربية والإسبانية في شأن تسوية المشكل ، غير أن بعض المفاوضين المغاربة الذين لم تكن لهم الخبرة السياسية الكافية أساءوا تفهم الوضع ، فأدى ذلك إلى مغادرة السفير الاسباني لطنجة ، وقيام الحرب بين المغرب واسبانيا . فانهزم المغاربة شر هزيمة ، بالرغم من دفاعهم المجيد ،

وكانت علة انهزامهم هي ضعفهم وسوء قيادتهم أيضاً .

وتمكن الإسبان في تلك الحرب من احتلال تطوان ، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن دفعت حكومة المغرب لاسبانيا عشرين مليوناً من الريال المغربي ، كغرامة حربية . والغريب أن المغرب دفع عشرة ملايين واتُفِق على تعيين بعض رجال اسبانيين للقيام بجمع القدر الباقي من نصف مداخيل الموانىء المغربية . وظل هؤلاء الإسبانيون بالمغرب مدة عشرين سنة ، مما يؤكد أنهم كانوا يختلسون الأموال اختلاساً .

وعقب هذه الحرب ازداد تدخل الدول الأجنبية في قضايا المغرب ، بمقتضى الفصل التاسع والعاشر من المعاهدة التي أبرمت بين مولاي محمد والدولة الإسبانية ، بدعوى المحافظة على المصالح الأجنبية في البلاد . وهكذا كثرت الحمايات الفردية الأوروبية لقسم من الرعايا المغاربة ، خصوصاً منهم اليهود ، الذين أصبحوا بموجب ذلك خطراً على النظام وسير العدالة .

وقد ابتدأت تلك الحمايات الفردية منذ عهد السلطان مولاي عبد الرحمن ، واستمرت إلى نهاية الحماية الفرنسية الإسبانية على المغرب وإعلان استقلاله وحريته . ولما تولى مولاي الحسن عرش البلاد بعد وفاة والده السلطان مولاي محمد كان من جملة إصلاحاته ومساعيه المشكورة أن نجح في حمل الدول الأوروبية التي لها مصالح مع المغرب ، على عقد مؤتمر دولي بطنجة سنة 1296 هـ ، ولكنه لم يسفر عن أي نتيجة إيجابية . ثم بذل مساعي جديدة حتى نجح في عقد مؤتمر بمدريد سنة 1297 هـ ، وحضرته من الدول : المغرب ، اسبانيا ، فرنسا ، البرتغال ، إيطاليا ، ألمانيا ، انجلترا ، السويد ، بلجيكا ، الدانمرك ، النمسا والولايات المتحدة .

وعلى الرغم من أن هذا المؤتمر لم يحقق الغاية التي كان يتوخاها السلطان المغربي العظيم ، فإن الوفد المغربي،وعلى رأسه رجله السياسي المحنك ، السيد بركاش ، وزير البرانية (الخارجية) استطاع أن يحدد بوضوح سياسة المغرب – باعتباره دولة حرة مستقلة – إزاء دول المؤتمر ، وحصل على ضمانات مهمة فيما يخص الامتيازات الأجنبية ، وتحديدها ، بعد أن كانت من قبل متشعبة .

ولكن تلك الامتيازات على الرغم من تضييق الخناق عليها ، ظلت عاراً في جبين المغرب وشوكة في حلقه . وكان المرجو أن يعمل الملوك الذين أتوا بعد مولاي الحسن على تخليص المغرب وتحريره من تلك القيود الأجنبية نهائياً ، تتميماً للعمل الجبار الذي قام به مولاي الحسن ، لكن شيئاً من ذلك لم يقع ، بل ازدادت الحالة خطورة من بعده .

والخلاصة أن مولاي الحسن رغم شخصيته القوية ، التي كان يتمتع بها ، وسياسته اللبقة الفطرية ، فإنه لم يوفق التوفيق الكامل في التغلب على مشاكل المغرب السياسية والاقتصادية،رغم ما بذله من جهود مخلصة، ورغم أنه استطاع بفضل نيته الحسنة وكرمه ووفائه للتعهدات أن يكتسب صداقة دول كثيرة ، وأن يجنب المغرب بسياسته السلمية الخوض في غمار الحروب ، التي لا تجر في أذيالها إلا الويل والثبور ، خصوصاً بالنسبة لدولة ضعيفة كالمغرب ، في ذلك الوقت .

ولكن لا ينبغي لنا أن نحمل السلطان مسؤولية . ذلك التأخر العام للمغرب ، فقد كان لأحداث الماضي نصيبها وللعلماء والحكام المتزمتين الذين كان يستشيرهم في الشدة ، النصيب الأوفى ، كما أن للوسط المغربي المتأخر ثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً في ذلك الوقت حظه

من المسؤولية أيضاً . وماذا يستطيع أن يعمل بطل السباحـــة وحده في خضم محيط ثائر الأمواج ؟!.

وفاته :

وفي سنة 1311 هـ مات السلطان الهام مولاي الحسن ، فكانت وفاته بداية لتعقد المشاكل المغربية ، وازدياد خطرها ، حتى انتهى الأمر إلى إعلان الحماية المشؤومة على المغرب ، في عهد مولاي عبد الحفيظ .

• نقاط التلخيص •

- في سنة 1290 هـ اعتلى مولاي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن أريكة الملك ، في وقت كانت فيه أحوال المغرب عصيبة جداً ، بسبب القلاقل الداخلية ، ووجود الأطماع الأجنبية ، فكان أول عمل قام به هو تثبيت الأمن وتقوية الجهاز الدفاعي في البلاد ، خصوصاً الشواطىء .

- أوفد إلى أوروبا بعض البعثات ، فلما عادت إلى الوطن بعد أن استكملت ثقافتها ، لم تجد من الدولة التشجيع المنشود إذا أُهمل شأنها . وذلك بسبب التعصب والجهل ، الذي كان مستولياً على رجال الحكومة والفقهاء ، الذين عارضوا في إدخال الإصلاحات الأوروبية التقدمية على البلاد .

- رغم ذلك فقد شجع السلطان التجار على الإكثار من التبادل التجاري مع دول أوروبا ، فاستفادت البلاد اقتصادياً من ذلك .

- قام مولاي الحسن بعدة إصلاحات أخرى في ناحية الدين والتعليم والفن ، فأصلح أحوال القضاة والأئمة والشؤون الدينية ، ونظم برامج التعليم ، خصوصاً في جامعة القرويين ، وشجع على التأليف ، واهتم بالموسيقى غاية الاهتمام كوالده .

- استطاع أن يجنب بلاده من الاشتباك في الحروب ، مع الدول المتكالبة على المغرب ، بسياسته اللبقة الفطرية ، وذلك بربط علاقات الصداقة مع الدول جميعاً والوقوف إزاء مشاكلها موقف الحياد .

أسئلة

1 – صف أحوال المغرب يوم تولية مولاي الحسن على العرش . هل استطاع عمل شي
الوضع ؟

2 – ما أعماله في ميدان الامن والدفاع ؟

3 – كيف كانت علاقاته السياسية مع الدول الاوروبية ؟ من أي شيء جنب المغر
العلاقات ؟

4 – تحدث عن بعثات هذا السلطان إلى الخارج . قارن بينها وبين بعثات اليابان .
في إهمال أولئك والاستفادة بهؤلاء ؟

5 – أذكر ما أسفر عنه مؤتمر طنجة ومدريد . ماذا جناه المغرب منها ؟

الدرس الثالث والعشرون :

المغرب والاحتلال الاجنبي

أسباب الاحتلال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية

(1311 — 1330 هـ)

●

تولية مولاي عبد العزيز وقيام وزيره بأمر الدولة

بعد وفاة السلطان العظيم مولاي الحسن خلفه على عرش المغرب ابنه مولاي عبد العزيز ، ولصغر سنه قام الوزير المقتدر أحمد بن موسى بالمحافظة على الملك الصغير . وتسيير دفة الدولة . وكان هذا الوزير قوي الشخصية ، استطاع أن يضبط الأمن في ربوع المملكة المغربية ، وكان القواد والباشوات يخافونه ، لأنه كان شديد البطش . وقد تولى ابن موسى هذا منصب الحجابة منذ أمد طويل ، في عهد مولاي إسماعيل أيام كان خليفة بفاس ، ثم في عهد مولاي الحسن . وفي عهد مولاي عبد العزيز تولى رئاسة الوزارة . وبسبب ممارسته السياسية لشؤون الدولة طوال تلك المدة أصبح محنكاً .

أعمال الوزير في سبيل الأمن والسياسة

من الثورات التي قامت ضد الدولة في عهد هذا الوزير الكفؤ تلك الثورة العارمة التي قامت بها قبائل الرحامنة ، بزعامة مبارك بن سليمان فبعث الوزير إليها جيشاً حكومياً قوياً استطاع أن يقضي على الثورة ، ويقبض على مترعمها ابن سليمان ، الذي وضع في قفص من حديـــد ، وطيف به ، ثم قتل . وذلك سنة 1313 هـ . ثم قامت ثورة ثانية بناحية الشاوية وهي المعروفـــة بثورة الأعشاش ، فقضى الجيش عليها أيضاً ، وألقي القبض على زعمائها وقتلوا ، وذلك سنة 1314 هـ . وهكذا تمكن هذا الوزير المقتدر من توطيد دعائم الأمن ، ونشر ألوية السلام ، في طول البلاد وعرضها .

وقد أرسل ابن موسى باسم السلطان جماعة مختارة بمعية قوة عسكرية صغيرة إلى طرفاية ، لاستلام مرساها من لدن الإنجليز مقابل خمسين ألف جنيه ، دفعتها الحكومة المغربية في طنجة الى السفير الانجليزي ، كتعويض لما كلفه بناء المرسى .

وكما بعث وفداً إلى مدريد للتباحث مع الحكومة الإسبانية في شأن إدخال بعض التعديلات على المعاهدة المغربية الاسبانية المبرمة سابقاً في عهد مولاي الحسن ، فنجح الوفد في مهمته .

وفي سنة 1318 هـ توفي الوزير أحمد ، فكان فقدانـــه خسارة عظمى للمغرب ، إذ اضطرب حبل الدولة بعده ، وساءت الأحوال .

التدهور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي

بموت ذلك الوزير البطل ، انقلبت وضعية المغرب رأساً على عقب، من حالة الأمن والاستقرار ، إلى حالة الفوضى الضاربة أطنابها في كل مكان . وأظهر السلطان مولاي عبد العزيز ،الذي أصبح يعتمد على نفسه، صبراً وجلداً وحكمة في معالجة الموقف ، فطلب من الدول التي لها ارتباط بالمغرب بسبب المصالح المشتركة أن تبادر بإدخال الإصلاحات التقدمية الضرورية على البلاد . ولكن رغم ذلك الإلحاح . فإن السلطان في الواقع كان عاجزاً عن تنفيذ المشاريع العصرية التي تحتاجها البلاد ، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك الوقت الكافي للبناء والتشييد،اذ كان الخرق قد اتسع على الراقع .

ثم استدعى مولاي عبد العزيز رجال دولته وعلية قومه لعقد اجتماع شورى ،قصد منه دراسة الوضع في المغرب . وكان السلطان يأمل أن يستنير بآراء ممثلي شعبه للخروج من المأزق الحرج،ولكنه كان كلما سأل أولئك النواب في مسألة يجيبونه : « الخير فيما اختاره سيدنا السلطان » . وهكذا ضاعت الغاية من ذلك الاجتماع ، الذي برهن الممثلون فيه على جمودهم العقلي وتخدرهم بفكرة الحكم المطلق ، الذي اعتادوه من ملوك المغرب .

ثم قامت ثورة عظيمة بزعامة الجيلالي الزرهوبي المعروف بأبي حمادة. واعتمد هذا الرجل الشعوذة وأعمال السحر في التأثير على الناس . وادعى باطلاً أنه أحد أبناء السلطان مولاي الحسن ، فتبعته عدة قبائل . واستمر هذا الثائر يحارب الجيوش الحكومية ، ويلحق بها الهزائم المتكررة طيلة سبع سنوات . ولم يقض عليه نهائياً إلا السلطان مولاي عبد الحفيظ ،

الذي تولى الملك سنة 1327 هـ ، بعد أخيه مولاي عبد العزيز .

وقد كلف هذا الثائر الطائش الدولة ثمناً غالياً جداً ، فقد أنهك قواها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، مما اضطرها إلى طلب قروض مالية من فرنسا . فكان ذلك سُماً جديداً فتّ في عضد الدولة، وأتاح للفرنسيين أن يتدخلوا في الشؤون الداخلية للمغرب أكثر من ذي قبل .

وعقب ذلك قامت ثورة أخرى بقيادة أبي العباس الريسولي ، الذي دعا لنفسه ، فعاث في الأرض فساداً . ثم تمكنت الدولة من القاء القبض عليه ، بعد جهد جهيد وخسائر فادحة . ثم أودع في سجن الصويرة . ولكن أهل الثائر تقدموا بشفاعتهم إلى السلطان ، فأطلق سراحه . وما أن عاد الريسولي إلى مسقط رأسه في تازروت حتى استأنف نشاطه الإجرامي ، وكلف الدولة خسائر باهظة من جديد . وقد ظل هذا الثائر مستمراً في طغيانه يقتل ويسلب ، ويحابي الإسبان تارة، وينقلب ضدهم تارة أخرى ، إلى أن تمكن المجاهدون الريفيون أخيراً من القاء القبض عليه بأمر من المجاهد الأكبر الأمير عبد الكريم الخطابي ، وسيق إلى أجْدِير* بالريف حيث مات سنة 1342 هـ،في نفس السنة التي أسر فيها.

وكانت الدول الأوروبية ذات المطامع الإستعمارية قد اتجهت نيتها إلى اقتسام المغرب ، لولا تنافسها مع ألمانيا،مما حمل غليوم الثاني امبراطورها إلى القيام بزيارة ملك المغرب مولاي عبد العزيز في طنجة،حيث أكد له مناصرته باعتباره ملكاً لدولة مستقلة . وإثر هذا التحدي الألماني الخطير لفرنسا وغيرها ، عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1323 هـ (الموافقة

---

* أجدير كانت عاصمة الامير عبد الكريم الخطابي في ثورته الوطنية .

سنة 1906 م) وحضرته الدول الأوروبية الثلاث عشرة ، التي حضرت من قبل في مؤتمر مدريد .

وأهم ما أسفر عنه هذا المؤتمر — بالنسبة للمغرب — اتفاق الدول على تعيين فرنسا واسبانيا للقيام بإدخال الإصلاحات على الدولة المغربية ، والإشراف على كثير من المصالح الحيوية في البلاد بدعوى تنظيمها . ورغم أن تلك الإصلاحات مفيدة للمغرب إلى حد ما ، إلا أنها كانت تدخلاً سافراً في شؤونه الداخلية ، ووصمة في جبين حريته واستقلاله . أما حالة الشعب المغربي فقد ظلت كما هي،من حيث الفوضى والوهن .

وفي سنة 1325 ﻫ اتفق أن رفع الطبيب الفرنسي الدكتور موشان علم دولته على منزله بمراكش، فهجمت عليه الغوغاء وقتلته بالحجارة والعصي.. ثم تتابعت أعمال الاعتداء والسلب والنهب ، فنتج عن ذلك احتلال فرنسا لمدينة وجدة ، أخذاً بالثأر ، وطلباً بحقوق المقتول . ثم حصلت حادثة فظيعة كان لها أكبر الأثر في زيادة تدهور الدولة ، مادياً وأدبياً . ذلك أن أحواز الدار البيضاء كأولاد زيان ومديونة ، لما رأوا جلوس بعض المراقبين الفرنسيين والإسبانيين إلى جانب الأمناء المغاربة في المرسى ، لاستخلاص قدر من المدخول ، حسب اتفاق سابق بين الدولة العزيزية ، والدولتين الفرنسية والإسبانية — لما رأوا ذلك ثارت ثائرتهم ، وهجموا على الأوروبيين ، فقتلوا منهم تسعة ، ثم تقدم أولئك الرعاع ، فأمتدت أيديهم إلى قتل الأنفس وسلب الأموال من الدكاكين والبنوك ، وأوقعوا باليهود في حيهم الخاص « الملاح » .

وتعذر على الحكومة المغربية أن تضبط الأمن في المدينة . وأمام ذلك العجز أرسلت فرنسا واسبانيا باخرتين محملتين بالجنود ، واحتلتا المدينة

عنوة بدعوى حماية السكان الأوروبيين ، وذلك سنة 1325 هـ موافق سنة 1907 م .

وعقب ذلك اجتمعت قبائل الحوزية ، وقررت خلع بيعة السلطان مولاي عبد العزيز ، بحجة أنه عجز عن دفع الأعداء عن البلاد ، وأعلنت بيعتها لأخيه مولاي عبد الحفيظ ، الذي كان خليفة بمراكش، والذي ثار من قبل على شقيقه السلطان،قصد تنحيته عن العرش والجلوس عليه بدله . وقد وقعت بين الأخوين حروب طاحنة،كما جرّ تنافسهما الخطير على عرش الأمة أهوالاً وويلات . وكان ذلك من أسباب احتلال فرنسا لوجدة ، ثم احتلالها مع الإسبان للدار البيضاء .

وكان مولاي عبد الحفيظ أثناء قيامه على أخيه يعلن للقبائل بأنه ما قام إلا لتخاذل أخيه السلطان وعجزه ، وأنه عازم على الجهاد لإخراج النصارى من البلاد . وهكذا استعذب الشعب هذا الأمل الخلّب، وساعده ضد أخيه مولاي عبد العزيز حتى انتصر عليه ، واضطره أمام إجماع الشعب على خلعه ، إلى التنازل عن العرش ، من حيث ذهب إلى طنجة واستقر فيها إلى أن توفي هناك .

وما أن هدأت العاصفة قليلاً وأتيحت الفرصة للسلطان الجديد كي يعمل ويحقق ما وعد به ، حتى بدا عجزه في صورة أعظم من سابقتها . وأمام ذلك ثارت عليه قبائل بني مطير وشراكة وغيرها،وهزمت جيوشه هزيمة نكراء ، وحاصرته في عاصمته فاس ، حصاراً شديداً ، لإنزاله عن العرش الذي عجز أن يثبت دعائمه . وفي تلك الأثناء قامت أيضاً ثورة خطيرة في مكناس بقيادة مولاي الزين أخي السلطان ، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد ، وضرب على نفس النغمة المخدرة حيث أعلن للقبائل

بأنه قــام للجهاد ضد النصارى وإخراجهم من بلاد المسلمين ، بعد أن ظهر له عجز أخيه مولاي عبد الحفيظ عن تحقيق ذلك .

استنجاد السلطان بالجيش الفرنسي

وأمام ذلك لم يجد السلطان خلاصاً من ورطته إلا أن يطلب النجدة من الجيش الفرنسي المحتل للدار البيضاء ، فأجيب طلبــه في الحال . وذلك سنة 1911 م . وهكذا تقدمت الجيوش الفرنسية في قوة عظيمــة جداً ، وفكت حصار السلطان ، ثم توجهت تلك القــوة الغاشمة إلى مكناس ، ودخلتها بعد معارك عنيفة وألقي القبض على مولاي الزين ، وسيق إلى فاس ، فعفا عنه أخوه السلطان .

ولما انتهى الجيش من مهمته التي استدعي لهــا شكر السلطان قائده الجنرال موانيه على حسن صنيعه، كما كلفه بتبليغ شكره للحكومة الفرنسية على مساعدتها إياه في موقفه الحرج . وبعد ذلك أذاعت المصادر الفرنسية أن السلطان راغب في إبقاء فرقة من الجيش الفرنسي في فاس ، تقدر بنحو ستة آلاف جندي، حيطة من تجدد الفتنة بالبلاد . ولما رأت اسبانيا ذلك ، لامت فرنسا على مخالفتها لعقد الجزيرة ، وأسرعت بدورهــا فاحتلت العرائش والقصر الكبير.ثم لامت ألمانيا وانجلترا دولتي فرنسا واسبانيا على عملها ، وانتهت المهزلة السياسية باتفاق تلك الدول على اقتسام الشمال الإفريقي ، فكان المغرب من نصيب فرنسا وشماله من نصيب اسبانيا . ومصر من نصيب انجلترا،أما ألمانيا فأعطيت لها أراضي في وسط إفريقيا.

ولما سمع السلطان مولاي عبد الحفيظ بذلك الاتفاق تفطن للخطر ،

وأراد أن يلعب دوره السياسي ، في وقت انتهى فيه لعب الأدوار ، فبعث رسالة إلى المسيو دوسلف يبارك فيها الاتفاق الحاصل بين فرنسا وألمانيا في شأن المغرب ، ويستعجله بإيفاد الممثلين الفرنسيين لادخال الإصلاحات على بلاده المستقلة . ولكن هيهات أن ترحم الذئاب الجائعة فريستها وقد ظفرت بها بعد جهد جهيد وتنافس خطير ...

اعلان عهد الحماية المشؤوم

وعقب ذلك تقدم القائد الفرنسي الجنرال موانيه إلى السلطان،وعرض عليه ، بأمر دولته قبول الحماية الفرنسية على المغرب ، فعكف مولاي عبد الحفيظ على دراسة بنودها مدة خمسة شهور ، حتى اطمأن إلى ضمان حقوقه وحقوق خلفه في العرش ، واحترام الدين الإسلامي ومصالح الأمة . وفي يوم 29 مارس سنة 1912 م ، أبلغ السلطان الجنرال الفرنسي موانيه بأنه مستعد للتوقيع على صك الحماية غداً .

وفي الغد أي يوم 30 مارس سنة 1912 م حضر ممثل فرنسا إلى القصر السلطاني ، وحصل على توقيع السلطان مولاي عبد الحفيظ بإعلان الحماية الفرنسية على المغرب . وبعد ذلك أحس السلطان بالمصيبة التي أوقع بلاده فيها ، فتنازل عن العرش ، وسافر إلى فرنسا ، وظل مقيماً بها إلى أن توفي سنة 1330 هـ ، فنقل جثمانه إلى فاس في سيارة مدفعية تحف بها الجنود والأعلام . وهناك دفن . وقبل تنازله عن العرش كان قد أشار بتولية أخيه مولاي يوسف خلفاً له . فأسند الأمر إلى هذا الأخير يوم الثلاثاء 29 شعبان 1330 هـ موافق 12 آب سنة 1912 م .

ومما تقدم ، ندرك بوضوح مدى الضعف والإنحطــاط الإقتصادي والسياسي والإجتماعي ، الذي تخبط فيه المغرب،خصوصاً بعد وفاة وزيره المقتدر أحمد بن موسى ،فلا الأمن مستتب،وليس هناك ضمائر نزيهة ولا وعي سياسي ولا مال بالخزينة . فكانت النتيجة أن فقدت البلاد استقلالها لأول مرة في تاريخها الإسلامي ، ووقعت في قبضة الاحتلال الأجنبي .

• نقاط التلخيص •

- تولى مولاي عبد العزيز وهو صغير السن بعد وفاة والده مولاي الحسن ، فقام بأمر الدولة وزيره المقتدر أحمد بن موسى ، ورغم قساوة هذا الوزير ، فإنه استطاع أن يحافظ على استقلال البلاد .

- بعد موت ابن موسى آلت أحوال المغرب إلى التدهور وقامت على السلطان الشاب عدة ثورات ، أخطرها ثورة أبي حمادة ، التي استنزفت أموال الدولة ، ثم ثورة الريسولي بجبالة (بتازروت).

- اتفقت الدول الاستعمارية سرياً من قبل على اقتسام الشمال الإفريقي، على أن يكون المغرب من نصيب فرنسا وشماله من نصيب إسبانيا، ومصر لانجلترا ووسط إفريقيا لألمانيا .

- حدث أن رفع طبيب فرنسي في مراكش علم دولته على داره فقتلته الجماهير ، فدفع ذلك فرنسا إلى احتلال وجدة أخذاً بالثأر، ثم قتل بعض الرعاع المغاربة جماعة من الأوروبيين في الدار البيضاء فكان ذلك حافزاً لفرنسا وإسبانيا على احتلال المدينة بدعوى حماية السكان الأوروبيين .

- ثارت القبائل المغربية على السلطان مولاي عبد العزيز لعجزه عن القيام بأعباء الملك ، ثم ثارت على خلفه مولاي عبد الحفيظ لنفس السبب . ولكن هذا الأخير استعان بالجيوش الفرنسية ضد القبائل. فكان دخول تلك الجيوش الأجنبية سبباً في إعلان الحماية من بعد على البلاد في يوم 30 مارس سنة 1912 م ثم تنازل مولاي عبد الحفيظ بعد ذلك عن العرش لأخيه مولاي يوسف .

أسئلة

1 – ماذا أفاد وجود الوزير أحمد بن موسى في العهد العزيزي ؟ أذكر أعماله .

2 – تكلم عن الثورات الخطيرة التي قامت في عهد مولاي عبد العزيز . ما أخطرها ؟

3 – لم قدم غليوم امبراطور ألمانيا إلى طنجة ، وما تأكيده للسلطات تأييده لاستقلال المغرب ووحدة ترابه ؟ ما رأيك في ذلك ؟

4 – ما السبب في احتلال فرنسا لوجدة ، ثم احتلالها مع إسبانيا للدار البيضاء ؟

5 – لم ثارت القبائل على السلاطين : مولاي عبد العزيز ، ومولاي عبد الحفيظ ؟ في أي تاريخ أعلنت فرنسا الحماية على المغرب ؟

الدرس الرابع والعشرون :

المقاومة الوطنية للاحتلال

ثورات : الريف ، والصحراء والأطلس ، الحركة الوطنية

●

ثورة الأطلس والصحراء

أعلنت الحماية على المغرب وتولى مولاي يوسف على العرش عام 1330هـ موافق سنة 1912 م عقب تنازل أخيه مولاي عبد الحفيظ عن الملك ، الذي زعزع كيانه بقبوله الاحتلال الأجنبي على البلاد . ولم ترض الأمة على بكرة أبيها عن هذا الوضع الجديد،الذي فرض عليها فرضاً،وجردها مع توالي الأيام من كل شيء إلا من كرامتها الأصيلة في نفسها . لقد استاء الشعب برمته من الحماية المشؤومة باستثناء طغمة من الخونة وعباد المصلحة الذاتية ، الذين لا تخلو منهم أمة من الأمم .

وفي الوقت الذي كان فيه الفضاء يستقبل طلقات المدافع ابتهاجاً باعتلاء مولاي يوسف عرش المغرب ، كان الفضاء نفسه يستقبل وابلاً من الطلقات النارية إيذاناً بانفجار الغضبة الشعبية ، واندلاع الثورة التحررية

ضد المحتل الغاشم في الجنوب . إذ قام احد الأبطال واسمه هبة الله نجل ماء العينين ، وأعلن الجهاد المقدس ضد المحتل الغاصب . فتبعــه خلق عظيم من الغيورين على الدين والوطن وتقدم بهم إلى مراكش . فاستولى عليها بعد معارك طاحنة أبدى فيها الحلاوي الذي كان منوطـاً بالدفاع عن المدينة كثيراً من ضروب الشجاعة والجلد . وذلك في يوم 16 آب سنة 1912 م ، أي بعد مضي أربعة أيام فقط من اعتلاء مولاي يوسف على العرش .

غير أن البطل هبة الله لم يكتب له النجاح طويلاً ،فسرعان ما وُجهت إليه حملة فرنسية عظيمة بقيادة الكولونيل مانجان وحاربته باسم الحماية ، ولما رأت صلابة المقاومة الوطنية استعملت كل صنوف القسوة، وتمكنت بعد اللتي واللتيا من التغلب على المدافعين الأحرار ، واقتحمت مراكش عنوة يوم 8 سبتمبر من نفس السنة المتقدمة، وقتلت من المجاهدين حوالي ألفين . وأمام ذلك فر هبة الله ، واضمحلت سلطته التي كان قد أعلنها من قبل .

ولكن المواطنين في الأطلس والصحراء جددوا كفاحهم ضد المستعمرين الفرنسيين ، وضد الإسبانيين في جزء من الصحراء المغربيــة . وظلت تلك المقاومة فترة طويلة من الزمن كبدت الأعداء خلالها خسائر عظيمة في الأرواح والعتــاد . وتعذر على الأعداء التغلب على الأحرار بقوة السلاح وحدهــا ، فلجأوا إلى بث سماسرتهم من الخونة بين صفوف المناضلين ، فأفسدوا الضمائر ، وأضعفوا من الإيمان بالحق . ومن هذا الباب نفذ المستعمرون كعادتهم، فقضوا على تلك المقاومة المباركة القضاء المبرم،بعد نضال طويل ، استمر مع الإسبان على الخصوص إلى سنة 1934م

حيث استولوا بعد ذلك على منطقة إفني . أما طرفاية والساقية الحمراء ووادي الذهب فكانوا قد استولوا عليها من قبل ، بناء على اتفاق سري بينهم وبين الفرنسيين حول اقتسام الصحراء المغربية .

حرب الريف

لما أعلنت الحماية على المغرب عينت فرنسا الجنرال لوطي مقيماً عاماً على المغرب ، فوجد البلاد في أسوأ الأحوال من الفوضى والانحطاط ، وكان أول عمل قام به هو إقرار الأمن ، استعداداً لتنفيذ بنود الحماية بنزاهة وإخلاص،لأنه كان رجلاً متحرراً في أفكاره . غير أن الحكومة الفرنسية عارضته في تطبيق الحماية،بالرغم من إلحاحه عليها اكثر من مرة، وتنبيهه إياها إلى أن المغاربة شعب ذكي نشيط عريق في المجد والتقاليد، ولا بد له في يوم من الأيام أن ينهض ويستعيد حريته المسلوبة ، ومن الأفضل لفرنسا أن تساعده على التقدم ، لتضمن صداقته قبل فوات الأوان .

وقامت اسبانيا من جانبها ، وعينت مقيماً عاماً من قبلها على منطقتها الشمالية كما عينت مولاي المهدي بن مولاي إسماعيل خليفة عن سلطان المغرب وجعلت تطوان عاصمة منطقة احتلالها . أما منطقة طنجة فانها احتفظت بنظام دولي . وما أن شرعت قوات الاستعمار الإسباني في احتلال مراكزها بشمال المغرب ، حتى أعلن الأمير عبد الكريم الخطابي الحرب على اسبانيا ، وألحق بقوادها العسكريين العظام خسائر باهظة . وما زال العالم كله يذكر معركة أنوال التي اندحر فيها الجنرال الإسباني

سيلفتر اندحاراً شنيعاً يوم 22 يوليو سنة 1921 م مع قواته البالغ عددها خمسة وعشرين ألف جندي . وفي تلك المعركة غنم المجاهدون الريفيون مـــا لا يحصى من الغنائم والعتاد الحربي ، فكان ذلك عاملاً قوياً في دفعهم إلى الأمام ، وإحرازهم نصراً بعد نصر .

وقد ضيق المجاهدون الريفيون بقيادة بطلهم العظيم عبد الكريم الخناق على الإسبان ، واستولوا على معظم ما كان بأيديهم من الأراضي المحتلة في شمال المغرب . وأصبحت قبائل الريف وقبائل « جبالة » التابعة للبطل تهدد تطوان عاصمـــة منطقتهم في الشمال . كما حاصر المجاهدون مليلية حصاراً شديداً ، حتى كادت تسقط في أيديهم ، ولكنهم تخلوا عنها ، وقد أسف الأمير على ذلك بعد فوات الأوان ، إذ لو أنه كان احتلها لكانت القوة الإسبانية قد انهارت نهائياً .

ولما رأى الفرنسيون انتصار الريفيين المستمر وانهزام الإسبان المتوالي، دسوا أنوفهم في الموضوع ، فأسندت الحكومة الفرنسية قيـــادة الجيوش الفرنسية لتحارب ضد البطل عبد الكريم إلى المارشال بتان . وحضر هذا إلى تطوان يوم 28 يونية سنة 1925 م ، واتفق مع الجنرال بريمو دي ريبيرا ، المقيم العام الإسباني لمنطقة الاحتلال الاسباني في الشمال عـــلى القضاء على عبد الكريم ، وأن يكون عملها الأول هو احتلال الحسيمة . هذا بعد أن تسبب الفرنسيون عمداً في إحداث مشاكل على الحدود الريفية المستقلة ، والحدود المغربية المحمية . وكان الأمير البطل يرغب في تسوية المشكل بالطرق السياسية السليمة ، غير أن بعض ضعاف النفوس، أوّلوا ذلك التفكير الحكيم من جانب الأمير بموقف الضعف ، بل بالتـواطؤ مع الفرنسيين .

وأمام ذلك لم يجد الأمير بدأ من خوض الحرب مع الجيوش الفرنسية، وهكذا أصبح عبد الكريم يحارب دولتين قويتين ، وفي واجهتين حربيتين مختلفتين . وبالرغم من ذلك فقد تمكن من إلحاق عدة هزائم بالفرنسيين، واستولى على كثير من الأراضي المغربية التي كانت بأيديهم ، ووصل المجاهدون الريفيون إلى فاس وهددوها ، حتى كادت تسقط في أيديهم، غير أن قوى الشر تعاونت على محاربة الأمير من كل جهة . فإلى جانب هجمات الأعداء القوية ، لعبت الخيانـــة دورها الوضيع . وليس هناك أدهى وأمر من خيانة أفراد من الأمة لوطنهم .

وهكذا تسربت البلبلة في الصفوف الريفية بعد أن كانت قوية متحدة، ونتج عن ذلك ضعف المقاومة ضعفاً متوالياً . وبدأت أراضي المجاهدين تسقط تباعاً يوماً بعد يوم في أيدي العدو ، حتى أصبحت أجدير عاصمة البطل ، قاب قوسين أو أدنى من السقوط . آنذاك لم يجد الأمير مفراً من إعلان الكف عن القتال واللجوء مع عائلته إلى الفرنسيين ليأخـــذوه أسيراً ، بدل الإسبان الذين كانوا أكثر وحشية في حروبهم . وتم التسليم في يوم 22 ماي سنة 1926 م . وهكذا انتهى هـــذا الجهاد المقدس الذي دام سنين طويلة .

ونقلت الحكومة الفرنسية البطل وعائلته إلى جزيرة الرينون . وبعد ما قضى بها زمناً طويلاً ، إلى سنة 1366 هـ، أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عزمت الحكومة الفرنسية على نقله من الجزيرة إلى سجن آخـر بفرنسا . ولما رست الباخرة الفرنسية التي تقله بمرسى بور سعيد المصري، عملت عناصر وطنية مغربية مع رجال مصريين مسؤولين وباتفاق مـــع الجامعة العربية على إنقاذ الأمير العظـــيم هو وأسرته . وهكذا استطاعت

هذه العناصر بلوغ هدفها حسب خطة مرسومة من قبل . ومن المرسى حمل في الحين في سيارات مخصوصة إلى القاهرة ، حيث خصص لإيوائه قصر فخم . وبالغ المصريون في إكرامه والحفاوة به . واعتمدت له الحكومة المصرية أموالاً طائلة ليعيش بها مع أسرته الكريمة عيشة راضية مطمئنة .

ولما زار ملكنا الراحل – طيب الله ثراه – أرض الكنانة في سنة 1958 م تقابل مع المجاهد الكبير لأول مرة ، وألح عليه عاهلنا الكريم في العودة إلى الوطن العزيز ، بعد أن تحرر ، إلا أن الأمير البطل ظل متمسكاً برأيه ، وهو ألا يعود إلى مسقط رأسه حتى تتحرر الجزائر الشقيقة من ربقة الاستعمار الفرنسي الغاشم . فلما استقلت شقيقتنا وأصبح الشمال الإفريقي الذي تزعم الامير البطل حركته السياسية من القاهرة كله متحرراً ، استعد للعودة إلى وطنه،تلبية لرغبة الملك الراحل محمد الخامس ورغبة الملك الحالي الحسن الثاني – نصره الله – ورغبة الأمة جمعاء .

وفاة المجاهد عبد الكريم

وبينما نحن في انتظار أوبته بفارغ الصبر ملكاً وشعباً لنتملى بطلعته الميمونة ، ونهتف بحياته الغالية ، ونسكب دموع الفرح والابتهاج بلقائه العزيز ، إذا بالأخبار تفاجئنا بنعيه في 11 رمضان سنة 1382 هـ ، موافق 5 فبراير سنة 1962 م ، فطارت قلوبنا شعاعاً من هول الكارثة ، وعم الحزن العميق العالم الإسلامي والعربي . ولكن ماذا يجدي الحزن الطويل، والبكاء المتصل أمام قضاء الله .

إن البطل عبد الكريم قد أدىٰ واجبه الوطني أحسن أداء ثم توارى ، كما تفعل الشمس . إلا أن حرارة إيمانه ونور تعاليمه ما زالا يغمـــران نفوسنا . ولن تخمد تلك الحرارة أبداً ، ولن ينطفىء ذلك النور بتاتا . فسيظل عبد الكريم في قلوبنا وقلوب الأجيال من بعدنا إلى ما شاء الله رمزاً للكفاح المقدس من أجل الحق ، وفكرة راسخة للمثل العليا .

الحركة الوطنية

بعد انتهاء المعارك الريفية اطمأن الإستعمار ، وظن أن المغاربة رضخوا لمشيئته ، واستجابوا لدعوته الباطلة ، التي تتضمنها « الحماية » المفروضة عليهم . ولكن سرعان ما ظهر سوء تقديره للأمور ، إذ برز إلى الميدان نوع جديد من الكفاح البطولي هو الكفاح السياسي . ففي سنة 1920 ، أي بعد الحماية بثمان سنوات، تقدمت طائفة من الشباب المغربي المتحمس، إلى الإدارة الفرنسية بمطالب ، تنص على تحقيق بعض الإصلاحات في دائرة الحماية : كاعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد ، وإطلاق حرية الصحافة ، ونشر التعليم ، واحترام سلطة الملك . وكان الجالس عـــلى عرش المغرب آنذاك السلطان مولاي يوسف ، فأبدى من جانبه سروره بتلك المطالب المشروعة .

وبدل أن تلبي الإدارة الفرنسية تلك المطالب لجأت إلى تهييء مشروع خطير ، يرمي لفصل البربر عن العرب ، أو على الأصح لإخراج البربر من العائلة الإسلامية . وذلك المشروع هو المعـــروف بالظهير البربري المشؤوم الصادر بتاريخ 16 مايو 1930 م . وهكذا سعى الإستعمار الفرنسي

لتفريق الأمة ، عملاً بحكمته المأثورة « فرق تسد » . ولكن ذلك الظهير بالرغم من عواقبه الوخيمة ، كان له الفضل الأعظم بالنسبة للمغاربة . إذ ما أن أعلنته الحكومة الفرنسية حتى حمي غضب الشعب، وثارت ثائرته وأجمع شيبه وشبابه على إعلان سخطهم ضد السياسة الفرنسية الجديدة . وكان ذلك الظهير أيضاً إيذاناً بقيام حركة سياسية منظمة ضد الحماية .

ثم لجأت فرنسا وإسبانيا باتفاق سري بينهما إلى اقتطاع أجزاء من المغرب في القسم الجنوبي . وهكذا جعلت فرنسا « موريتانيا » تابعة لإفريقيا الشرقية الفرنسية ، بينما استولت اسبانيا على طرفاية والساقية الحمراء ووادي الذهب .

وعقب كل ذلك تكونت كتلة وطنية من شباب المغرب الغيور وقدمت هذه الهيئة إلى الملك والإدارة الفرنسية مجموعة من المطالب تنص على إصلاحات مهمة في دائرة الحماية أيضاً . ولكن الفرنسيين لم يستجيبوا لدعوة الحق . وبعد ذلك تحولت تلك الكتلة الوطنية إلى حزب سياسي يحمل اسم « الحزب الوطني ». فعمدت الإدارة الفرنسية الغاشمة إلى اغلاق مراكزه في المدن والقرى ، وسجنت ونفت وشردت زعماءه وأنصاره . وظل أولئك المجاهدون المخلصون في معاقلهم إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية، التي شارك فيها الجنود المغاربة مشاركة فعالة، إلى جانب الحلفاء ، فأطلق سراح أولئك الوطنيين المكافحين .

وما أن رجعوا إلى بيوتهم حتى استأنفوا تجمعهم وكفاحهم، متعاونين، وقدموا مطالب جديدة تنص هذه المرة على إعطاء المغرب حريته واستقلاله. وما أن أُطلع ملكنا الراحل محمد الخامس على نسخة تلك المطالب حتى رحب بها وأيدها التأييد المطلق . فلجأت الحكومة الفرنسية إلى خطتها

الجهنمية المألوفة ، وهي الزّج بأولئك الأبطال في غياهب السجون والمنافي وإنزال شتى أنواع التعذيب بهم . ولكن الأزمة ظلت على ما هي عليه من التوتر السياسي . وفي سنـــة 1947 م بدا أن تلك الأزمة على وشك الانقشاع ، فسافر جلالة الملك محمد الخامس إلى طنجة ، وهناك أعلن صراحة في خطابه التاريخي أن المغرب يطالب باستقلاله ، وأنه جزء لا يتجزأ من الأسرة العربية التي تمثلها الجامعة العربية . فوقع ذلك الخطاب على قلوب الفرنسيين وقع الصاعقة ، وعادت الأزمة بين المغرب وفرنسا إلى سابق عهدها من التوتر والشدة .

• نقاط التلخيص •

- لم يرض الشعب بإعلان الحماية عليه ، فقامت ثورة عظيمة في الجنوب تزعمها البطل هبة الله ، وكانت ترمي إلى تخليص البلاد من الاحتلال الأجنبي ، غير أن الجيوش الفرنسية تمكنت من إخمادها بعد معارك شديدة .

- ثم أعلن الأمير عبد الكريم الخطابي حربه على الجيوش الإسبانية، فحقق عليها انتصارات حاسمة في عدة معارك أهمها معركة أنوال، التي اندحر فيها الجنرال الإسباني سيلفتر اندحاراً شنيعاً .

- بعد ذلك اشتبك المجاهد الخطابي اضطراراً مع الجيوش الفرنسية وتغلب عليها غير ما مرة ، وكاد يستولي على فاس ، غير أن قوى الشر تكاثرت عليه ، وعملت الخيانة من جانب آخر عملها ، فاضطر إلى الكف عن القتال، وتسليم نفسه مع عائلته للفرنسيين .

- استطاع البطل بعد ذلك بمدة طويلة الافلات من أيدي الفرنسيين ، ودخول مصر ، وعاش بين إخوانه المصريين معززاً مكرماً ، إلى أن وافاه الأجل رحمه الله سنة 1382 هـ .

- في سنة 1930 م أصدرت الإدارة الفرنسية الظهير البربري ، الذي يرمي إلى فصل البربر من العائلة الإسلامية فعارضه الشعب والملك، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قدم الوطنيون طلب المغرب لحريته واستقلاله ، فأجابت فرنسا كعادتها بالسجن والنفي .

اسئلة

1 – ما أعظم معركة حقق فيها المجاهدون الريفيون النصر على الإسبان ؟ ماذا غنموا فيها ؟

2 – على أي شيء تأسف الأمير عبد الكريم في حياته الحربية؟لم حارب الجيوش الفرنسية أيضاً؟ ماذا كانت النتيجة ؟

3 – كيف أفلت البطل المجاهد من الاسر الفرنسي هو وعائلته ؟

4 – ماذا كان غرض الفرنسيين من إصدار الظهير البربري ؟ ماذا قدم الوطنيون للإدارة الفرنسية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ؟

5 – اذكر موقف الملك محمد الخامس – رحمه الله – من الظهير البربري ومن مطلب الشعب المتعلق بحرية المغرب واستقلاله .

الدرس الخامس والعشرون :

عهد الانبعاث والاستقلال

جلالة محمد الخامس ــ جلالة الحسن الثاني

●

تولية محمد الخامس وصفاته (1346 هـ ــ 1380هـ)

تولى ملكنا الشهم ــ قدس الله روحه ــ على عرش المغرب سنة 1346 هـ موافق 1927 م ، عقب وفاة والده المرحوم مولاي يوسف . ومن صفاته الكريمة التي حببت الشعب فيه : غيرته الشديدة على الإسلام والعروبة ، وتفانيه العظيم في خدمة الوطن . وتسامحه وعطفه وتواضعه وقوة شخصيته ، وغير ذلك من كريم الخصال وحميد السجايا ، التي ما اجتمعت في شخص إلا وأصبح أهلاً للمحبة والتقدير .

مواقفه السياسية المشرفة

كان أول امتحان سياسي واجهه هذا الملك الفذ،وبرهن على استعداده

الشخصي الموروث من أرومته العلوية المجيـــدة ، هو معارضته الشديدة للظهير البربري الممقوت ، الذي صنعته الأدارة الفرنسية لفصل البربر عن الإسلام . ولم يوقع جلالته على ذلك الظهير أبـــداً بالرغم من إلحاح الفرنسيين عليه .

ولما أسست فرنسا وزارة ما وراء البحار التي تضم المستعمرات الفرنسية ألحقت المغرب بها . فرفع ملكنا البطل احتجاجه الصارخ إلى الحكومـــة الفرنسية على اعتبار أن المغرب ليس مستعمرة . وإن ذلك الإحتجاج في ذلك الوقت العصيب ليعتبر جرأة خطيرة وعملاً جباراً قام به عاهلنا الكريم . ولما حاولت فرنسا مرة أخرى ، جعل المغرب ضمن اتحادهـــا ، كباقي المستعمرات،عارض هذا المشروع بكل شدة ، وبعث باحتجاجه للحكومة الفرنسية .

ولما أتاحت له الظروف زيارة طنجة ، ذات النظام الدولي ، سنة 1947 م صرّح في خطابه التاريخي بكل جرأة ووضوح ولأول مرة بحق المغرب في الحرية والإستقلال ، وأنه جزء من الأسرة العربية التي تمثلها جامعتها . وفي سنة 1950 م قام برحلة إلى فرنسا . ودخل مع الحكومة الفرنسية في مباحثات حول تسوية المشكل المغربي ، واشترط عدم حضور المقيم الفرنسي العام بالمغرب،لأنه ذو عقلية استعمارية . وفي تلك المحادثات قدم مطالب المغرب المتعلقة بإلغاء الحماية عليه،وإعلان حريته، واستقلاله . إلا أن الدوائر الفرنسية أجابت : بأن طلب الحريـــة والإستقلال سابق لأوانه . وانها مستعدة لإدخال إصلاحات جزئية على المغرب في دائـــرة الحماية ، فرفضها الملك الشهم ، وعاد إلى وطنه .

وعقب ذلك تكتلت الأحزاب الوطنية السياسية بالمغرب،وجعلت طلبها

الوحيد هو الحرية والإستقلال . وتم ذلك التكتل الوطني الرائع في طنجة، تحت إشراف ممثل الجامعة العربية ، وسكرتير المؤتمر الإسلامي، وبمحضر جمع من الصحافيين المصريين . وبعد ذلك اتخذت الإجراءات السياسية لعرض قضية المغرب على المحافل الدولية ، في دورتها السادسة سنة 1951 م . وفي ذلك الاجتماع الدولي انسحب الوفد الفرنسي احتجاجاً على عرض القضية المغربية باعتبارها قضية تهم فرنسا وحدها .

ثم كان أن عرضت هذه القضية من جديد على الجمعية العمومية لتفصل في إدراجها في جدول دورتها أولاً ، وكانت اللجنة السياسية قد أوصت من قبل بتأجيلها . ورغم أن القضية لم تحز على عدد الأصوات المطلوبة لطرحها على بساط البحث الأممي ، فإن تلك الخطوة اعتبرت نجاحاً سياسياً عظيماً ، بالنسبة للمغرب في الحقل الدولي . وعقب ذلك ازداد التوتر بين المغرب وفرنسا ، فانتهز الملك الهمام الفرصة ، وبعث إلى الحكومة الفرنسية في مارس سنة 1952 م بمذكرة ، يقترح فيها أن تقدم فرنسا للبرهنة على نواياها الطيبة ، وتحسين الجو السياسي المتوتر بالشروع في تحقيق بعض المطالب المستعجلة: كمنح الحرية العامة والخاصة، والحرية النقابية ، وتأليف حكومة وطنية جديدة بصفة مؤقتة ، لتقوم بمهمة المفاوضة معها ، قصد تسوية المشكل من كافة وجوهه ، بالطرق السلمية . غير أن الحكومة الفرنسية لم تستجب لهذه الدعوة الكريمة .

وفي سنة 1952 م عرضت قضية المغرب على أنظار الأمم المتحدة ، فحازت هذه المرة ، بفضل الدول العربية والإسلامية والأجنبية المحبة للسلام على نجاح باهر ، إلا أن الجمعية كلفت فرنسا أن تقوم بتسوية المشكل بينها وبين المغرب . فانتهز الملك البطل تلك الفرصة أيضاً ،

وبعث إلى الحكومة الفرنسية برسالة يوم 12 يناير 1953 م يطلب فيها الدخول معه في المفاوضة . وقد أيدت هذا المسعى الحميد كثير من الهيئات والصحف الفرنسية والعالمية ، ولكن فرنسا ظلت متمسكة بعنادها . وتمادى طغيانها فألقت في نفس السنة بالأحرار في السجون ، وشجعت طائفة من الخونة على معارضة المطامح الوطنية ، وانتهت النتيجة بأن تقدم المقيم الفرنسي العام ، ومن ورائه قواته الغاشمة والخونة ، فخيّر ملك البلاد بين اثنين : إما قبول ادماج المغرب في العائلة الفرنسية ، أو تنازله عن العرش ، فكان جوابه جواب المؤمن الأمين ، والبطل الشهم ، قال — رحمه الله — للمقيم الفرنسي : لا هذا ولا هذا .

بدأ الكفاح المسلح

وآنذاك نحي عن عرشه ، وسيق مع أسرته الكريمة إلى منفاه السحيق بجزيرة كورسيكا ، ومنها إلى جزيرة مدغشقر . ونصبت الإدارة الفرنسية المسمى ابن عرفة سلطاناً مزيفاً على عرش المغرب ، فهاج الشعب على بكرة أبيه ، وتهيأ للكفاح المسلح . وما أن مرت بضعة أيام على مغادرة ملك البلاد الشرعي ، وتنصيب إمعة الاستعمار على العرش ، حتى تقدم الفدائي العظيم علال بن عبدالله نحو الصنيعة الاستعمارية ، وهي خارجة لأداء صلاة الجمعة ، فهاجمها في سيارته ، وتمكن من اسقاطها من فوق الفرس ، ثم اشتبك مع ضابط فرنسي في معركة بخنجره الذي كان يريد أن يقتل به السلطان المزيف ، فانتهت باستشهاده ، فكان عمله الجريء هذا بداية المعركة المسلحة ضد القوة الاستعمارية الغاشمة .

وهكذا راحت فرق الفداء تهاجم المستعمرين والخونة ، بدون انقطاع في المدن والقرى ، وفي كل مكان ، بالمسدسات والبنـــادق الرشاشة والقنابل اليدوية ، حتى أصبحت أيام المتسلطن ابن عرفـــة أيام محن ، عادت بالويل العظيم عليه وعلى أذنابه . وقاطع الشعب البضائع الفرنسية وشرب الدخان ، فكان ذلك وبالاً على الاقتصاد الفرنسي . ولما وجدت فرنسا نفسها أنها في مأزق حرج ، بسبب ضربات مطارق الكفاح المسلح في الداخل،والكفاح السياسي في الخارج، أخذت تدعو الأحزاب السياسية الوطنية للتباحث معها ، في شأن إدخال جملة من الإصلاحات ، ولكنها لم تجد من يفاوضها حول ذلك ، إذ كان جواب تلك الهيئات المخلصة دائماً : الحرية والإستقلال لا الإصلاحات .

النصر المبين وعودة البطل الأمين

في يوم أول أكتوبر 1955 م خطت تلك الهيئات الوطنية العاملة خطوة أكثر فعالية ، حيث كونت فرقاً من جيش التحرير في جبال الريف ، وانطلق ذلك الجيش يشن غاراته الشديدة على معاقل الفرنسيـين ويدكها دكاً . وتزايدت أعمال الفداء في أنحاء المغرب . وأمام ذلك لم تجد قوى الاستعمار الغاشم بدأً من الرضوخ لداعي الحق . فوافقت فرنسا كرهاً على منح المغرب حريته واستقلاله ، وإعادة ملكه المفدى محمد الخامس إلى عرشه ، وإطلاق سراح جميع المناضلين المعتقلين .

وفي يوم 16 نوفمبر 1955 م عاد الملك الحبيب إلى شعبه يحمل معه وثيقة الاستقلال ، بعد غيبة طويلة دامت سنتين وخمسة أشهر . وبعـــد

يومين فقط من رجوعه حل يوم عيد العرش المجيـــد الذي يوافق 18 نوفمبر . فألقى الملك المفدى خطابه العظيم،الذي أعلن فيه حصول المغرب على الحرية والإستقـــلال . وهكذا عاش الشعب المغربي في تلك الأيام الخالدة في غمرة من الأفراح ، أفراح بالحرية والاستقلال،وأفراح بعودة كنزه الثمين محمد الخامس ، وأفراح بعيد عرشه المجيد .

وما أن حل يوم سابع ديسمبر من نفس السنة الفارطة حتّى تألفت أول حكومة مغربية حرة ، وتفاوضت مع فرنسا في الشؤون المتعلقة بينها وبين المغرب ، فأسفر ذلك عن اعلان فرنسا اعترافها الرسمي باستقلال المغرب ووحدة ترابه ، كما حصلت مفاوضة مماثلة بين المغرب واسبانيا فأعلنت بدورها عقبها عن اعتّراف الدولة الاسبانية بـذلك الاستقلال . وهكذا توحدت منطقة الشمال أو المنطقة الخليفية ، مع منطقة الجنوب أو المنطقة السلطانية ، بعد أن كانت الأولى تحت الحماية الإسبانية والثانية تحت الحماية الفرنسية ، كما ضمت منطقة طنجة ذات النظام الدولي سابقاً الى باقي الوطن .

وفي شهر يوليو سنة 1956 م حصل المغرب على عضويته في هيئـــة الأمم المتحدة ، كما أصبح عضواً عاملاً في الجامعة العربية .

أعماله الجليلة في الميادين الأخرى

لملكنا الراحل — طيّب الله ثراه — أعمال كثيرة في مختلف الميادين، سواء في عهد الحماية أو في عهد الاستقلال ، ونقتصر على ما حققـــه أيام الحماية بالرغم من عراقيل الاستعمار فيما يأتي : حثه المستمر للمواطنين

على التعلم وفتح المدارس الحرة ومحاربة الأمية ، مذكراً إياهم في خطبه العديدة أن التعليم هو السبيل الوحيد لرقي الأمم ؛ فلبى الشعب عن بكرة أبيه هذه الدعوة الرشيدة وأقبل على التعلم وأكثر من فتح المدارس الحرة، الابتدائية والثانوية حتى أصبح مجموع التلاميذ المقبلين عليها يفوق عدد المقبلين على المدارس الحكومية الفرنسية ، كما حث — رحمه الله — على العناية بالصناعة المغربية وتشجيعها والاهتمام بالفلاحة، وإعانة الفقير والمحتاج. واعتنى بنهضة المرأة المغربية اعتناء بالغاً ، لأنــه كان يؤمن كما نؤمن جميعاً أن المرأة جزء مكمل للأمة ، ولا اعتبار لنهضة بدون مشاركتها مشاركة فعالة .

وما أن عاد المليك الحبيب إلى وطنه حتى شرع في تنفيذ ما كان يصرح به في أعياد العرش ، من أسباب التقدم والعزة والكرامــة لشعبه الوفي . فبعد ما كوّن أول حكومة وطنية حرة ، وأصبح استقلالنا أمراً واقعياً بوجود وزارتي الداخلية والخارجية والحربية أنشأ جيشاً وطنياً، أطلق عليه اسم القوات الملكية المسلحة وشعاره : الله ، الوطن ، الملك . وأصبح الملك رئيساً أعلى لتلك القوات الفتية، وسمو الأمير المحبوب مولاي الحسن رئيساً لأركانها ، كما هيأ فرقاً من الشرطة ورجال الدرك للمحافظة على الأمن ومساعدة المواطنين .

وفيما يتعلق بنظام الحكم في البلاد جعله ديمقراطياً ملكيــاً دستورياً . وأسس المجلس الإستشاري ، الذي يعتبر نواة للبرلمان . وأصدر ظهيراً قرر فيه الحق النقابي . فتأسست النقابات الحرة . وتأسست في عهده أول جامعة مغربية عصرية في الرباط ، كما بنيت عدة مدارس إبتدائية وثانوية جديدة . فأقبلت الأمة شيبها وشبابها، نساؤها وأطفالها على التعليم إقبالاً منقطع النظير . وكثرت الصحف والمجلات والكتب الدراسية . وبنيت مستشفيات جديدة كثيرة .

واعتنى — رحمه الله — بأبناء الشهداء وأراملهم ، فضمن لهم العيش الكريم ، تخفيفاً لآلامهم ، وتقديراً لتضحياتهم . وأمر ببناء بيوت صحية عصرية لسكنى الفقراء، بدل بيوت القصدير التي تسيء إلى سمعة الوطن . لقد أصلحت الطرق والقناطر وبني غيرها. وأمر بالتنقيب عن معادن جديدة، خصوصاً البترول . ووجه عنايته الكريمة نحو الفلاحة والصناعة مهيأً لهما كل أسباب التقدم والرقي ، وغيرها من الأعمال المفيدة ، التي يضيق هذا الدرس بذكرها . وبذل عونه العظيم للشعب الجزائري الشقيق في سبيل تحريره .

وفاته :

وأثناء عملية جراحية أجراها ملكنا الهمام بعاصمته فاضت روحه العزيزة في 10 رمضان 1380 هـ، ملبية دعوة ربها . فأظهرت الأمة برمتها مقدار ما تكنّه من الحب والتقدير لمن جلس على عرشها وحافظ على أمانتها . فانهمرت الدموع كالمطر، ودوت صيحات الحزن والألم كالرعد من كل بيت ، بل ومن كل فم . ولم يصدق الكثيرون أن يصيب الموت محمداً الخامس الذي خرج من الوطن على أيدي الجناة عزيزاً مرفوع الرأس ، وعاد الينا عزيزاً مرفوع الرأس، وفي يده قبس الحرية ونبراس الاستقلال.

ولولا أننا شعب مؤمن بالله وبرسوله الكريم ، ونمتثل لقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » . لولا أننا نؤمن بهذه الآية العزيزة المتعلقة بسيد المرسلين محمد (ص) لجننا من الصدمة الثقيلة بفقدان أعز ما أحبته القلوب على اختلاف ألوانها ومشاربها، فرحم الله البطل العظيم ، وعاشت أفكاره ومبادئه الغالية مدى الحياة .

تولية الحسن الثاني وبعض منجزاته (1380 — إلى يومنا)

وبعد وفاة ملكنا الراحل اعتلى على أريكة العرش ابنه البار الملك

الشاب الحسن الثاني ، وهو بحق مثال للذكاء المتوقد ، والمعرفة الصحيحة والحنكة السياسية وسعة الصدر ، والتشبع بالحرية .

وقد مر على توليته حتى أيامنا عامان ونيف ، وفي خلال هذه المدة القصيرة ، استطاع هذا الملك المقتدر أن يحقق كثيراً من المنجزات الهامة ، من بينها الدستور ، الذي يضمن للأمة الحرية والكرامة ، والإنعاش الوطني ، الذي يقوم على تشغيل العاطلين قبل أن يكون مخصصاً للمنح والصدقات . وفي الناحية الاقتصادية والصناعية تواصل الجهود لبلوغ الهدف المنشود من تقدمها ورقيها ، وفي السنة الدراسية المقبلة (63 — 64) سيلتحق جميع الأطفال المغاربة الذين يبلغون سن الدراسة ذكوراً وإناثاً بالمدارس ، وسيسن قانون التعليم الإجباري ، هذا إلى جانب اتساع نشاط الجامعة المغربية بإنشاء كليات جديدة في مركزها بالعاصمة وبفاس، وتزايد النشاط الثقافي من حيث تأليف الكتب وصدور الصحف والمجلات وإلقاء المحاضرات في المراكز الثقافية وبواسطة الراديو والتلفزيون ، الذي يعتبر أيضاً من حسناته المشكورة. أما النهضة النسوية فتتمثل في إقبال الفتاة على التعليم الإبتدائي والثانوي والعالي إقبالاً متزايداً ، ومشاركتها الفعالة في إدارة مصالح البلاد ، إلى جانب دورها الأول وهو العناية بالبيت وتربية الأولاد . أطال الله عمر ملكنا المفدى حتى يحقق لشعبه الوفي كل ما يصبو إليه من عظمة ومجد ، ويتم على يديه إن شاء الله تحرير باقي أجزاء الوطن التي ما زالت في قبضة الإستعمار الإسباني والفرنسي . كما نرجو أن تتحقق في أيامه وحدة المغرب العربي ، التي عمل من أجلها سائر ملوك المغرب ، وبذل من أجلها ملكنا الراحل محمد الخامس غالي التضحيات مع شعبه الوفي . وسار على خطته في هذا السبيل ابنه البار الحسن الثاني .

• نقاط التلخيص •

- لملكنا الراحل محمد الخامس مواقف سياسية مشرفة كثيرة في عهد الحماية ، منها معارضته للظهير البربري ، ورفضه لإلحاق المغرب بالعائلة الفرنسية ورفضه التنازل عن عرش الأمة .
- ولما نفي الملك إلى منفاه السحيق على يد الساطة الفرنسية الغاشمة قام الشعب على بكرة أبيه ، وخاض الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم طيلة غيبة ملكه .
- لما رأت السلطات الفرنسية أن لا سبيل لتهدئة الحالة الخطيرة رغم ما استعملته من شدة وعنف رضخت كرهاً إلى أن تعترف باستقلال المغرب وتعيد كنزه الثمين الذي أنزلته عن العرش ونفته . وبعودة الاستقلال وملك الشعب عاد الهدوء وشرع في بناء المجد .
- من أعماله الجليلة في عهد الاستقلال : تأليف أول حكومة مغربية تتوفر على كامل حريتها ، وجعله نظام الحكم في البلاد ديمقراطياً ملكياً ، ومنح الحرية النقابية وحرية الصحافة ، وتأسيس المجلس الاستشاري، وإنشاء أول جامعة مغربية عصرية في العاصمة وغير ذلك.
- بعد أن توفي حبيب الشعب محمد الخامس تولى العرش ابنه الحسن الثاني — أطال الله عمره — ومن منجزاته الهامة : تهييء الدستور الديمقراطي للأمة ، وتأسيس الإنعاش الوطني ، وإنشاء كليات ومدارس كثيرة ، ومصانع جديدة ، وغير ذلك .

اسئلة

1 – ما مواقف الملك محمد الخامس السياسية ؟

2 – متى شرع الشعب في الكفاح المسلح ضد المستعمر ؟ ما نتيجة ذلك ؟

3 – في أي تاريخ عاد الملك البطل إلى وطنه من منفاه ؟ صف فرحة الشعب بذلك ؟

4 – عدد بعض أعماله الجليلة في عهد الاستقلال ؟ متى توفي رحمه الله ؟

5 – حدثنا عن تولية الملك الحسن الثاني ؟ ماذا تعرف عن منجزاته الهامة ؟

• نقاط التلخيص •

- لم تتأثر الحركة الثقافية بما حصل من ضعف وتأخر في أواخر أيام السعديين وبداية نشأة العلويين ، لأسباب عدة ، منها : أن معظم ملوك هاتين الدولتين كانوا علماء وأدباء ، ثم قيام زاوية الدلائين بذلك الدور العظيم في ميدان الثقافة والفكر ، وتردد رجال العلم والأدب على دول أوروبا .

- يلاحظ في العصر العلوي أن الفقهاء شاركوا بدورهم بإنتاجهم العلمي والأدبي في تغذية الثقافة ، كما كان الحال في الأندلس .

- من ضروب الثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر: العلوم الشرعية والأدبية ، وعلوم الجغرافية والتاريخ والرياضيات والفلسفة .

- في فترة الضعف والاضطرابات والتدخل الأجنبي التي أدت في النهاية إلى إعلان الحماية ، توقفت تلك الحركة توقفاً تاماً، وعمل الأجانب المحتلون للبلاد على القضاء عليها . ولكن جامعة القرويين حافظت على تراث الأجداد من الضياع ، كما كان ظهور محمد الخامس عاملاً قوياً على استعادة ذلك المجد الغابر في عالم الفكر والثقافة .

- في عهد الدولة العلوية علا شأن المجتمع المغربي ، خصوصاً أيام ملوكها العظام . ففي أيامهم استقر الأمن واستبحر العمران وكثرت الخيرات وترقت أحوال الناس من كافة الوجوه، وما زالت حياتنا الاجتماعية وكذا الثقافية ، في حاجة إلى مزيد من التقدم والرقي في دائرة الدين والعروبة وتقاليدنا المغربية .

أسئلة

1 – لم لم تتأثر الحركة الثقافية في أواخر أيام السعديين ، بما اعترى الدولة من ضعف ؟ عا
أسباب ذلك بوضوح ؟

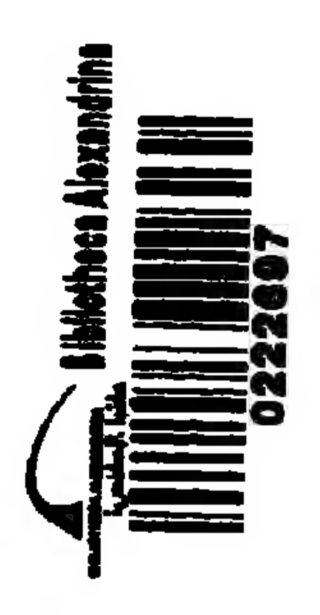
2 – ما دور زاوية الدلائين في الناحيتين العلمية والسياسية ؟

3 – حدثنا – باختصار – عن الحركة الثقافية في عهد الملوك العلويين ، قبل قيام الاضطرابا
وإعلان الحماية ؟

4 – كيف كانت الحياة الاجتماعية في العهد العلوي السالف ؟

5 – ما أبرز ما يتصف به عصرنا في حياته الثقافية والاجتماعية منذ ملكنا الراحل محمد الخام
وأيامنا هذه على عهد الحسن الثاني ؟

الفهرس



دار الكتاب
الدار البيضاء